بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهى : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ » إلى قوله : « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . وقال الضحاك : هى مدنية، وفيها آيات مكية ؛ قوله : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ » الآيات .

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار فى النبوة والرد على مقالاتهم [وجهالاتهم] (١) ؛ فمن جملتها قولهم : إن القرآن افتراه محمد، و إنه ليس من عند الله .

قوله تعالى : تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا (٣)

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ « تَبَارَكَ » اختلف فى معناه ؛ فقال الفراء : هو فى العربية و « تقدّس » واحد، وهما للعظمة . وقال الزجاج : « تَبَارَكَ » تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة الكثرة من كل ذى خير . وقيل : « تَبَارَكَ » تعالى . وقيل : تعالى عطاؤه، أى زاد وكثر . وقيل : المعنى دام وثبت إنعامه . قال النحاس : وهذا أولاها فى اللغة والاشتقاق ؛ من برك الشىء إذا ثبت ؛ ومنه برك الجمل والطير على الماء، أى دام

(١) من ك .

وثبت . فأما القول الأوّل فمخلّط [١] ؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذا فى شىء .
قال الثعلبي : و يقال تبارك الله، ولا يقال متبارَك ولا مبارَك ؛ لأنه ينتهى فى أسمائه وصفاته
إلى حيث ورد التوقيف . وقال الطِّرِمَّاح :

تبـاركتَ لا مُعْـطٍ لشيء منعتـه * وليس لمـا أعطيتَ يا ربِّ مانع

وقال آخـــر :

* تَبـارَكْتَ ما تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ *

قلت : قد ذكر بعض العلماء فى أسمائه الحسنى « المبـارك » وذكرناه أيضا فى كتابنا .
فإن كان وقع ٱتفاق على أنه لا يقال فيسلَّم للإجماع ، و إن كان وقع فيه ٱختلاف فكثير من
الأسماء ٱختلف فى عدّه ؛ كالدهر وغيره . وقد نبهنا على ذلك هنالك ، والحمد لله .

و « الفرقان » القرآن . وقيل : إنه ٱسم لكل مُنزَّل ؛ كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ
الْفُرْقَانَ [٢] » . وفى تسميته فرقانا وجهان : أحدهما — لأنه فرق بين الحق والباطل ، والمؤمن
والكافر . الثانى — لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام ؛ حكاه النقاش . ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾
يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ٱسم « يَكُونَ » [فيها [١]] مضمر يعود على « عَبْدِهِ »
وهو أولى لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون يعود على « الفرقان » . وقرأ عبد الله بن الزبير :
« عَلَى عِبَادِهِ » . و يقال : أنذر إذا خوّف ؛ وقد تقدم فى أول « البقرة [٣] » . والنذير : المحذِّر من
الهلاك . الجوهرى : والنذير المنذر ، والنذير الإنذار . والمـراد بـ « بالعـالمين » هنا الإنس
والجن ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد كان رسولا إليهما ، ونذيرا لهما ، وأنه خاتم الأنبياء ،
ولم يكن غيره عامّ الرسالة إلا نوح فإنه عمّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان ، لأنه بدأ به الخلق .

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ عظّم تعالى نفسه . ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾
نزّه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله ؛ يعنى بنات الله سبحانه
وتعالى . وعما قالت اليهود : عزير ٱبن الله ؛ جلّ الله تعالى . وعما قالت النصارى : المسيح
ٱبن الله ؛ تعـالى الله عن ذلك . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ كما قال عبـدة الأوثان .

---

(١) فى ك : فغلط . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٩٥ . (٣) راجع جـ ١ ص ١٨٤ .

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا كما قال المجوس والثَّنوِيَّة : إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء . ولا كما يقول من قال : للمخلوق قدرة الإيجـاد . فالآية ردٌّ على هؤلاء . ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي قـدّر كل شيء ممـا خلق بحكمته على ما أراد، لا عن سهوة وغفلة، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة، فهو الخالق المقدِّر[1] ؛ فإياه فاعبدوه .

قوله تعـالى : ﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب في ٱتخاذهم الآلهة ، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته . ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ يعني الآلهـة . ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لمّـا ٱعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع ، عبّر عنها كما يعبّر عما يعقل . ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا دفع ضرّ وجلب نفع، فحـذف المضـاف . وقيل : لا يقـدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشيء ، ولا لن يعبدهم ، لأنها جمادات . ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي لا يميتون أحدا، ولا يحيونه. والنشور : الإحياء بعد الموت؛ أنشر الله الموتى فنشروا . وقد تقدم[2] . وقال الأعشى :

حتى يقولَ الناسُ ممـا رَأَوْا * يا عجبًـا للميّتِ النّـاشِــرِ

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

قوله تعـالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي قريش . وقال ٱبن عباس : القائل منهم ذلك النضر بن الحرث؛ وكذا كلّ ما في القرآن فيه ذكر الأساطير . قال محمد بن إسحق : وكان مؤذيا للنبيّ صلى الله عليه وسـلم . ﴿إِنْ هَـٰذَا﴾ يعني القرآن . ﴿إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ﴾ أي كذب ٱختلقه . ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعني اليهود؛ قاله مجاهد. وقال ٱبن عباس :

---

(١) في ك : المقتدر .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٩ .

المراد بقوله «قَوْمٌ آخَرُونَ» أبو فُكَيْهة مولى بنى الحضرمى وعدّاس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب . وقد مضى فى « النحل »[1] ذكرهم . ﴿فقد جاءوا ظُلْمًا﴾ أى بظلم . وقيل : المعنى فقد أتوا ظلما . ﴿وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة؛ مثل أحدوثة وأحاديث . وقال غيره : أساطير جمع أسطار؛ مثل أقوال وأقاويل . ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعنى محمدا . ﴿فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أى تلقى عليه وتقرأ . ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ حتى تحفظ . و « تملى » أصله تُملَل؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف : كقولهم . تقضّى البازى؛ وشبهه .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذى يعلم السر ، فهو عالم الغيب ، فلا يحتاج إلى معلم . وذكر « السر » دون الجهر؛ لأنه من علم السر فهو فى الجهر أعلم . ولو كان القرآن مأخوذا من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها ، وقد جاء بفنون تخرج عنها ، فليس مأخوذ منها . وأيضا ولو كان مأخوذا من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضا كما تمكن محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه . ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يريد غفورا لأوليائه رحيما بهم .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ﴾ .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَقَالُوا » ذكر شيئا آخر من مطاعنهم . والضمير فى «قَالُوا» لقريش؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهور ، وقد تقدم

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٧٧ فما بعد .

في « سبحان »[1] . ذكره ابن إسحق في السيرة وغيره . مضمنه — أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا : يامحمد ! إن كنت تحب الرياسة وليناك علينا، وإن كنت تحب المـال جمعنا لك من أموالنا ؛ فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك رجعوا في باب الاحتجاج معه فقالوا : ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق ! فعيّروه بأكل الطعام ؛ لأنهـم أرادوا أن يكون الرسول ملَكا، وعيّروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسـواق ، وكان عليـه السلام يخالطهم في أسواقهم، ويأمرهم وينهاهم؛ فقالوا : هـذا يطلب أن يتملك علينا ، فمـاله يخالف سيرة الملوك ؛ فأجابهم الله بقوله ، وأنزل على نبيه : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » فلا تغتم ولا تحزن، فإنها شكاة ظاهر عنك عارها .

الثانيـــة — دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش . وكان عليه السلام يدخلها لحاجته، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته ، ويعـرض نفسه فيها على القبائل ، لعـلّ الله أن يرجع بهم إلى الحق . وفي البخاري في صفته عليه السلام : « ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق » وقد تقدّم في « الأعراف »[2] . وذكر السوق مذكور في غير ما حديث، ذكره أهل الصحيح . وتجارة الصحابة فيها معروفة، وخاصة المهاجرين؛ كما قال أبو هريرة : وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصّفق[3] بالأسـواق؛ خرجه البخاري . وسيأتي لهـذه المسئلة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله .

قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْـهِ مَلَكٌ ﴾ أي هـلا . ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ جواب الاستفهام . ﴿ أَوْ يُلْقَى ﴾ في موضع رفع ؛ والمعنى : أو هلا يلقى ﴿ إِلَيْـهِ كَنْزٌ ﴾ ﴿ أَوْ ﴾ هلا ﴿ تَكُونُ لَهُ جَنَّـةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ « يأكل » بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين بالنون، والقراءتان حسنتان تؤدّيان عن معنى، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٨ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٩ .

(٣) الصفق : التبايع .

قد تقدّم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحده فأن يعود الضمير عليه أبين ؛ ذكره النحاس .
﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ تقدم في « سبحان »(1) والقائل عبد الله ابن الزِّبَعْرى فيما ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أي ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا إلى تكذيبك . ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ شرط ومجازاة، ولم يدغم « جَعَلَ لَكَ » لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثلين. ﴿ وَيَجْعَلْ لَكَ ﴾ في موضع جزم عطفا على موضع « جعل » . ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعا من الأول . وكذلك قرأ أهل الشام . ويروى عن عاصم أيضا: « وَيَجْعَلُ لَكَ » بالرفع ؛ أي وسيجعل لك في الآخرة قصورا . قال مجاهد : كانت قريش ترى البيت من حجارة قصرا كائنا ما كان. والقصر في اللغة الحبس، وسمى القصر قصرا لأن من فيه مقصور عن أن يوصل إليه . وقيل : العرب تسمى بيوت الطين القصر . وما يتخذ من الصوف والشعر البيت . حكاه القُشَيرى . وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خَيْثَمة قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعط ذلك من قبلك ولا يعطاه أحد بعدك، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئا ؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة ؛ فقال : "يجمع ذلك لى فى الآخرة" فأنزل الله عز وجل: «تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٧٢ .

مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا » . و يروى أن هذه الآية أنزلها رضوان خازن الجنان إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وفى الخبر : إن رضوان لما نزل سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم قال : يا محمد ! رب العزة يقرئك السلام، وهـذا سَفَط[1] — فإذا سَفَط من نور يتلألأ — يقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا، مع أنه لا ينقص مالك[2] فى الآخرة مثل جناح بعوضة ؛ فنظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير له ؛ فضرب جبريل بيده الأرض يشير أن تواضع ؛ فقال : " يارضوان لا حاجة لى فيها الفقر أحب إلىّ وأن أكون عبدا صابرا شكورا " . فقال رضوان : أصبتَ[3] ! الله لك . وذكر الحديث .

قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ يريد جهنم تتلظى عليهم . ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى من مسيرة خمسمائة عام . ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ قيل : المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم . وقيل : المعنى إذا رأتهم خزّانها سمعوا لهم تغيظا وزفيرا حرصا على عذابهم . والأول أصح ؛ لما روى مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب على متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا " قيل : يا رسول الله ! ولها عينان ؟ قال : "أما سمعتم الله عز وجل يقول : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » يخرج عُنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وُكِّلت بكل من جعل مع الله إلها آخر فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه " فى رواية " فيخرج عُنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب

(١) السفط : الذى يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء . وقيل : كالجوالق . وفى ك : سوط . وهو تحريف .
(٢) فى ك : مما لك .
(٣) فى ك : أصاب الله لك .

السمسم " ذكره رَزِين فى كتابه، وصححه ابن العربى فى قبسه، وقال : أى تفصلهم عن الخلق فى المعرفة كما يفصل الطائر حب السمسم من التربة . وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " يخرج عُنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إنى وُكِّلت بثلاث بكل جبّار عنيد وبكلّ من دعا مع الله إلها آخر وبالمصوِّرين " . وفى الباب عن أبى سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال الكلبي : سمعوا لها تغيظا كتغيظ بنى آدم وصوتا كصوت الحمار . وقيل : فيه تقديم وتأخير، سمعوا لها زفيرا وعلموا لها تغيظا . وقال قطرب : التغيظ لا يسمع، ولكن يرى ؛ والمعنى : رأوا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا ؛ كقول الشاعر :

ورأيت زوجك فى الوَغَى[1] * مُتقلِّدا سيفًا ورُمحا

أى وحاملا رمحا . وقيل : « سَمِعُوا لَهَا » أى فيها؛ أى سمعوا فيها تغيظا وزفيرا للمعذَّبين . كما قال تعالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ »[2] و « فى واللام » يتقاربان ؛ تقول : أفعل هذا فى الله ولله .

قوله تعالى : ﴿ وإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيِّق على الكافر كتضييق الزُّج[3] على الرمح؛ ذكره ابن المبارك فى رقائقه. وكذا قال ابن عباس، ذكره الثعلبي والقُشَيرى عنه، وحكاه الماوردى عن عبد الله بن عمرو . ومعنى « مُقَرَّنِينَ » مكَتَّفين؛ قاله أبو صالح . وقيل : مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قرنوا مع الشياطين ؛ أى قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ؛ قاله يحيى بن سلام . وقد مضى هذا فى « إبراهيم »[2] وقال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبايا * وأُبْنا بالملوك مُقَرَّنينا[4]

﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أى هلاكا ؛ قاله الضحاك . ابن عباس : ويلا . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول من يقوله إبليس وذلك أنه أول من يكسى حلة من النار

(١) كذا فى الأصول وهو الصواب . وفى المطبوع : الورى

(٢) راجع جـ ٩ ص ٩٤ و ٣٨٤ .

(٣) الزج (بالضم) : الحديدة التى فى أسفل الرمح .

(٤) الرواية فى البيت : « مصفدينا » .

فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول واثبوراه " . وآنتصب على المصدر ، أى ثبرنا ثبورا ؛ قاله الزجاج . وقال غيره : هو مفعول به .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة . وقال : ثبورا لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع ؛ وهو كقولك : ضربته ضربا كثيرا ، وقعد قعودا طويلا . ونزلت الآيات فى آبن خَطَل وأصحابه .

قوله تعالى : قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ . إن قيل : كيف قال « أَذَٰلِكَ خَيْرٌ » ولا خير فى النار ؛ فالجواب أن سيبويه حكى عن العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وقد علم أن السعادة أحبّ إليه . وقيل : ليس هو من باب أفعل منك ، وإنما هو كقولك : عنده خير . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال[1] :

* فشرُّكما لخـيركما الفِـداءُ *

قيل : إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا فى باب المنازل ؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين . وقيل : هو مردود على قوله : « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ » الآية . وقيل : هو مردود على قوله : « أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » . وقيل : إنما قال ذلك على معنى عِلمكم واعتقادكم أيها الكفار ؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن فى النار خيرا .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ أى من النعيم . ﴿ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ قال الكلبيّ : وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم ، فسألوه ذلك الوعد فقالوا : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ[2] » . وهو معنى قول آبن عباس . وقيل : إن الملائكة تسأل لهم

(١) هو حسان بن ثابت — رضى الله عنه — يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ويهجو أبا سفيان ، وصدر البيت : * أتهجوه ولست له بكفء *　　(٢) راجع جـ ٤ ص ٣١٧ .

الجنة؛ دليله قوله تعالى: «رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ»[1] الآية. وهذا قول محمد ابن كعب القُرَظي. وقيل: معنى «وَعْدًا مَسْئُولًا» أي واجبا وإن لم يكن يسأل كالدَّين؛ حكى عن العرب: لأعطينك ألفا. وقيل: «وَعْدًا مَسْئُولًا» يعني أنه واجب لك فتسأله. وقال زيد بن أسلم: سألوا الله الجنة في الدنيا ورغبوا إليه بالدعاء، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا. وهذا يرجع إلى القول الأول.

قوله تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو في رواية الدوري: «يحشرهم» بالياء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله في أول الكلام: «كَانَ عَلَى رَبِّكَ» وفي آخره «أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ». الباقون بالنون على التعظيم. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعُزير؛ قاله مجاهد وابن جريج. الضحاك وعكرمة: الأصنام. ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءة العامة بالياء وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ ابن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم. ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ وهذا استفهام توبيخ للكفار. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي قال المعبودون من دون الله سبحانك؛ أي تنزيها لك[2] ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾. فإن قيل: فإن كانت الأصنام التي تعبد تحشر فكيف تنطق وهي جماد؟ قيل له. ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدي والأرجل. وقرأ الحسن وأبو جعفر: «أَنْ نُتَّخَذَ» بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول. وقد تكلم في هذه القراءة النحويون؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر:

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٣ فما بعد. (٢) في ط: لماذا.

لا يجوز « نُتَّخَذ » . وقال أبو عمرو : لو كانت « نُتَّخَذ » لحذفت « مِن » الثانية فقلت : أن نُتَّخَـذ من دونك أولياءَ . كذلك قال أبو عبيدة، لا يجوز « نُتَّخَذ » لأن الله تعالى ذكر « مِن » مرتين، ولو كان كما قرأ لقال : أن نُتخذ من دونك أولياء . وقيل : إن « مِن » الثانية صلة قال النحاس : ومثل أبى عمرو على جلالته ومحله يستحسن ما قال ؛ لأنه جاء ببينة . وشرح ما قال أنه يقال : ما ٱتخذت رجلا وليـا ؛ فيجوز أن يقع هـذا للواحد بعينه ؛ ثم يقال : ما ٱتخذت من رجل وليا فيكون نفيا عاما، وقولك « وليا » تابع لمـا قبله فلا يجوز أن تدخل فيه « مِن » لأنه لا فائدة فى ذلك . ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أى فى الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم . ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ أى تركوا ذكرك فأشركوا بك بطرا وجهلا فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك . وفى الذكر قولان : أحدهما — القرآن المنزّل على الرسل؛ تركوا العمل به؛ قاله ٱبن زيد . الثانى — الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم . إنهم ﴿ كَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هلكى؛ قاله ٱبن عباس . مأخوذ من البوار وهو الهلاك . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه وقد أشرف على أهل حِمص : ياأهل حمص ! هلم إلى أخ لكم ناصح، فلما ٱجتمعوا حوله قال : ما لكم لا تستحون ! تبنـون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون، إن من كان قبلكم بنوا مشيدا[1] وجمعوا عبيدا، وأملوا بعيدا، فأصبح جمعهم بورا، وآمالهم غرورا، ومساكنهم قبورا . فقوله : « بُورًا » أى هلكى . وفى خبر آخر : فأصبحت منازلهم بورا؛ أى خالية لا شىء فيها . وقال الحسن : « بُورًا » لا خير فيهم . مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شهر بن حَوْشَب : البوار الفساد والكساد؛ مأخوذ من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد؛ ومنه الحديث "نعوذ بالله من بوار الأَيِّم" . وهو ٱسم مصدر كالزّور يستوى فيـه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث . قال ٱبن الزِّبَعْرَى :

يارسول المليك إنّ لسـانى * راتِـقٌ ما فَتَقتُ إذ أنا بُورُ
إذ أُبارى الشيطانَ فى سَنَنِ الغَـ * ـيِّ ومَنْ مَالَ ميـلَه مَثْبُـورُ

(١) فى ك : شديدا . والمعنى : قويا . محققه .

وقال بعضهم : الواحد بائر والجمع بور . كما يقال : عائذ وعُوذ، وهائد وهُود . وقيل : « بُورًا » عميا عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى يقول الله تعالى عند تبرّى المعبودين : « فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة . ﴿ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم . وقيل : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ﴿ صَرْفًا ﴾ للعذاب ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ من الله . وقال ابن زيد : المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد؛ وعلى هذا فمعنى « بِمَا تَقُولُونَ » بما تقولون من الحق . وقال أبو عبيد : المعنى؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذى هداكم الله إليه ، ولا نصرا لأنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم . وقراءة العامة « بِمَا تَقُولُونَ » بالتاء على الخطاب . وقد بيّنا معناه . وحكى الفراء أنه يقرأ : « فَقَدْ كَذَبُوكُمْ » مخففا ، « بِمَا يَقُولُونَ » . وكذا قرأ مجاهد والبزّى بالياء ، و يكون معنى « يَقُولُونَ » بقولهم . وقرأ أبو حَيْوَة : « بِمَا يَقُولُونَ » بياء « فَمَا تَسْتَطِيعُونَ » بتاء على الخطاب لمتخذى الشركاء . ومن قرأ بالياء فالمعنى : فما يستطيع الشركاء . ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : من يشرك منكم ثم مات عليه . ﴿ نُذِقْهُ ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ أى شديدا؛ كقوله تعالى : « وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا »[1] أى شديدا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ نزلت جوابا للمشركين حيث قالوا : « مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » . وقال ابن عباس : لما غير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة وقالوا : « مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ »

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١٤ .

الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فنزلت تعزية له ؛ فقال جبريل عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله ! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » أى يبتغون المعايش فى الدنيا .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن فى « إن » إلا الكسر ، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضا إلا الكسر ؛ لأنها مستأنفة . هذا قول جميع النحويين . قال النحاس : إلا أن عليّ بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال : يجوز فى « إنّ » هذه الفتح وإن كان بعدها اللام ، وأحسبه وهْما منه . قال أبو إسحق الزجاج : وفى الكلام حذف ؛ والمعنى وما أرسلنا قبلك رسلا إلا إنهم ليأكلون الطعام ، ثم حذف رسلا ، لأن فى قوله : « مِنَ الْمُرْسَلِينَ » ما يدل عليه . فالموصوف محذوف عند الزجاج . ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقية الصلة كما قال الفراء . قال الفراء : والمحذوف « مَن » والمعنى إلا مَنْ إنهم ليأكلون الطعام . وشبّهه بقوله : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ »[1] ، وقوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »[2] أى ما منكم إلا من هو واردها . وهذا قول الكسائى أيضا . وتقول العرب : ما بعثت إليك من الناس إلا مَن إنه ليطيعك[3] . فقولك : إنه ليطيعك صلة من . قال الزجاج : هذا خطأ ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها . وقال أهل المعانى : المعنى ؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم ليأكلون ؛ دليله قوله تعالى : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ »[1] . وقال ابن الأنبارى : كسرت « إِنَّهُم » بعد « إلا » للاستئناف بإضمار واو . أى إلا وإنهم . وذهبت فرقة إلى أن قوله : « لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » كناية عن الحدث .

قلت : وهذا بليغ فى معناه ، ومثله « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ »[4] . ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قرأ الجمهور « يَمْشُونَ » بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين . وقرأ عليّ وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة ، بمعنى يُدْعَون إلى المشى ويحملون عليه . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة ، وهى بمعنى يَمْشُون ؛ قال الشاعر :

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٧ وص ٣٦٦ .   (٢) راجع جـ ١١ ص ١٣٥ .
(٣) فى ك : يعطيك ، ليعطيك صله   (٤) راجع جـ ٦ ص ٢٥٠ .

ومَشَّى بأعطان المَبَاءة وابتغى * قلائصَ منها صعبةٌ ورَكُوبُ [1]

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سِباعُ الجوّ [2] ضامِزة * ولا تُمَشِّى بوادِيه الأراجيلُ

بمعنى تَمْشى .

الثالثة — هذه الآية أصل فى تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع ، لكنا نذكر هنا من ذلك ما يكفى فنقول : قال لى بعض مشايخ هذا الزمان فى كلام جرى : إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء ؛ فقلت مجيبا له : هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء ، والرعاع السفهاء ، أو من طاعن فى الكتاب والسنة العلياء ؛ وقد أخبر الله تعالى فى كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق : «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ» [3] . وقال : «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» قال العلماء : أى يتجرون ويحترفون . وقال عليه الصلاة والسلام : "جُعِل رزقى تحت ظل رُمْحى" وقال تعالى «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» [4] وكان الصحابة رضى الله عنهم يتجرون ويحترفون وفى أموالهم يعملون ، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون ؛ أتراهم ضعفاء ! بل هم كانوا والله الأقوياء ، وبهم الخلف الصالح اقتدى ، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء . قال : إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء ، فتناولوها مباشرة فى حق الضعفاء ، فأما فى حق أنفسهم فلا ؛ وبيان ذلك أصحابُ الصُّفَّة .

قلت : لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان ؛ كما ثبت فى القرآن «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» [5] وقال : «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى» [6] الآية . وهذا من البينات والهدى . وأما أصحاب الصُّفّة فإنهم كانوا ضيف الإسلام

---

(١) فى روح المعانى : «ذلول» بدل «ركوب» . (٢) الجو : البر الواسع . وضامزة : ساكنة ، وكل ساكت فهو ضامز . والأراجيل : جمع أرجال كأناعيم جمع أنعام . وأرجال جمع رجل . يصف الشاعر أسدا بأن الأسود والرجال تخافه ، فالأسود ساكنة من هيبته والرجال ممتنعة عن المشى بواديه .

(٣) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠ . (٤) راجع جـ ٨ ص ١٥ . (٥) راجع جـ ١٠ ص ١٠٠ .

(٦) راجع جـ ٢ ص ١٨٤ .

عند ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هـذا يحتطبون ويسوقون[1] المـاء إلى أبيات رسول الله صلى الله عليـه وسلم . كذا وصفهم البخاري وغيره . ثم لمـا آفتتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمّروا، وبالأسباب أُمِروا . ثم إن هـذا القول يدلّ على ضعف النبي صلى الله عليـه وسلم وأصحابه؛ لأنهـم أُيِّدوا بالملائكة وثُبّتوا بهـم، فلو كانوا أقوياء ما آحتـاجوا إلى تأييـد الملائكة وتأييـدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هـذا ، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذى آنعقد عليه إجمـاع المسلمين ؛ وإلا كان يكون قوله الحق : « وَأَعِدُّوا لَهُـمْ مَا آسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْـلِ[2] » — الآية — مقصورا على الضـعفاء، وجميـع الخطابات كذلك . وفى التنزيل حيث خاطب موسى الكليم «اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ[3]» وقد كان قادرا على فلق البحر دون ضرب عصا . وكذلك مريم عليها السلام « وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ[4]» وقد كان قادرا على سقوط الرطب دون هزّ ولا تعب ؛ ومع هـذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطَف به ويعان ، أو تجاب دعوته ، أو يكرم بكرامة فى خاصة نفســه أو لأجل غيره ، ولا تهدّ لذلك القواعد الكلية والأمور الجملية . هيهات هيهات ! لا يقال فقد قال الله تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ[5] » فإنا نقول : صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم، وأن الرزق هنا المطر بإجمـاع أهل التأويل؛ بدليل ؛ قوله : « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا[5] » وقال : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِـيدِ[6] » ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جِفان اللحم، بل الأسباب أصل فى وجود ذلك ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : "آطلبوا الرزق فى خبايا الأرض" أى بالحرث والحفر والغرس . وقد يسمى الشيء بمـا يؤول إليه، وسمى المطر رزقا لأنه عنه يكون الرزق ، وذلك مشهور فى كلام العرب . وقال عليـه السلام : "لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه" وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب . ولو قدّر رجل بالجبال منقطعا عن الناس لمـا كان له بدّ من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش

---

(١) فى ك : يستقون . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٥ . (٣) راجع ص ١٠٠ من هذا الجزء فما بعد .
(٤) راجع جـ ١١ ص ٩٤ . (٥) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٨ . (٦) راجع جـ ١٧ ص ٦ .

به ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : " لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكّله لرزقتم كما تُرزق الطير تغدو خِماصا و تروح بِطانا " فغدوّها و رواحها سبب ؛ فالعجب العجب ممن يدعى التجريد والتوكل على التحقيق ، و يقعد على ثنيات الطريق ، و يدع الطريق المستقيم ، والمنهج الواضح القويم . ثبت فى البخارى عن ٱبن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون و يقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس ؛ فأنزل الله تعالى « وتَزَوَّدوا »(١) . ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد، وكانوا المتوكلين حقا . والتوكل ٱعتماد القلب على الرب فى أن يُلِمّ شعثه و يجمع عليه أَرَبَه ؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر . وهذا هو الحق . سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال : إنى أريد الحج على قدم التوكل . فقال : ٱخرج وحدك ؛ فقال : لا، إلاّ مع الناس . فقال له : أنت إذن متكل على أجربتهم . وقد أتينا على هذا فى كتاب « قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكسب والصناعة(٢) » .

الرابعة — خرّج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " . وخرّج البزّار عن سلمان الفارسيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن ٱستطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته " . أخرجه أبو بكر البَرْقانيّ مسندا عن أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ — من رواية عاصم — عن أبى عثمان النهديّ عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فيها باض الشيطان وفرّخ " . ففى هذه الأحاديث ما يدلّ على كراهة دخول الأسواق، لا سيما فى هذه الأزمان التى يخالط فيها الرجال النسوان . وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل فى الأسواق وظهرت فيها المناكر : كُرِه دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم فى الدِّين تنزيها لهم عن البقاع التى يُعصى الله فيها . فحق على من ٱبتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله ٱقتصر منه على قدر ضرورته ، وتحرز من سوء عاقبته وبليته .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٤١١ .
(٢) كذا فى ك وهو الصواب وفى ا و ب و ى : بالكتب والشفاعة .

الخامســـة — تشبيه النبيّ صلى الله عليه وسلم السوق بالمعركة تشبيه حسن ؛ وذلك أن المعركة موضع القتال، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضا . فشبّه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها .

السادســة — قال ابن العربيّ : أما أكل الطعام فضرورة الخلق لاعار ولا دَرْك[1] فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للروءة وهدم للحشمة؛ ومن الأحاديث الموضوعة[2] "الأكل في السوق دناءة" .

قلت : ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعما هو ؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن ؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن . وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن ، وقلة الحياء قد غلبت عليهن، حتى ترى المرأة في القيسارِيات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا . نعوذ بالله من سخطه .

السابعــة — خرّج أبو داود الطيالسيّ في مسنده حدّثنا حماد بن زيد قال حدّثنا عمرو ابن دِينار قهرمان[3] آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: "من دخل سوقا من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئة وبنى له قصرا في الجنة" خرجه الترمذيّ أيضا وزاد بعد " ومحا عنه ألف ألفِ سيئة " : "ورفع له ألف ألف درجةٍ وبنى له بيتا في الجنة". وقال : هذا حديث غريب . قال ابن العربيّ : وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سواه[4] ليعمرها بالطاعة إذ عُمِرت بالمعصية، وليحليها بالذكر إذ عطلت بالغفلة، وليعلِّم الجهلة ويذكر الناسين .

(١) الدرك (يسكن ويحرك) : التبعة . (٢) الحديث رواه الطبراني عن أبي أمامة والخطيب عن أبي هريرة وضعفه السيوطي . (٣) القهرمان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل ، بلغة الفرس .
(٤) سواه : أي سوى الله تعالى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أى إن الدنيا دار بلاء وآمتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم فى جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغنى فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنىّ . ومعنى هذا أن كل واحد مختبَر بصاحبه ؛ فالغنى ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه . والفقير ممتحَن بالغنىّ، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق ؛ كما قال الضحاك فى معنى «أَتَصْبِرُونَ» : أى على الحق . وأصحاب البلايا يقولون : لِمَ لم نعافَ؟ والأعمى يقول: لِمَ لَمْ أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة . والرسول المخصوص بكرامة النبوّة فتنة لأشراف الناس من الكفار فى عصره . وكذلك العلماء وحكام العدل . ألا ترى إلى قولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[(١)] . فالفتنة أن يحسد المبتلَى المعافى، و يحقر المعافى المبتلى . والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر . « أَتَصْبِرُونَ » محذوف الجواب، يعنى أم لا تصبرون . فيقتضى جوابا كما قاله المزنى ، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصيا فى مراكب ومناكب ، فخطر بباله شىء فسمع من يقرأ الآية : « أَتَصْبِرُونَ » فقال : بلى ربنا ! نصبر ونحتسب . وقد تلا آبن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز فى مملكته عابرا عليه ، ثم أجاب نفسه بقوله : سنصبر . وعن أبى الدرداء أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول[(٢)] : " ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ » " أسنده الثعلبى تغمده الله برحمته . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل آبن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبى مُعَيط وعُتْبة بن ربيعة والنضر آبن الحرث حين رأوا أبا ذرّ وعبد الله بن مسعود، وعمارا وبلالا وصُهَيبا وعامر بن فُهَيرة ، وسالما مولى أبى حُذَيفة ومِهْجَعا مولى عمر بن الخطاب وجبرا مولى الحَضْرمى، ودونهم ؛ فقالوا على سبيل الاستهزاء : أنسلم فنكون مثل هؤلاء ؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء

(١) راجع ج ١٦ ص ٨٢ فما بعد . (٢) كذا فى ك و .

المؤمنين : «أَتَصْبِرُونَ» على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالتوقيف بـ «أَتَصْبِرُونَ» خاص للمؤمنين المحققين[١] من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، أى اختبارا لهم . ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم : « إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا[٢] » .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أى بكل امرئ وبمن يصبر أو يجزع ، ومن يؤمن ومن لا يؤمن ، وبمن أدّى ما عليه من الحق ومن لا يؤدّى . وقيل : «أَتَصْبِرُونَ» أى اصبروا . مثل «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ[٣]» أى انتهوا ؛ فهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يريد لا يخافون البعث ولقاء الله ، أى لا يؤمنون بذلك . قال :

إذا لَسَعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا * وخالَفَها فى بيت نُوبٍ عَواملِ[٤]

وقيل : « لَا يَرْجُونَ » لا يبالون . قال :

لعمركَ ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِماً * على أىِّ جَنْبٍ كان فى الله مَصْرَعِى[٥]

ابن شجرة : لا يأملون ؛ قال :

أترجو أُمّــةٌ قتلتْ حسينا * شفاعةَ جدّه يومَ الحسابِ

﴿لَوْلَا أُنزِلَ﴾ أى هلا أنزل . ﴿عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فيخبروا أن محمدا صادق . ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ عيانا فيخبرنا برسالته . نظيره قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

---

(١) وفى ك : المحنين : أى أهل الكرامة . فى ب : المحقين (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٥ .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٨٥ فما بعد . (٤) البيت لأبى ذؤيب وتقدّم شرحه فى جـ ٨ ص ٣١١ .
(٥) البيت من قصيدة لخبيب بن عدى قالها حين بلغه أن الكفار قد اجتمعوا لصلبه .

ينبوعا » إلى قوله : « أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا »[1] . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ حيث سألوا الله الشطط ؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب ، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، فلا عين تراه . وقال مقاتل : « عُتُوًّا » علوا في الأرض . والعتو : أشد الكفر وأفحش الظلم . وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة ؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين ، ولا بدّ لهم من معجزة يقيمها من يدّعى أنه مَلَك ، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة ، وأن ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت : فتبشر المؤمنين بالجنة ، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم . ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ يريد تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله ، وأقام شرائعها ؛ عن ٱبن عباس وغيره . وقيل : إن ذلك يوم القيامة ؛ قاله مجاهد وعطية العوفي . قال عطية : إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى : فإذا رأى ذلك الكافر تمناه فلم يره من الملائكة . وٱنتصب « يَوْمَ يَرَوْنَ » بتقدير لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة . « يَوْمَئِذٍ » تأكيد لـ « يَوْمَ يَرَوْنَ » . قال النحاس : لا يجوز أن يكون « يَوْمَ يَرَوْنَ » منصوبا بـ « بُشْرَى » لأن ما في حيز النفي لا يعمل فيما قبله ، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمنعون البشارة يوم يرون الملائكة ؛ ودلّ على هذا الحذف ما بعده . ويجوز أن يكون التقدير : لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة ، و « يَوْمَئِذٍ » مؤكد . ويجوز أن يكون المعنى : ٱذكر يوم يرون الملائكة : ثم ٱبتدأ فقال : « لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا » أي وتقول الملائكة حراما محرما أن تكون لهم البشرى إلا للمؤمنين . قال الشاعر :

أَلَا أَصْبَحَتْ أَسْمَاءُ حِجْرًا مُحَرَّمًا * وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَدْنَى حُمُوَّتِهَا حَمَا[2]

أراد ألا أصبحت أسماء حراما محرما .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٨ فما بعد .
(٢) قاله رجل كانت له ٱمرأة فطلقها وتزوجها أخوه ؛ أي أصبحت أخا زوجها بعد ما كنت زوجها .

وقال آخـــر[1] :

حنّت إلى النّخلةِ القُصْوى فقلتُ لها　*　حِجْـرٌ حرامٌ أَلَا تِلْكَ الدَّهارِيسُ

وروى عن الحسن أنه قال : « وَيَقُولُونَ حِجْرًا » وقفٌ من قول المجرمين ؛ فقال الله عز وجل : « مَحْجُورًا » عليهم أن يعاذوا أو يجاروا ؛ فحجـر الله ذلك عليهم يوم القيامة . والأول قول ابن عباس . وبه قال الفرّاء ؛ قاله ابن الأنباريّ . وقرأ الحسن وأبو رجاء : « حُجْرًا » بضم الحـاء والناس على كسرها . وقيل : إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم ؛ قاله قتـادة فيما ذكر المـاوردي . وقيـل : هو قول الكفار للملائكة . وهي كلمة استعاذة وكانت معروفة في الجاهلية ؛ فكان إذا لقي الرجل من يخافه قال : حجرا محجورا ؛ أي حراما عليك التعرض لي . وانتصابه على معنى : حجرت عليك ، أو حجر الله عليك ؛ كما تقول : سقيا ورعيا . أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم في النار قالوا : نعوذ بالله منكم ؛ ذكره القشيريّ ، وحكى معناه المهدوي عن مجاهد . وقيل : « حِجْرًا » من قول المجرمين . « مَحْجُورًا » من قول الملائكة ؛ أي قالوا للملائكة نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا . فتقول الملائكة : « مَحْجُورًا » أن تعاذوا من شر هذا اليوم ؛ قاله الحسن .

قوله تعـالى : وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ هذا تنبيه على عظم قدر يوم القيامة ؛ أي قصـدنا في ذلك إلى ما كان يعمله المجرمون من عمل برٍّ عند أنفسهم . يقال : قَدِم فلان إلى أمر كذا أي قصده . وقال مجاهد : « قَدِمْنَا » أي عمدنا . وقال الراجز :

وقَـدِم الخوارجُ الضُّـلالُ　*　إلى عِبـاد ربِّهـم فقـالوا

*　إن دماءكم لنـا حلالُ　*

(1) البيت للتلمس ؛ والنخلة القصوى : واد . والدهاريس : الدواهي . يقول لناقته : هذا الذى حنت إليه ممنوع . وبعده :

أمى شآمية إذ لا عراق لنـا　*　قوما نودّهم إذ قومنا شوس

وقيل: هو قدوم الملائكة، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله.[1] ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أى لا ينتفع به؛ أى أبطلناه بالكفر. وليس «هَبَاءً» من ذوات الهمز وإنما همزت لالتقاء الساكنين. والتصغير هُبَىٌّ فى موضع الرفع، ومن النحويين من يقول: هُبَيٌّ[2] فى موضع الرفع؛ حكاه النحاس. وواحده هباة والجمع أهباء. قال الحرث بن حِلِّزة [يصف ناقة]:

فَتَرى خلْفَها من الرَّجْعِ والوَقْـ * ـعِ مَنِينًا كأنه أهباء[3]

وروى الحرث عن على قال: الهباء المنثور شعاع الشمس الذى يدخل من الكوّة. وقال الأزهرىّ: الهباء ما يخرج من الكوّة فى ضوء الشمس شبيه بالغبار. تأويله: إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور. فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار. والمنبث المتفرق. وقال ابن عرفة: الهبوة والهباء التراب الدقيق. الجوهرى: ويقال له إذا ارتفع هبا يهبو هُبُوًّا وأهبيته أنا. والهَبْوة الغَبَرة. قال رؤبة.

تَبْدُو لنا أعلامُه بعد الغَرَقْ * فى قِطَعِ الآلِ وهَبْوَاتِ الدُّقَقْ[4]

وموضعٌ هابِى التراب أى كأن ترابه مثل الهباء فى الرقة. وقيل: إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر؛ قاله قتادة وابن عباس. وقال ابن عباس أيضا: إنه الماء المهراق. وقيل: إنه الرماد؛ قاله عبيد[5] بن يعلى.

قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

تقدم القول فيه عند قوله تعالى: «قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ»[6]. قال النحاس: والكوفيون يجيزون «العسل أحلى من الخل» وهذا قول مردود؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيرا منه ولا حلاوة فى الخل. ولا يجوز أن يقال: النصرانى خير من اليهودى؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد فى الخير. لكن يقال: اليهودى شر

(١) كذا فى الأصول؛ وعبارة ابن عطية: «أسنده إليه لأنه عن أمره». (٢) قال النحاس: والتقدير عنده هبى. (٣) قوله «خلفها» أى خلف الناقة. والرجع: رجع قوائمها. والوقع: وقع خفافها. والمنين: الغبار الدقيق الذى تثيره. (٤) الدقق: مادق من التراب، والواحد منه الدق كما تقول الحل والحلل. (٥) كذا فى الأصول؛ وفى «روح المعانى»: يعلى بن عبيد. (٦) راجع ص ٩ من هذا الجزء.

من النصراني؛ فعلى هـذا كلام العرب . و « مُسْتَقَرًّا » نصب على الظرف إذا قدر على غير باب « أفعل منك » والمعنى لهم خير في مستقر . وإذا كان من باب « أفعل منك » فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوي . قال قتادة : « وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » منزلا ومأوى . وقيل : هو على ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار . ومنه الحديث المرفوع " إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم فيَقِيلُ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار " ذكره المهدوي . وقال ابن مسعود[(١)] : لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرأ : «ثم إن مِقيلهم لإلى الجحيم » كذا هي في قراءة ابن مسعود . وقال ابن عباس : الحساب من ذلك اليوم في أوله ، فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . ومنه ما روى : " قِيلوا فإن الشياطين لا تَقِيل " . وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " فقلت : ما أطول هذا اليوم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلّيها في الدنيا " .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ أي واذكر يوم تشقق السماء بالغمام . وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وأبو عمرو : « تَشَقَّقُ » بتخفيف الشين وأصله تتشقق بتائين فحذفوا الأولى تخفيفا ، واختاره أبو عبيـد . الباقون « تَشَّقَّقُ » بتشـديد الشين على الادغام ، واختـاره أبو حاتم . وكذلك في « ق »[(٢)] . « بِالْغَمَامِ » أي عن الغمام . والباء وعن يتعاقبان؛ كما تقول : رميت بالقوس وعن القوس . روى أن السماء تتشقق عن سحاب

(١) في ك : أبو سعيد .

(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٦ فما بعد .

أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم فتنشق السماء عنه؛ وهو الذى قال تعالى : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ » (١) . ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ من السموات ، ويأتى الربّ جل وعز فى الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء ، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه ؛ لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والآنتقال . وقال آبن عباس : تتشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الأرض من الجن والإنس، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى سماء الدنيا ، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة ، ثم ينزل الكروبيون (٢) وحملة العرش ؛ وهو معنى قوله : « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا » أى من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين . وقيل : إن السماء تنشق بالغمام الذى بينها وبين الناس ؛ فبتشقق الغمام تتشقق السماء ؛ فإذا آنشقت السماء آنتقض تركيبها وطويت ونزلت الملائكة إلى مكان سواها . وقرأ آبن كثير : « وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ » بالنصب من الإنزال . الباقون . « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ » بالرفع . دليله : « تَنزِيلًا » ولو كان على الأول لقال إنزالا . وقد قيل : إن نَزَّل وأنزل بمعنى؛ فجاء « تَنزِيلًا » على « نَزَّل » (٣) وقد قرأ عبد الوهاب عن أبى عمرو : « وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا » . وقرأ آبن مسعود : « وَأَنزَلَ الْمَلَائِكَةَ » . أبىّ ابن كعب : « وَنُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ » . وعنه « وتنزلت الملائكة » .

قوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ « الْمُلْكُ » مبتدأ و « الْحَقُّ » صفة له و « لِلرَّحْمَٰنِ » الخبر ؛ لأن الملك الذى يزول وينقطع ليس بملك ؛ فبطلت يومئذ أملاك المالكين وآنقطعت دعاويهم ، وزال كل ملك وملكه ، وبقى الملك الحق لله وحده . ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أى لما ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزى والهوان، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة ؛ على ما تقدّم فى الحديث . وهذه الآية دالة عليه؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيرا فهو على المؤمنين يسير . يقال . عَسِر يَعْسَر ، وعَسُر يَعْسُر .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٥ . (٢) الكروبيون (بفتح الكاف) : سادة الملائكة ، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل هم المقربون والكرب القرب . (٣) فى ك : وقد قيل قرأ .

قوله تعالى . ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ الماضي عضضت . وحكى الكسائيّ عضَضت بفتح الضاد الأولى . وجاء التوقيف عن أهل التفسير، منهم ٱبن عباس وسعيد ٱبن المسيب أن الظالم ها هنا يراد به عقبة بن أبي مُعَيط، وأن خليله أمية بن خلف؛ فعقبة قتله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتله؛ فقال : أأقتل دونهم ؟ فقال . نعم ، بكفرك وعتوك . فقال : من للصبية ؟ فقال : النار . فقام عليّ رضي الله عنه فقتله . وأمية قتله النبي صلى الله عليه وسلم، فكان هذا من دلائل نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خبّر عنهما بهذا فقتلا على الكفر . ولم يسميا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قَبِلَ من غيره في معصية الله عز وجل . قال ٱبن عباس وقتادة وغيرهما : وكان عقبة قد همّ بالإسلام فمنعه منه أبيّ بن خلف وكانا خِدنين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قتلهما جميعا : قُتل عقبة يوم بدر صبرا ، وأبيّ بن خلف في المبارزة يوم أحد ؛ ذكره القشيريّ والثعلبيّ ، والأوّل ذكره النحاس . وقال السهيليّ : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » هو عقبة بن أبي مُعَيط ، وكان صديقا لأمية بن خلف الجُمَحيّ ويروى لأبي بن خلف أخ أمية ، وكان قد صنع وليمة فدعا إليها قريشا ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم . وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل من طعامه ، فعاتبه خليله أمية بن خلف ، أو أبي ابن خلف وكان غائبا. فقال عقبة : رأيت عظيما ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش. فقال له خليله : لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت . ففعل

عدو الله ما أمره به خليله ؛ فأنزل الله عز وجل . « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » . قال الضحاك : لما بصق عقبة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع بصاقه فى وجهه وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أثر فى وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل أثر ذلك فى وجهه حتى قتل . وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله . ﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ فى الدنيا، يعنى طريقا إلى الجنة . ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ دعاء بالويل والثبور على محالفة الكافر ومتابعته . ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يعنى أمية، وكنى عنه ولم يصرح بآسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصا به ولا مقصورا ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما . وقال مجاهد وأبو رجاء : الظالم عام فى كل ظالم، وفلان : الشيطان . وآحتج لصاحب هذا القول بأن بعده « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا » . وقرأ الحسن : « يَا وَيْلَتِي » وقد مضى فى « هود »(١) بيانه . والخليل : الصاحب والصديق وقد مضى فى « النساء »(٢) بيانه . ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ أى يقول هذا النادم : لقد أضلنى من آتخذته فى الدنيا خليلا عن القرآن والإيمان به . وقيل : « عَنِ الذِّكْرِ » أى عن الرسول . ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ قيل : هذا من قول الله لا من قول الظالم . وتمام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » . والخذل الترك من الإعانة؛ ومنه خذلان إبليس للشركين لما ظهر لهم فى صورة سراقة بن مالك، فلما رأى الملائكة تبرأ منهم . وكل من صدّ عن سبيل الله وأطيع فى معصية الله فهو شيطان للإنسان، خذولا عند نزول العذاب والبلاء . ولقد أحسن من قال :

تجنّب قرين السّوء وآصرِمْ حبالَه * فإن لم تجد عنه محيصًا فداره
وأحبب حبيب الصدق وآحذر مراءه * تنل منه صفو الود مالم تماره
وفى الشيب ما ينهى الحليم عن الصِّبا * إذا آشتعلت نيرانه فى عِذاره

آخر :

آصحب خيار الناس حيث لقيتهم * خير الصحابة من يكون عفيفا
والناس مثل دراهم ميزتها * فوجدت منها فضة وزيوفا

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٩ . (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٠٠ .

وفى الصحيح من حديث أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنمـا مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يُحذِيك (١) وإما أن تبتاع منه وإمّا أن تجـد ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجـد ريحا خبيثة " لفظ مسلم . وأخرجه أبو داود من حديث أنس . وذكر أبو بكر البزّار عن آبن عباس قال : قيل يا رسول الله، أىّ جلسائنا خير؟ قال : " من ذكركم بالله رؤيته وزاد فى علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله " . وقال مالك بن دِينار : إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص (٢) مع الفجار . وأنشد :

وصاحب خيـار الناس تَنْجُ مسلّما * وصاحب شـــرار الناس يوما فتندما

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُوراً ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴿٣١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم ، يشكوهم إلى الله تعـالى . ﴿ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ أى قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر؛ عن مجاهد والنخعِىّ . وقيل : معنى « مَهْجُوراً » أى متروكا؛ فعزّاه الله تبارك وتعالى وسلّاه بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى كما جعلنا لك يا محمد عدوا من مشركى قومك — وهو أبو جهل فى قول آبن عباس — فكذلك جعلنـا لكل نبى عدوا من مشركى قومه، فآصبر، لأمرى كما صبروا، فإنى هاديك وناصرك على كل من ناوأك . وقد قيل : إن قول الرسول « يَارَبِّ » إنما يقوله يوم القيامة؛ أى هجروا القرآن وهجرونى وكذبونى . وقال أنس قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " من تعـلّم (٣) القرآن وعلّق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء

---

(١) أحذاه : أعطاه .	(٢) الخبيص : حلواء تعمل من التمـر والسمن .

(٣) فى الأصول : « من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفا ... » وتصحيح هذا الأثر من روح المعانى والبيضاوى والشهاب على أنهم تكلموا فى صحته إذ فى سنده أبو هدبة وهو كذاب .

يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين إن عبدك هذا آتخذنى مهجورا فاقض بينى و بينه". ذكره الثعلبى. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ نصب على الحال أو التمييز، أى يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك. وقال آبن عباس: عدو النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله.

قوله تعالى: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ آختلف فى قائل ذلك على قولين: أحدهما — أنهم كفار قريش؛ قاله آبن عباس. والثانى — أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقا قالوا: هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور [على داود][1]. فقال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أى فعلنا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ نقوى به قلبك فتعيه وتحمله[2]؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون و يقرءون، والقرآن أنزل على نبيّ أمىّ؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبيّ[3] صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل به؛ فكان كلما نزل وحى جديد زاده قوة قلب.

قلت: فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك فى قدرته؟. قيل: فى قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن فى لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه فى حكمه، وقد بيّنا وجه الحكمة فى ذلك. وقد قيل: إن قوله «كَذَلِكَ» من كلام المشركين، أى لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أى كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على «كَذَلِكَ» ثم يبتدئ «لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ». ويجوز أن يكون الوقف على قوله: «جُمْلَةً وَاحِدَةً» ثم يبتدئ «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك. قال

(١) زيادة يقتضيها المقام. (٢) فى ك: وتحتمله. (٣) فى ب وك: عند النبى.

ٱبن الأنبارى : والوجه الأوّل أجود وأحسن، والقول الثانى قد جاء به التفسير، حدّثنا محمد ٱبن عثمان الشيبى قال حدّثنا منجاب قال حدّثنا بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ٱبن عباس فى قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» (١) قال: أنزل القرآن جملة واحدة من عند الله عز وجل فى اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين فى السماء، فنجمه السفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل عليه السلام على محمد عشرين سنة . قال : فهو قوله « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » (٢) يعنى نجوم القرآن « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . قال : فلما لم ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة؛ فقال الله تبارك وتعالى : « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » يا محمد . ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ يقول : ورسّلناه ترسيلا ؛ يقول : شيئا بعد شىء .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب به، ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت . قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوّة ؛ لأنهم لا يسألون عن شىء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده وأفئدتهم، و يدلّ على هذا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم ، وعلم الله عز وجل أن الصلاح فى إنزاله متفرقا، لأنهم ينبهون به مرة بعد مرة، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ ، فكانوا يتعبدون بالشىء إلى وقتٍ بعينه قد علم الله عز وجل فيه الصلاح ، ثم ينزل النسخ بعد ذلك ؛ فمحال أن ينزل جملة واحدة : ٱفعلوا كذا ولا تفعلوا . قال النحاس : والأولى أن يكون التمام « جُمْلَةً وَاحِدَةً » لإنه إذا وقف على « كَذَلِكَ » صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ولم يتقدّم لها ذكر . قال الضحاك : « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أى تفصيلا . والمعنى : أحسن من مثلهم تفصيلا ؛ فحذف لعلم السامع . وقيل : كان المشركون يستمدّون من أهل الكتاب وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريف

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٩ .　　(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٣ .

والتبديل ، فكان ما يأتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم أحسن تفسيرا مما عندهم؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل ، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل ، ولهذا قال تعالى : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ »(١) . وقيل: « لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » كقولهم فى صفة عيسى إنه خلق من غير أب إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ أى بما فيه نقض حجتهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ تقدّم فى « سبحان »(٢) . ﴿ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ لأنهم فى جهنم . وقال مقاتل: قال الكفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هو شر الخلق ؛ فنزلت الآية . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أى دينا وطريقا . ونظم الآية : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة ، وهم محشورون على وجوههم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يريد التوراة . ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا ﴾ تقدّم فى « طه »(٣) ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا ﴾ الخطاب لهما . وقيل: إنما أمر موسى صلى الله عليه وسلم بالذهاب وحده فى المعنى . وهذا بمنزلة قوله : « نَسِيَا حُوتَهُمَا »(٢) . وقوله : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »(٤) وإنما يخرج من أحدهما . قال النحاس : وهذا مما لا ينبغى أن يجترأ به على كتاب الله تعالى ، وقد قال جل وعز: « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . فَأْتِيَاهُ فَقُولَا

(١) راجع جـ ١ ص ٣٦٤ فما بعد .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٣ .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٩١ وص ١٢ .
(٤) راجع جـ ١٧ ص ١٦١ .

إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ» (١) . ونظير هذا : «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» (٢) . وقد قال جل ثناؤه : «ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِآيَاتِنَا» (٣) قال القشيرى : وقوله فى موضع آخر : «ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى» لا ينافى هذا ؛ لأنهما إذا كان مأمورين فكل واحد مأمور . و يجوز أن يقال : أمر موسى أولا ، ثم لمـا قال : «وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي» قال : «ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ» . ﴿ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يريد فرعون وهامان والقبط . ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ ﴾ فى الكلام إضمار؛ أى فكذبوهما ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أى أهلكناهم إهلاكا .

قوله تعـالى : وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ فى نصب «قوم» أربعة أقوال : العطف على الهاء والميم فى «دَمَّرْنَاهُمْ» . الثانى — بمعنى آذكر . الثالث — بإضمار فعل يفسره مابعده؛ والتقدير : وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم . الرابع — أنه منصوب بـ «أَغْرَقْنَاهُمْ» قاله الفـراء . ورده النحاس قال : لأن «أغرقنا» ليس مما يتعدّى إلى مفعولين فيعمل فى المضمر وفى «قَوْمَ نُوحٍ» . ﴿ لَمَّـا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ ذكر الجنس والمراد نوح وحده؛ لأنه لم يكن فى ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده ؛ فنوح إنمـا بعث بلا إله إلا الله ، و بالإيمان بما ينزل الله ، فلما كذبوه كان فى ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة . وقيل : إن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل ؛ لأنهم لا يفرق بينهم فى الإيمان ، ولأنه ما من نبيّ إلا يصدق سائر أنبيـاء الله ، فمن كذب منهم نبيا فقـد كذب كل من صـدّقه من النبيين . ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ أى بالطوفان ، على ما تقدّم فى «هود» (٤) . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أى علامة ظاهرة على قدرتنا ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى للشركين من قوم نوح ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى فى الآخرة . وقيل : أى هذه سبيلى فى كل ظالم .

قوله تعـالى : وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٨٣ .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٢٦ فما بعد . (٤) راجع جـ ٩ ص ٢٩ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ كله معطوف على « قَوْمَ نُوحٍ » إذا كان « قوم نوح » منصوبا على العطف ، أو بمعنى آذكر . ويجوز أن يكون كله منصوبا على أنه معطوف على المضمر فى « دَمَّرْنَاهُمْ » أو على المضمر فى « جَعَلْنَاهُمْ » وهو آختيار النحاس ؛ لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار فعل ؛ أى آذكر عادا الذين كذبوا هودا فأهلكهم الله بالريح العقيم ، وثمودا كذبوا صالحا فأهلكوا بالرجفة . و﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ والرسّ فى كلام العرب البئر التى تكون غير مطوية، والجمع رساس.[1] قال :

* تنابلة يحفرون الرِّسَاسَا *

يعنى آبار المعادن . قال آبن عباس : سألت كعبا عن أصحاب الرس قال : صاحب «يس» الذى قال : « يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ »[2] قتله قومه ورسّوه فى بئر لهم يقال لها الرس طرحوه فيها، وكذا قال مقاتل . السدى : هم أصحاب قصة «يس» أهل أنطاكية ، والرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار مؤمن آل « يس » فنسبوا إليها . وقال علىّ رضى الله عنه : هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ؛ وكان من ولد يهوذا ، فيبست الشجرة فقتلوه ورسّوه فى بئر ، فأظلتهم سحابة سوداء فأحرقتهم . وقال آبن عباس : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء فجفت أشجارهم وزروعهم فماتوا جوعا وعطشا . وقال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشى ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيبا فكذبوه وآذوه ، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم ، فبينما هم حول البئر فى منازلهم آنهارت بهم و بديارهم ؛ فخسف الله بهم فهلكوا جميعا . وقال قتادة : أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعيبا فكذبوه فعذبهما الله بعذابين . قال قتادة : والرس قرية بفَلْج اليمامة . وقال عكرمة : هم قوم رسّوا نبيهم فى بئر حيا . دليله ما روى محمد بن كعب القرظىّ عمن حدّثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فحفر أهل القرية بئرا وألقوا فيها نبيهم حيا وأطبقوا عليه حجرا ضخما

---

(١) هو للنابغة الجعدى والتنابلة : رجال قصار . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٧ فما بعد .

وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره و يبيعه و يأتيه بطعامه وشرابه فيعينه الله على رفع تلك الصخرة حتى يدليه إليه فبينما هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائمـا ثم هبّ من نومه فتمطى واتكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هبّ فآحتمل حُزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجده وكان قومه قـد أراهم الله تعالى آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدّقوه ومات ذلك النبي". قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن ذلك العبد الأسود لَأول من يدخل الجنة" وذكر هذا الخبر المهدوى والثعلبي ، واللفظ للثعلبي ، وقال : هؤلاء آمنوا بنبيهم فلايجوز أن يكونوا أصحاب الرس ؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم ، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم . وقال الكلبي : أصحـاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبيًّا فأكلوه . وهم أول من عمل نساؤهم السَّحْق ؛ ذكره المـاوردى . وقيل : هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرّقوا فيها المؤمنين ، وسيأتى[1] . وقيل : هم بقايا من قوم ثمود ، وأن الرّس البئر المذكورة فى « الحج » فى قوله : « وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ »[2] على ما تقدم . وفى الصحاح : والرس آسم بئر كانت لبقية من ثمود . وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السَّحْق ، وكان نساؤهم كلهم سحاقات . وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن من أشراط الساعة أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السَّحْق" وقيل : الرس ماء ونخل لبنى أسـد . وقيل : الثلج المتراكم فى الجبـال ؛ ذكره القُشَيرى . وما ذكرناه أولا هو المعروف ، وهو كل حفـر آحتِفر كالقبر والمعدن والبئر . قال أبو عبيدة : الرس كل ركِيّة لم تطو ؛ وجمعها رِساس . قال الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهـم * فياليتهـم يَحفرون الرِّساسا

والرّسّ آسم واد فى قول زهير :

بَكَرْنَ بُكُورًا وآسْتَحَرْنَ بِسُحْرةٍ * فهنّ لوادى الرَّسّ كاليـدِ للفمِ

ورسست رسًّا : حفرت بئرا . ورُسّ الميتُ أى قُبر . والرّس : الإصلاح بين الناس ، والإفساد أيضا وقد رسست بينهم ؛ فهو من الأضداد . وقد قيل فى أصحاب الرس غير ما ذكرنا ، ذكره

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٨٤ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٧٥ .

الثعلبي وغيره . ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ أى أمما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس . وعن الربيع بن خيثم آشتكى فقيل له : ألا نتداوى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر به؟ قال : لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بيني و بين نفسي فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا كانوا أكثر وأشد حرصا على جمع المال، فكان فيهم أطباء، فلا الناعت منهم بقي ولا المنعوت ؛ فأبى أن يتداوى فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات، رحمه الله .

قوله تعالى : وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ قال الزجاج . أى وأنذرنا كلا ضربنا له الأمثال و بينا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة . وقيل : انتصب على تقدير ذكرنا كلا ونحوه؛ لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ؛ ذكره المهدوى . والمعنى واحد . ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ أى أهلكنا بالعذاب . وتبرت الشيء كسرته . وقال المؤرّج والأخفش : دمرناهم تدميرا . تبدل التاء والباء من الدال والميم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ﴾ يعنى مشركى مكة . والقرية قرية قوم لوط . و﴿ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ الحجارة التى أمطروا بها . ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ أى فى أسفارهم ليعتبروا . قال آبن عباس : كانت قريش فى تجارتها[1] إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ[2] » وقال : « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ[3] » وقد تقدّم . ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ أى لا يصدّقون بالبعث . ويجوز أن يكون معنى « يَرْجُونَ » يخافون . ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه : بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة .

---

(١) فى ك : تجاراتهم . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٢٠ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٤٥ .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ جواب « إِذَا » « إِنْ يَتَّخِذُونَكَ » لأن معناه يتخذونك . وقيل : الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون : « أَهَـذَا الَّذِى » وقوله : « إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا » كلام معترض . ونزلت فى أبى جهل كان يقول للنبيّ صلى الله عليه وسلم مستهزئا : ﴿ أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولًا ﴾ والعائد محذوف، أى بعثه الله . « رَسُولًا » نصب على الحال والتقدير : أهذا الذى بعثه الله مرسلا . « أَهَذَا » رفع بالابتداء و « الَّذِى » خبره . « رَسُولًا » نصب على الحال . و « بَعَثَ » فى صلة « الَّذِى » واسم الله عز وجل رفع بـ « بَعَثَ » . ويجوز أن يكون مصدرا؛ لأن معنى « بَعَثَ » أرسل و يكون معنى « رَسُولًا » رسالة على هذا . والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار . ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ أى قالوا قد كاد أن يصرفنا . ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أى حبسنا أنفسنا على عبادتها . قال الله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ يريد من أضل دينا أهم أم محمد، وقد رأوه فى يوم بدر .

قوله تعالى : أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ عجّب نبيه صلى الله عليه وسلم من إضمارهم على الشرك و إصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم، ثم يعمد[1] إلى حجر يعبده من غير حجة . قال الكلبي وغيره : كانت العرب إذا هوِى الرجل منهم شيئا عبده من دون الله ، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبَد الأحسن؛ فعلى هـذا يعنى : أرأيت من اتخذ إلهه بهواه؛ فحذف الجار . وقال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله ، ثم تلا هـذه الآية .

(١) فى ك : ثم يعمدوا — يعبدوه وهو خطأ من الناسخ وهو إن : يعمدون — يعبدونه — كما تقتضى العبارة .

قال الشاعر :

لعمر أبيها[(١)] لو تبدّت لناسك * قد اعتزل الدنيا بإحدى المناسك

لَصلّى لها قبل الصلاة لربه * ولا ارتد فى الدنيا بأعمال فاتك

وقيل : « اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » أى أطاع هواه . وعن الحسن لا يهوى شيئا إلا اتبعه ، والمعنى واحد . ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ أى حفيظا وكفيلا حتى تردّه إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد . أى ليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك ، وإنما عليك التبليغ . وهذا رد على القدرية . ثم قيل : إنها منسوخة بآية القتال . وقيل : لم تنسخ ؛ لأن الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن . وذمّهم جل وعز بهذا . « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ » سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه ؛ أى هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع . وقيل : المعنى أنهم لمّا لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا ؛ والمراد أهل مكة . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل فى مثل هذا الموضع . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾ أى فى الأكل والشرب لا يفكرون فى الآخرة . ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام . وقال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتهتدى إلى مراعيها[(٢)] وتنقاد لأربابها التى تعقلها[(٢)] ، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذى خلقهم ورزقهم . وقيل : لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوّة لم تعتقد بطلان ذلك أيضا .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

(١) فى ك : أبيك . (٢) فى ك : مراتعها . التى تعلفها .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين، ويجوز أن تكون من العلم . وقال الحسن وقتادة وغيرهما : مدّ الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقيـل : هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها . والأول أصح؛ والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ؛ فإن فيهـا يجد المريض راحة والمسافر وكل ذى علة : وفيهـا ترد نفوس الأموات والأرواح منهـم إلى الأجساد، وتطيب نفوس الأحياء فيها . وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب . وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا، وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . أبو عبيدة : الظل بالغـداة والفىء بالعشى؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس ؛ سمى فيئا لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب . قال الشاعر، وهو حميد ابن ثور يصف سرحة (١) وكنى بها عن امرأة :

فلا الظِّلُّ من بَرْدِ الضُّحَا تَسْتطيعُهُ　*　ولا الْـفَيْءُ من بَرْدِ العشيّ تَـذُوقُ

وقال ابن السّكيت : الظل ما نسخته الشمس والفىء ما نسـخ الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء وظل، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظلّ . ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَـلَهُ سَاكِنًا ﴾ أى دائمـا مستقرا لا تنسخه الشمس . ابن عباس : يريد إلى يوم القيامة، وقيل : المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيـلًا ﴾ أى جعلنا الشمس بنسخها الظلّ عنـد مجيئها دالة على أن الظلّ شىء ومعنى ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النـور ما عرفت الظلمة . فالدليل فعيل بمعنى الفاعل . وقيل : بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب . أى دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به ؛ أى أتبعناها إياه . فالشمس دليل أى حجة و برهان ، وهو الذى يكشف المشكل و يوضحه . ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه فى معنى الاسم؛ كما يقال : الشمس برهان والشمس حق . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ يريد ذلك الظل الممدود . ﴿ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى يسيرا قبضه علينا . وكل أمرٍ ربنا عليه يسير . فالظل مكثه فى هـذا الجو بمقدار طلوع

(١) السرحة : واحدة السرح ، وهو شجر كبار عظام لا ترعى و إنما يستظل فيه .

الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظلّ مقبوضا ، وخلفه فى هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، إنما ذلك بقية نور النهار . وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله بمجيء الليل ودخول الظلمة عليه . وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس ؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل فى الذهاب شيئا فشيئا ؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيمى . وقيل : « ثُمَّ قَبَضْنَاهُ » أى قبضنا ضياء الشمس بالفىء « قَبْضًا يَسِيرًا » . وقيل : « يَسِيرًا » أى سريعا ، قاله الضحاك . قتادة : خفيا ؛ أى إذا غابت الشمس قبض الظل قبضا خفيا ؛ كلما قُبض جزء منه جُعل مكانه جزءٌ من الظلمة ، وليس يزول دفعة واحدة . فهذا معنى قول قتادة ؛ وهو قول مجاهد .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يعنى سترا للخلق يقوم مقام اللباس فى ستر البدن . قال الطبرى : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث يستر الأشياء ويغشاها .

الثانية — قال ابن العربى : ظن بعض الغُفْلَة أن من صلّى عريانا فى الظلام أنه يجزئه ؛ لأن الليل لباس . وهذا يوجب أن يصلّى فى بيته عريانا إذا أغلق عليه بابه . والستر فى [الصلاة][1] عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس . ولا حاجة إلى الإطناب فى هذا .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أى راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال . وأصل السبات من التمدد . يقال : سبتت المرأة شعرها أى نقضته وأرسلته . ورجل مسبوت أى ممدود الخلقة . وقيل : للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون ، وفى التمدد معنى الراحة . وقيل :

---

(١) فى الأصول : « فى الظلام » . والتصويب من « أحكام القرآن لابن العربى » .

السبت القطع؛ فالنوم انقطاع عن الاشتغال؛ ومنـه سَبْتُ اليهود لانقطاعهم عن الأعمال فيـه . وقيل : السبت الإقامة فى المكان؛ فكأن السبات سكون ما وثبوت عليـه؛ فالنوم سُبَاتٌ على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة . وقال الخليل : السبات نوم ثقيل؛ أى جعلنا نومكم ثقيلا ليكمل الإجمام والراحة .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ من الانتشار للعاش؛ أى النهـار سبب الإحياء للانتشار . شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة . وكان عليه السلام إذا أصبح قال : " الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا و إليه النشور ".

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾[1] تقدم فى «الأعراف» مســـتوفى .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ .

فيه خمس عشرة مسئلة :

الأولى ــ قوله تعالى : « مَاءً طَهُورًا » يتطهر به؛ كما يقال : وضوء للماء الذى يتوضأ به . وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهورا . فالطهور (بفتح الطاء) الاسم . وكذلك الوَضوء والوَقود . و بالضم المصدر، وهذا هو المعروف فى اللغة ؛ قاله ابن الأنبارى . فبيّن أن المـاء المنزل من السماء طاهر فى نفسه مطهِّر لغيره ؛ فإن الطهور بنـاء مبالغة فى طاهر ، وهـذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهرا مطهرا . و إلى هذا ذهب الجمهور . وقيل : إن « طَهُورًا » بمعنى طاهر ؛ وهو قول أبى حنيفة ؛ وتعلق بقوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا »[2] يعنى طاهرا .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٨ و « نشرا » بالنون قراءة نافع .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٥ .

وبقول الشاعر :

خليلىّ هل فى نظرة بعد توبة * أداوى بها قلبى علىّ فجورُ
إلى رُجّحِ الأكفالِ غِيدٍ من الظِّبا (١) * عِذاب الثنايا رِيقُهنّ طَهُورُ

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر . وتقول العرب : رجل نؤوم وليس ذلك بمعنى أنه منيم لغيره، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه . ولقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا : وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خسائس الصفات كالغِل والحَسَد، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رحض الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة، فجاءوا الله بقلب سليم، ودخلوا الجنة بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ : «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» (٢) . ولما كان حكمه فى الدنيا بزوال حكم الحدث بجريان الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته (٣) فى الآخرة . وأما قول الشاعر :

* ... رِيقُهُنّ طَهُورُ *

فإنه قصد بذلك المبالغة فى وصف الريق بالطهورية لعذوبته وتعلقه بالقلوب، وطيبه فى النفوس، وسكون غليل المحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور، وبالجملة فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية؛ فإن الشعراء يتجاوزون فى الاستغراق حدّ الصدق إلى الكذب، ويسترسلون فى القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية، وربما وقعوا فى الكفر من حيث لا يشعرون . ألا ترى إلى قول بعضهم :

ولو لم تُلامِسْ صفحةُ الأرضِ رجلَها * لما كنتُ أدرى عِلّةً للتيمم

وهذا كفر صراح، نعوذ بالله منه . قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا منتهى لباب كلام العلماء، وهو بالغ فى فنّه؛ إلا أنى تأملت من طريق العربية فوجدت فيه

---

(١) فى ابن العربى واللسان مادة «رجح» :

* إلى رجح الأكفال هيف خصورها *

وامرأة رجاح وراجح، ثقيلة العجيزة، من نسوة رجح .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد .

(٣) فى ب وز وك : حكمته ورحمته .

مطلعا مشرقا ، وهو أن بنـاء فعول للبالغـة ، إلا أن المبالغة قـد تكون فى الفعل المتعدّى كما قال الشاعر :

* ضَروبٌ بنصل السيفِ سُوقَ سِمانها [١] *

وقد تكون فى الفعل القاصر كما قال الشاعر :

* نَؤُوم الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ [٢] *

و إنمـا تؤخذ طهورية المـاء لغيره من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة ؛ كقوله عليه السلام : " لا يقبل الله صلاة بغير طهور " . وأجمعت الأمة لغـة وشريعة على أن وصف طهـور يختص بالمـاء فلا يتعدى إلى سائر المـائعات وهى طاهرة ؛ فكان ٱقتصارهم بذلك على المـاء أدلّ دليل على أن الطهور هو المطهر، وقد يأتى فعول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا : وَقُود وسَحُور بفتح الفـاء ، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به ؛ فوصف المـاء بأنه طهـور (بفتح الطاء) أيضـا يكون خبرا عن الآلة التى يتطهر بها . فإذا ضمت الفاء فى الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبرا عنه . فثبت بهذا أن ٱسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناء للبالغة و يكون خبرا عن الآلة، وهو الذى خطر ببال الحنفية ، ولكن قصرت أشداقها عن لَوْكِه ، و بعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » . وقوله عليه السلام : " جعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا " يحتمل المبالغة و يحتمل العبارة به عن الآلة ؛ فلا حجة فيه لعلمائنا، لكن يبقى قوله : « لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ [٣] » نص فى أن فعله يتعدى إلى غيره .

الثانيــة ـــ الميـاه المنزلة من السماء والمودعة فى الأرض طاهرة مطهرة على ٱختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها ، والمخالط للـاء على ثلاثة أضرب : ضرب يوافقه

---

(١) هذا صدر بيت من قصيدة لأبى طالب بن عبد المطلب يمدح بها مسافر بن عمرو القرشى ؛ وتمـامه .

* إذا عدموا زادا فإنـك عاقـر *

(٢) هذا عجز بيت من معلقة ٱمرئ القيس ؛ وصدره :

* و يضحى فتيت المسك فوق فراشها *

والانتطاق : الاتزار للعمل . والتفضل : التوشح، وهو لبسها أدنى ثيابها .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٧ .

فى صفتيه جميعا، فإذا خالطه فغيره لم يسلبه وصفا منهما لموافقته لها وهو التراب . والضرب الثانى يوافقه فى إحدى صفتيه وهى الطهارة، فإذا خالطه فغيّره سلبه ما خالفه فيه وهو التطهير (١)؛ كماء الورد وسائر الطاهرات . والضرب الثالث يخالفه فى الصفتين جميعا، فإذا خالطه فغيره سلبه الصفتين جميعا لمخالفته له فيهما وهو النجس .

الثالثة — ذهب المصريون (٢) من أصحاب مالك إلى أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غيّر لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات . ولم يحدّوا بين القليل والكثير حدّا يوقف عنده، إلا أن ٱبن القاسم روى عن مالك فى الجُنُب يغتسل فى حوض من الحياض التى تسق فيها الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد الماء؛ وهو مذهب بن القاسم وأشهب وٱبن عبد الحكم ومن ٱتبعهم من المصريين . إلا ٱبن وهب فإنه يقول فى الماء بقول المدنيين من أصحاب مالك . وقولهم ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه : أن الماء لا تفسده النجاسة الحالّة فيه قليلا كان أو كثيرا إلا أن تظهر فيه النجاسة [الحالّة فيه] (٣) وتغيّر منه طعما أو ريحا أو لونا . وذكر أحمد بن المعدّل أن هذا قول مالك بن أنس فى الماء . وإلى هذا ذهب إسمعيل بن إسحق ومحمد بن بكير وأبو الفرج الأبهرى وسائر المنتحلين لمذهب مالك من البغداديين ؛ وهو قول الأوزاعى والليث بن سعد والحسن بن صالح وداود بن علىّ . وهو مذهب أهل البصرة ، وهو الصحيح فى النظر وجيد الأثر . وقال أبو حنيفة : إذا وقعت نجاسة فى الماء أفسدته كثيرا كان أو قليلا إذا تحققت عموم النجاسة فيه . ووجه تحققها عنده أن تقع مثلا نقطة بول فى بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها بتحرك أحدهما فالكل نجس، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس . وفى المجموعة نحو مذهب أبى حنيفة . وقال الشافعى بحديث القلتين ، وهو حديث مطعون فيه؛ ٱختلف فى إسناده ومتنه ؛ أخرجه أبو داود والترمذى وخاصة الدّارَقُطْنى ، فإنه صدّر به كتابه وجمع طرقه . قال ٱبن العربى : وقد رام الدّارَقُطْنى على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدر (٤) . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما ما ذهب إليه الشافعى من حديث القلتين فمذهب ضعيف من جهة النظر، غير ثابت

(١) قوله التطهير . المراد به رفع الحدث . محققه . (٢) فى ك : البصريون . ويبدو أنه غلط من الناسخ .
(٣) من ك . (٤) فى ك : فلم يستطع

فى الأثر؛ لأنه قــد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغهما فى أثر ثابت ولا إجماع، فلو كان ذلك حدًّا لازما لوجب على العلماء البحث عنه ليقفوا على حدّ ما حدّه النبيّ صلى الله عليــه وسلم؛ لأنه من أصــل دينهم وفرضهم، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك وألطف .

قلت : وفيما ذكر ابن المنذر فى القلتين من الخلاف يدلّ على عدم التوقيف فيهما والتحديد . وفى سنن الدَّارَقُطْنى عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال : القِلال الخوابى العظام . وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين . ويظهر من قول الدَّارَقُطْنى أنها مثل قِلال هَجَر؛ لسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليــه وسلم قال " لمــا رفعت إلى سِدرة المنتهى فى السماء السابعة نبقها مثــل قِلال هجــر وورقها مثل آذان الفيلة " وذكر الحديث . قال ابن العربى : وتعلق علماؤنا بحديث أبى سعيد الخــدرى فى بئر بُضاعة[1]، رواه النســائىّ والترمذى وأبو داود وغيرهم . وهو أيضــا حديث ضعيف لا قدم له فى الصحة فلا تعويل عليه . وقد فاوضت الطوسى الأكبر فى هــذه المسئلة فقال : إن أخلص المذاهب فى هــذه المسئلة مذهب مالك، فإن المــاء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه؛ إذ لا حديث فى البــاب يعوّل عليه، وإنما المعوّل على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وهو ما دام بصفاته، فإذا تغــيّر عن شىء منها خرج عن الآسم لخــروجه عن الصفة، ولذلك لمــا لم يجد البخارى إمام الحديث والفقه فى الباب خبرا يعوّل عليه قال : (باب إذا تغير وصف المــاء) وأدخل الحــديث الصحيح : " ما من أحد يُكلَم فى سبيل الله والله أعلم بمن يُكلَم فى سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَب[2] دمًا اللون لون الدم والريح ريح المسك " . فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك، ولم تخرجه الرائحة عن صفة الدموية . ولذلك قال علماؤنا : إذا تغير المــاء بريح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه . ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تنجيسا له للمخالطة والأول مجاورة [لا تعويل عليها[3]] .

(١) بئر بضاعة : بئر قديمة بالمدينة . ويقال إن بضاعة اسم امرأة نسبت إليها البئر . (٢) يثعب : يجرى .
(٣) هذه زيادة من الأحكام لابن العربى .

قلت : وقد آستدلّ به أيضا على نقيض ذلك ، وهو أن تغير الرائحة يخرجه عن أصله . ووجه هذا الآستدلال أن الدم لما آستحالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستخبثا نجسا، وأنه صار مسكا؛ و إن المسك بعض دم الغزال .

فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته . و إلى هذا التأويل ذهب الجمهور فى الماء . و إلى الأول ذهب عبد الملك . قال أبو عمر : جعلوا الحكم للرائحة دون اللون، فكان الحكم لها فاستدلوا عليها فى زعمهم بهذا الحديث . وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس ، ولا فى الدم معنى الماء فيقاس عليه، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء، وليس من شان أهل العلم اللغز به و إشكاله ؛ و إنما شأنهم إيضاحه و بيانه، ولذلك أخذ الميثاق عليهم ليبيّننّه للناس ولا يكتمونه ، والماء لا يخلو تغيّره[(1)] بنجاسة أو بغير نجاسة ، فإن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع العلماء على أنه غير طاهر ولا مطهر ، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على أصله . وقال الجمهور : إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من تربة وحمأة . وما أجمعوا عليه فهو الحق الذى لا إشكال فيه، ولا التباس معه .

الرابعة — الماء المتغير بقراره كزرنيخ أو جير يجرى عليه، أو تغير بطحلب أو ورق شجر ينبت عليه لا يمكن الآحتراز عنه فاتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به ، لعدم الآحتراز منه والآنفكاك عنه ؛ وقد روى آبن وهب عن مالك أن غيره أولى منه .

الخامسة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : و يكره سؤر النصرانىّ وسائر الكفار والمدمن الخمر ، وما أكل الجيف ؛ كالكلاب وغيرها . ومن توضأ بسؤرهم فلا شىء عليه حتى يستيقن النجاسة . قال البخارىّ : وتوضأ عمر رضى الله عنه من بيت نصرانية . ذكر سفيان آبن عيينة قال : حدّثونا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما كنا بالشأم أتيت عمر بن الخطاب بماء فتوضأ منه فقال : من أين جئت بهذا الماء ؟ ما رأيت ماء عذبا ولا ماء سماء أطيب منه . قال قلت : جئت به من بيت هذه العجوز النصرانية؛ فلما توضأ أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمى تسلمى ، بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق . قال : فكشفت عن رأسها؛ فإذا

(1) لعل العبارة : تغيره بنجاسة .

مثل الثّغامة[1] ، فقالت : عجوز كبيرة ، وإنما أموت الآن ! فقال عمر رضى الله عنـه : اللهم آشهد . خرّجه الدّارَقُطْنىّ ، حدّثنا الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا أحمد بن إبراهيم البُوشَنْجى قال حدّثنا سفيان . . فذكره . ورواه أيضا عن الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا خلاد بن أسلم حدّثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه توضأ من بيت نصرانية أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمى ... ؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدّم .

السادســـة — فأما الكلب إذا ولغ فى المـاء فقال مالك : يغسل الإناء سبعا ولا يتوضأ منـه وهو طاهر . وقال الثورىّ : يتوضأ بذلك المـاء ويتيمم معه . وهو قول عبد الملك آبن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة . وقال أبو حنيفة : الكلب نجس ، ويغسل الإناء منه لأنه نجس . وبه قال الشافعىّ وأحمـد وإسحق . وقـد كان مالك يفرق بين ما يجـوز آتخاذه من الكلاب وبين ما لا يجـوز آتخاذه منها فى غسل الإناء من ولوغه . وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده ، لا ينجس ولوغه شيئا ولغ فيه طعاما ولا غيره ؛ إلا أنه آستحب هراقة ما ولغ فيه من المـاء ليسارة مؤنته . وكلب البادية والحاضرة ســواء . ويغسل الإناء منه على كل حال سبعا تعبدا . هـذا ما آستقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه . ذكر آبن وهب قال : حدّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن الحياض التى تكون فيما بين مكة والمدينـة ، فقيل له : إن الكلاب والسباع ترد عليها . فقال : " لها ما أخذت فى بطونها ولنـا ما بقى شراب وطهور " أخرجه الدّارَقُطْنىّ . وهذا نص فى طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه . وفى البخارىّ عن آبن عمر أن الكلاب كانت تقبـل وتدبر فى مسجد رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ولا يرشّون شيئا من ذلك . وقال عمر بحضرة الصحابة لصاحب الحوض الذى سأله عمرو بن العاص : هل ترد حوضك السباع . فقال عمر : ياصاحب الحوض ، لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا . أخرجه مالك والدّارَقُطْنىّ . ولم يفـرق بين السـباع ، والكلب من جملتها ، ولا حجة للمخالف

(١) الثغامة : نبات أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به .

فى الأمر بإراقة ماولغ فيه وأن ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإراقته لأن النفس تعافه لا لنجاسته؛ لأن التنزه من الأقذار مندوب إليه، أو تغليظا عليهم لأنهم نهوا عن ٱقتنائها كما قاله ابن عمر والحسن؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلظ عليهم فى الماء لقلته عندهم فى البادية، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من ٱقتنائها . وأما الأمر بغسل الإناء فعبادة لا لنجاسته كما ذكرناه بدليلين : أحدهما — أن الغسل قد دخله العدد . الثانى — أنه جعل للتراب فيه مدخل لقوله عليه السلام : "وعفّروه الثامنة بالتراب" . ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه مدخل كالبول . وقد جعل صلى الله عليه وسلم الهر وما ولغ فيه طاهرا ، والهر سَبُعٌ لا خلاف فى ذلك ؛ لأنه يفترس ويأكل الميتة ؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع ؛ لأنه إذا جاء نَصٌّ فى أحدهما كان نصّا فى الآخر . وهذا من أقوى أنواع القياس . هذا لو لم يكن هناك دليل ؛ وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف . والحمد لله .

السابعة — ما مات فى الماء مما لا دم له فلا يضرّ الماء إن لم يغيّر ريحه؛ فإن أنتن لم يتوضأ به . وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالحوت والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه ؛ إلا أن تتغير رائحته ،فإن تغيرت رائحته وأنتن لم يجز التطهر به ولا الوضوء منه ، وليس بنجس عند مالك . وأما ماله نفس سائلة فمات فى الماء ونزح مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلا أو كثيرا عند المدنيين . وٱستحب بعضهم أن ينزح من ذلك الماء دلاء لتطيب النفس به ، ولا يحدّون فى ذلك حدّا لا يتعدّى . ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزح الدلاء ، فإن ٱستعمله أحد فى غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا . وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يتيمم ، فيجمع بين الطهارتين ٱحتياطا، فإن لم يفعل وصلّى بذلك الماء أجزأه . وروى الدَّارَقُطْنيّ عن محمد بن سِيرين أن زِنجيا وقع فى زمزم — يعنى فمات — فأمر به ٱبن عباس رضى الله عنه فأخرج فأمر بها أن تنزح . قال : فغلبتهم عين جاءتهم من

الركن فأمر بهـا فدسمت بالقُباطِي[1] والمطارف حتى نزحوها، فلما نزحوها آنفجرت عليهم . وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاما وقع في بئر زمزم فنزحت . وهذا يحتمل أن يكون المـاء تغير، والله أعلم . وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول : كل نفس سائلة لا يتوضأ منها، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والجُنْدُب[2] إذا وقعن في الرِّكاء[3] فلا بأس به . قال شعبة : وأظنه قد ذكر الوزغة . أخرجه الدَّارَقُطْنِي، حدّثنا الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا محمد بن الوليد قال حدّثنا محمد بن جعفر قال حدّثنا شعبة ...؛ فذكره .

الثامنــة — ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أن ما ولغ فيه الهر من المـاء طاهر، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره؛ لحديث أبي قتادة، أخرجه مالك وغيره . وقد روى عن أبي هريرة فيه خلاف . وروى عن عطاء بن أبي رباح وسعيد آبن المسيّب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الهر وغسل الإناء منه . وآختلف في ذلك عن الحسن . ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه . قال الترمذي لمـا ذكر حديث مالك : «وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة، هذا حديث حسن صحيح، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم؛ مثل الشافعي وأحمد وإسحق، لم يروا بسؤر الهرة بأسا» . وهذا أحسن شيء في الباب، وقد جوّد مالك هذا الحديث عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة، ولم يأت به أحد أتم من مالك . قال الحافظ أبو عمر : الحجة عند التنازع والآختلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد صح من حديث أبي قتادة أنه أصغى لهـا الإناء حتى شربت . الحديث . وعليـه آعتماد الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله؛ فإنه كان يكره سؤره . وقال : إن توضأ به أحد أجزأه، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الهرة أحسن من أنه لم يبلغه حديث أبي قتادة، وبلغـه حديث أبي هريرة في الكلب فقاس الهر عليـه، وقد فرقت السـنة بينهما في باب

---

(١) دسم الشيء يدسمه دسما : سـدّه . والقباطى (بالضم) : ثياب من كتان رقيق يعمل بمصر؛ نسبة إلى القبط على غير قياس . والمطارف : جمع مطرف، وهو رداء من خز مربع ذو أعلام .　(٢) الجندب كهدهد طوير شبه الجرادة . قيل هو الصرصر .　(٣) الركاء (جمع ركوة) : إناء صغير من جلد يشرب فيه المـاء .

التعبد فى غسل الإناء ، ومَن حَجَّتـه السنة خاصمته ، وما خالفها مطرح . وبالله التوفيق .
ومن حجتهم أيضا ما رواه قرة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الهر أن يغسل مرة أو مرتين " شك قرة . وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بن خالد ، وقرة ثقة ثبت .

قلت : هـذا الحديث أخرجه الدَّارَقُطْنِىّ ، ومتنه : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والهر مرة أو مرتين " . قرة شك . قال أبو بكر : كذا رواه أبو عاصم مرفوعا ، ورواه غيره عن قرة (ولوغ الكلب) مرفوعا و (ولوغ الهر) موقوفا . وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يغسل الإناء من الهر كما يغسل من الكلب " قال الدَّارَقُطْنِىّ : لا يثبت هذا مرفوعا والمحفوظ من قول أبى هريرة وآختلف عنه . وذكر معمر وآبن جريج عن آبن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الهر مثل الكلب . وعن مجاهد أنه قال فى الإناء يلغ فيه السنور قال : آغسله سبع مرات . قاله الدَّارَقُطْنِىّ .

التاسعة ــ الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضئ به طاهرة ؛ إلا أن مالكا وجماعة من الفقهاء الجلّة كانوا يكرهون الوضوء به . وقال مالك : لا خير فيه ، ولا أحب لأحد أن يتوضأ به ، فإن فعل وصلّى لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ[1] لما يستقبل. وقال أبو حنيفة والشافعىّ وأصحابهما : لا يجوز آستعماله فى رفع الحدث، ومن توضأ به أعاد؛ لأنه ليس بماء مطلق، ويتيم واجده لأنه ليس بواجد ماء. وقال بقولهم فى ذلك أصبغ بن الفرج، وهو قول الأوزاعىّ . وآحتجوا بحديث الصُّنابِحىّ خرجه مالك وحديث عمرو بن عنبسة أخرجه مسلم ، وغير ذلك من الآثار . وقالوا : الماء إذا توضئ به خرجت الخطايا معه ؛ فوجب التنزه عنه لأنه ماء الذنوب . قال أبو عمر : وهـذا عندى لا وجه له ؛ لأن الذنوب لا تنجس الماء لأنها لا أشخاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده، وإنما معنى قوله : «خرجت الخطايا مع الماء» إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده

(١) فى ك : وليتوضأ .

المؤمنين رحمة منه بهـم وتفضلا عليهم . وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك ، وأن الوضوء بالمـاء المستعمل جائز ؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليـه شيء وهو ماء مطلق . وآحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن فى أعضاء المتوضئ نجاسة. و إلى هذا ذهب أبو عبد الله المَرْوَزِى محمد بن نصر. وروى عن علىّ بن أبى طالب وآبن عمر وأبى أُمامة وعطاء بن أبى رَبَاح والحسن البصرى والنَّخَعِى ومكحول والزهرى أنهـم قالوا فيمن نسى مسح رأســه فوجد فى لحيته بللا : إنه يجزئه أن يمسح بذلك البلل رأســه ؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالمـاء المستعمل . روى عبد السلام بن صالح حدّثنا إسحق بن سُو يد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم مرضىّ أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم خرج عليهم ذات يوم وقد آغتسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها المـاء، فقلنا : يارسول الله ، هذه لمعـة لم يصبها المـاء ؛ فكان له شـعر وارد[1]، فقال[2] بشعره هكذا على المكان فبَـلَّه . أخرجه الدَّارَقُطْنِى، وقال : عبد السلام بن صالح هذا بصرىّ وليس بقوىّ، وغيره من الثقات يرويه عن إسحق عن العلاء مرسلا، وهو الصواب .

قلت : الراوى الثقة عن إسحق بن سُويد العدوى عن العلاء بن زياد العدوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آغتسل ... ؛ الحديث فيما ذكره هشيم. قال آبن العربى : «مسئلة المـاء المستعمل إنمـا تنبنى على أصل آخر ، وهو أن الآلة إذا أدّى بها فرض هل يؤدى بها فرض آخر أم لا ؛ فمنع ذلك المخـالف قياسا على الرقبة إذا أدّى بهـا فرض عتق لم يصلح أن يتكرر فى أداء فرض آخر؛ وهـذا باطل من القول ، فإن العتق إذا أتى على الرق أتلفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بعتق آخر. ونظيره من المـاء ما تلف على الأعضـاء فإنه لا يصح أن يؤدّى به فرض آخر لتلف عينه حِسّا كما تلف الرق فى الرقبة بالعتق حكما، وهذا نفيس فتأملوه » .

---

(١) أى مسترسل طويل .	(٢) العـرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ، وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فتقول : قال بيده، أى أخذ . وقال برجله ؛ أى مشى : وقال بالماء على يده ؛ أى قلب . وقال بثوبه ، أى رفعه . وكل ذلك على المجاز والاتساع .

العاشرة — لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة و بين النجاسة يرد عليها الماء، راكدا كان الماء أو غير راكد ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغيّر طعمه أو لونه أو ريحه". وفرقت الشافعية فقالوا : إذا وردت النجاسة على الماء تنجس ؛ وآختاره آبن العربي. وقال : من أصول الشريعة في أحكام المياه أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا آستيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإن أحدكم لا يدرى أين باتت يده". فمنع من ورود اليد على الماء وأمر بإيراد الماء عليها، وهذا أصل بديع في الباب، ولولا وروده على النجاسة — قليلا كان أو كثيرا — لما طهرت. وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بول الأعرابي في المسجد : "صبّوا عليه ذَنوبا[1] من ماء". قال شيخنا أبو العباس : وآستدلّوا أيضا بحديث القلتين، فقالوا : إذا كان الماء دون القلتين فخلته نجاسة تنجس و إن لم تغيّره، و إن ورد ذلك القدر فأقلّ على النجاسة فأذهب عينها بقي الماء على طهارته وأزال النجاسة. وهذه مناقضة، إذ المخالطة قد حصلت في الصورتين، وتفريقهم بورود الماء على النجاسة وورودها عليه فرق صوريّ ليس فيه من الفقه شيء، فليس الباب باب التعبدات بل من باب عقلية المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها. ثم هذا كله منهم يرده قوله عليه الصلاة والسلام : "الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه".

قلت : هذا الحديث أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ عن رِشدِين بن سعد أبي الحجاج عن معاوية ابن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وليس فيه ذكر اللون. وقال : لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوى، وأحسن منه في الآستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خديج عن أبي سعيد الخدرى قال قيل : يارسول الله،

(١) الذنوب (بالفتح) : الدلو.

أنتوضأ من بئر بُضاعة ؟ وهى بئر تلق فيها الحيض(١) ولحوم الكلاب والنتن ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المـاء طهور لاينجسه شيء" أخرجه أبو داود والترمذى والدّارَقُطْنِيّ كلهم بهذا الإسناد. وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن، وقد جوّد أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبى سعيد فى بئر بُضاعة أحسن مما روى أبو أسامة . فهذا الحديث نص فى ورود النجاسة على المـاء، وقد حكم صلى الله عليه وسلم بطهارته وطهوره. قال أبو داود: سمعت قتيبة بن سعيد قال سألت قيِّم بئر بضاعة عن عمقها ؛ قلت : أكثر ما يكون المـاء فيها؟ قال : إلى العانة . قلت : فإذا نقص؟ قال : دون العورة . قال أبو داود: وقدّرت بئر بُضاعة بردائى مددته عليها ثم ذرعته فإذا عرضها ستة أذرع ، وسألت الذى فتح لى باب البستان فأدخلنى إليه : هل غيّر بناؤها عما كانت عليه؟ فقال لا . ورأيت فيها ماء متغير اللون. فكان هذا دليلا لنـا على ما ذكرناه ، غير أن آبن العربى قال : إنها فى وسط السَّبَخة، فماؤها يكون متغيّرا من قرارها ؛ والله أعلم .

الحـادية عشرة ـــ المـاء الطاهر المطهـر الذى يجـوز به الوضـوء وغسل النجاسات هو المـاء القراح الصافى من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار، وما عرفه الناس ماء مطلقا غير مضاف إلى شيء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافيا ولا يضره لون أرضه على ما بيناه . وخالف فى هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ فى السفر، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر . فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به . إلا أن أصحابه يقولون: إذا زالت النجاسة به جاز. وكذلك عنده النار والشمس ؛ حتى أن جلد الميتة إذا جفّ فى الشمس طهر من غير دباغ . وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع، بحيْث تجوز الصلاة عليه، ولكن لا يجـوز التيمم بذلك التراب . قال آبن العربى : لـما وصف الله سبحانه المـاء بأنه طهور وآمتن بإنزاله من السماء ليطهرنا به دلّ على آختصاصه بذلك، وكذلك قال عليه الصلاة

(١) الحيض : الخرق التى يمسح بها دم الحيض ؛ ويقال لها المحايض .

والسلام لأسماء بنت الصدّيق حين سألته عن دم الحيض يصيب الثوب : " حتّيه ثم آقرِصيه[١] ثم آغسليه بالمـاء " . فـلذلك لم يلحق غير المـاء بالمـاء لمـا فى ذلك من إبطال الآمتنان ، وليست النجاسة معنى محسوسا حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض ، و إنما النجاسة حكم شرعى عين له صاحب الشرع المـاء فلا يلحق به غيره ؛ إذ ليس فى معناه ، ولأنه لو لحق به لأسقطه ، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل فى إسقاطه سقط فى نفسه . وقـد كان تاج السنة ذو العز آبن المرتضى[٢] الدبوسى يسميه فرخ زنى .

قلت : وأما ما آستُدِلّ به على آستعمال النبيذ فأحاديث واهية ، ضعاف لا يقوم شىء منها على ساق ؛ ذكرها الدَّارَقُطْنِيّ وضعفها ونصّ عليها . وكذلك ضعف ما روى عن آبن عباس موقوفا " النبيذ وضـوء لمن لم يجد المـاء " . فى طريقه آبن محرز[٣] متروك الحديث . وكذلك ما روى عن على أنه قال : لا بأس بالوضوء بالنبيذ . الحجاج وأبو ليـلى ضعيفان . وضعف حديث آبن مسعود وقال : تفـرّد به آبن لهيعة وهو ضعيف الحـديث . وذكر عن علقمة ابن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعى الجن ؟ فقال لا .

قلت : هذا إسناد صحيح لا يختلف فى عدالة رواته . وأخرج الترمذى حديث آبن مسعود قال : سألنى النبى صلى الله عليه وسلم : " ما فى إدواتك[٤] " فقلت : نبيـذ . فقال : " تمـرة طيبة وماء طهور " قال : فتوضأ منه . قال أبو عيسى : وإنمـا روى هذا الحديث عن أبى زيد عن عبد الله عن النبىّ صـلى الله عليه وسلم ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا نعرف له رواية غير هذا الحديث ، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ ؛ منهم سفيان وغيره ، وقال بعض أهل العلم : لا يتوضأ بالنبيـذ ، وهو قول الشافعى وأحمد و إسحق ، وقال إسحق : إن آبتلى رجل بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيمّم أحب إلى . قال أبو عيسى : وقول من يقول لا يتوضأ بالنبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه ؛ لأن الله تعالى قال : «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا

(١) آقرصيه : والقرص بالصاد المهملة الدلك بأطراف الأصابع والأظفار مع صب المـاء عليه حتى يذهب أثره .
(٢) فى ب وك : ذو العز المرتضى . (٣) فى ب : محرز . (٤) الإداوة (بالكسر) : إناء صغير من جلد يتخذ للماء .

صعيدًا طَيِّباً » . وهذه المسئلة مطولة فى كتب الخلاف ؛ وعمدتهم التمسك بلفظ المـاء حـ تقدم فى « المـائدة »[(١)] بيانه والله أعلم .

الثانيـــة عشرة ـــ لمـا قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَـا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وقال : « لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ »[(٢)] توقف جمـاعة فى ماء البحر ؛ لأنه ليس بمنزل من السماء ؛ حتى رووا عن عبد الله بن عمر وآبن عمرو معـا أنه لا يتوضأ به ؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم . ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن حكمه حين قال لمن سأله : "هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته" أخرجه مالك . وقال فيه أبو عيسى : هـذا حديث حسن صحيح . وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، منهم أبو بكر وعمر وآبن عباس، لم يروا بأسا بمـاء البحر، وقد كره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء بماء البحر ؛ منهم آبن عمر وعبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بن عمرو : هو نار . قال أبو عمر ؛ وقـد سئل أبو عيسى الترمذى عن حديث مالك هذا عن صفوان بن سُلَيم فقال : هو عندى حديث صحيح . قال أبو عيسى فقلت للبخارى : هشيم يقول فيه أبى آبن بَرْزة . فقال : وَهِم فيه، إنما هو المغيرة بن أبى بُرْدة . قال أبو عمر : لا أدرى ما هذا من البخارى رحمه الله ، ولو كان صحيحا لأخرجه فى مصنفه الصحيح عنده ، ولم يفعل لأنه لا يعول فى الصحيح إلا على الإسناد . وهذا الحديث لا يحتج أهل الحديث بمثل إسناده، وهو عندى صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به ، ولا يخالف فى جملته أحد من الفقهاء ، و إنمـا الخلاف بينهم فى بعض معانيه . وقد أجمع جمهور من العلماء و جماعة أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء : أن البحر طهور ماؤه، وأن الوضوء به جائز ؛ إلا ما روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص أنهما كرها الوضوء بمـاء البحر، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليه ، ولا التفت إليه لحديث هذا الباب . وهذا يدلّك على آشتهار الحديث عندهم، وعملهم به وقبولهم له ، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترده الأصول . و بالله التوفيق .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٠٥ فـا بعد .　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧١ فـا بعد .

قال أبو عمر : وصفوان بن سُلَيم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، من عُبّاد أهل المدينة وأتقاهم لله ، ناسكا ، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير، كثير العمل، خائفا لله، يكنى أبا عبد الله، سكن المدينة لم ينتقل عنها، ومات بها سنة آثنتين وثلاثين ومائة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبى يسأل عن صفوان بن سُلَيم فقال : ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين . وأما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان — والله أعلم — ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم . وأما المغيرة ابن أبى بُرْدة فقيل عنه إنه غير معروف فى حملة العلم كسعيد بن سلمة . وقيل : ليس بمجهول . قال أبو عمر : المغيرة بن أبى بردة وجدت ذكره فى مغازى موسى بن نصير بالمغرب ، وكان موسى يستعمله على الخيل ، وفتح الله له فى بلاد البربر فتوحات فى البر والبحر . وروى الدَّارَقُطْنِيّ من غير طريق مالك عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله" . قال إسناده حسن .

الثالثة عشرة — قال آبن العربى : توهّم قوم أن الماء إذا فضلت للجنب منه فضلة لا يتوضأ به، وهو مذهب باطل، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت : أجنبت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وآغتسلت من جَفْنة وفضلت فضلة ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغتسل منه فقلت : إنى قد آغتسلت منه . فقال : "إن الماء ليس عليه نجاسة — أو — إن الماء لا يُجْنِب" . قال أبو عمر : وردت آثار فى هذا الباب مرفوعة فى النهى عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة . وزاد بعضهم فى بعضها : ولكن ليغترفا جميعا . فقالت طائفة : لا يجوز أن يغترف الرجل مع المرأة فى إناء واحد ؛ لأن كل واحد منهما متوضئ بفضل صاحبه . وقال آخرون : إنما كره من ذلك أن تنفرد المرأة بالإناء ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها . وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أثرا . والذى ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة وتتوضأ المرأة من فضله ، آنفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد . وفى مثل هذا آثار كثيرة صحاح . والذى نذهب إليه أن

المـاء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيـه من النجاسات أو غلب عليـه منها ؛ فلا وجه للاشتغال بمـا لا يصح من الآثار والأقوال . والله المستعان .

روى الترمذيّ عن ابن عباس قال حدثتني ميمونة قالت : كنت أغتسل أنا ورسـول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد من الجنابة . قال هذا حديث حسن صحيح . وروى البخاريّ عن عائشة قالت : كنت أغتسل أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد يقال له الفَرَق[1] . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بفضل ميمونة . وروى الترمذى عن ابن عباس قال : اغتسل بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فى جَفْنة فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ منه فقالت : يارسول الله ، إنى كنت جنبا . قال : " إن المـاء لا يُجْنِب " . قال : هـذا حديث حسن صحيح ، وهو قول سفيان الثوريّ ومالك والشافعى . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عمرة عن عائشة رضى الله عنهـا قالت : كنت أتوضأ أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وقد أصابت الهرة منه قبل ذلك . قال : هـذا حديث حسن صحيح . وروى أيضا عن رجل من بنى غِفار قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل طهور المرأة . وفى الباب عن عبـد الله بن سَرْجِس ، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة ، وهو قول أحمد وإسحق .

الرابعــة عشرة — روى الدَّارَقُطْنِيّ عن زيد بن أسـلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر ابن الخطاب كان يسخن له المـاء فى قُمْقُمَة[2] ويغتسل به . قال : وهذا إسناد صحيح . وروى عن عائشة قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم وقـد سخّنت ماء فى الشمس . فقال " لا تفعلى يا حميراء فإنه يورث البرص " . رواه خالد بن إسمعيل المخزومى عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة ، وهو متروك . ورواه عمرو بن محمد الأعشم عن فليح عن الزهريّ عن عروة عن عائشة . وهو منكر الحديث ، ولم يروه غيره عن فليح ، ولا يصح عن الزهرى ؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ .

---

(١) الفرق (بالتحريك) : مكيال يسع ستة عشر رطلا . وبالسكون مائة وعشرون رطلا .
(٢) القمقمة والقمقم (كهدهد) : ما يسخن فيه المـاء من نحاس وغيره .

الخامسة عشرة — كل إناء طاهر بجائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة ؛ لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ٱتخاذهما . وذلك — والله أعلم — للتشبه بالأعاجم والجبابرة لا لنجاسة فيهما . ومن توضأ فيهما أجزاه وضوءه وكان عاصيا باستعمالها . وقد قيل : لا يجزئ الوضوء فى أحدهما . والأول أكثر ؛ قاله أبو عمر . وكل جلد ذُكّى فجائز ٱستعماله للوضوء وغير ذلك . وكان مالك يكره الوضوء فى إناء جلد الميتة بعد الدباغ ؛ على ٱختلاف من قوله . وقد تقدّم فى « النحل »(١) .

قوله تعالى : لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ ﴾ أى بالمطر . ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ بالجدوبة والمحل وعدم النبات . قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . وقال : « ميتا » ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد ؛ قاله الزجاج . وقيل : أراد بالبلد المكان . ﴿ وَنُسْقِيَهُ ﴾ قراءة العامة بضم النون(٢) . وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضّل عنهما « نَسْقِيَهُ » (بفتح) النون . ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أى بشرا كثيرا وأناسيّ واحده إنسى نحو جمع القُرْقُور(٣) قَرَاقير وقَرَاقِر فى قول الأخفش والمبرد وأحد قولى الفراء؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده إنسانا ثم تبدل من النون ياء ؛ فتقول : أناسى، والأصل أناسين ، مثل سِرحان وسراحين ، و بستان و بساتين؛ فجعلوا الياء عوضا من النون، وعلى هذا يجوز سراحى و بساتى، لا فرق بينهما . قال الفراء : ويجوز « أَنَاسِى » بتخفيف الياء التى فيما بين لام الفعل وعينه؛ مثل قراقير وقراقر . وقال « كَثِيرًا » ولم يقل كثيرين ؛ لأن فعيلا قد يراد به الكثرة ؛ نحو « وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا »(٤) .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٦ . (٢) كذا فى ب و ك . وفى غيرهما : « بضم النون » . وهو خطأ .

(٣) القرقور : ضرب من السفن . وقيل : هى السفينة العظيمة أو الطويلة .

(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ فما بعد .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعنى القرآن، وقد جرى ذكره فى أول السورة : قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ » . وقوله : « لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى » وقوله : « ٱتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً » . ﴿ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴾ أى جحودا له وتكذيبا به . وقيل : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » هو المطر . روى عن ابن عباس وآبن مسعود : وأنه ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرّفه حيث يشاء ، فما زيد لبعض نقص من غيرهم . فهذا معنى التصريف . وقيل : « صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » وابلا وطَشّا وطَلّا ورِهاما ــ الجوهرى : الرهام الأمطار اللينة ــ ورَذَاذًا . وقيل : تصريفه تنويع الآنتفاع به فى الشرب والسقى والزراعات به والطهارات وسقى البساتين والغسل وشبهه . « لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » قال عكرمة : هو قولهم فى الأنواء : مطرنا بنوء كذا . قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير آختلافا أن الكفر هاهنا قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا ؛ وأن نظيره فعل النجم كذا ، وأن كل من نسب إليه فعلا فهو كافر . وروى الربيع بن صبيح قال : مُطِر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فلما أصبح قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أصبح الناس فيها رجلين شاكر وكافر فأما الشاكر فيحمد الله تعالى على سقياه وغياثه وأما الكافر فيقول مُطرنا بنوء كذا وكذا[1] " . [وهذا متفق على صحته بمعناه وسيأتى فى الواقعة إن شاء الله[2]] وروى من حديث آبن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصى صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفيافى والبحار" . وقيل : التصريف راجع إلى الريح ، وقد مضى فى « البقرة[3] » بيانه . وقرأ حمزة والكسائى : « لِيَذْكُرُوا » مخففة الذال من الذكر . الباقون مثقلا من التذكّر ؛ أى ليذكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يجوز الإشراك به ؛ فالتذكر قريب من الذكر غير أن التذكر يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف فى التذكر .

(١) كذا فى ز و ا ، وفى ك : بنوء كذا .　(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٣ .　(٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ أى رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر ليخف عليك أعباء النبوّة، ولكنا لم نفعل بل جعلناك نذيرا للكل لترتفع درجتك فآشكر نعمة الله عليك . ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى فيما يدعونك إليه من آتباع آلهتهم . ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ قال آبن عباس بالقرآن . آبن زيد : بالإسلام . وقيل : بالسيف ؛ وهذا فيه بعدٌ ؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال . ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ لا يخالطه فتور .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ عاد الكلام إلى ذكر النعم . و « مَرَجَ » خَلّى وخلط وأرسل . قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما فى الآخر . قال آبن عرفة : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى خلطهما فهما يلتقيان ؛ يقال : مرجته إذا خلطته . ومَرِجَ الدينُ والأمر آختلط وآضطرب ؛ ومنه قوله تعالى : « فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ »(١) . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصي(٢) : " إذا رأيتَ الناس مَرِجت عهودهم وخفّت أماناتهم وكانوا هكذا وهكذا " وشبك بين أصابعه فقلت له : كيف أصنع عند ذلك ، جعلني الله فداك ! قال : " آلزم بيتك وآملِك عليك لسانك وخذ بما تعرِف ودع ما تنكر وعليك بخاصة أمر نفسك ودع عنك أمر العامة " خرجه النسائى وأبو داود وغيرهما . وقال الأزهرى : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » خلّى بينهما ؛ يقال مَرَجتُ الدابة إذا خليتها ترعى . وقال ثعلب : المرج الإجراء؛ فقوله : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أجراهما . وقال الأخفش : يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنًى . ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ أى حلو شديد العذوبة .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٤ . (٢) الحديث فى الفتنة .

﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى فيه ملوحة ومرارة . وروى [عن](١) طلحة أنه قرئ : « وَهَذَا مَلِحٌ » بفتح الميم وكسر اللام . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ أى حاجزا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه ، كما قال فى سورة الرحمن « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ »(٢) . ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أى سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر . فالبرزخ الحاجز ، والحجر المانع . وقال الحسن : يعنى بحر فارس و بحر الروم . وقال ابن عباس وابن جبير : يعنى بحر السماء و بحر الأرض . قال ابن عباس : يلتقيان فى كل عام و بينهما برزخ قضاء(٣) من قضائه . « وَحِجْرًا مَحْجُورًا » حراما محرما أن يعذب هذا الملح بالعذب ، أو يملح هذا العذب بالملح .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ أى خلق من النطفة إنسانا . ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ أى جعل الإنسان « نَسَبًا وَصِهْرًا » . وقيل : « مِنَ الْمَاءِ » إشارة إلى أصل الخلقة فى أن كل حى مخلوق من الماء . وفى هذه الآية تعديد النعمة على الناس فى إيجادهم بعد العدم ، والتنبيه على العبرة فى ذلك .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين . قال ابن العربى : النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع ؛ فإن كان بمعصية كان خلقا مطلقا ولم يكن نسبا محققا ، ولذلك لم يدخل تحت قوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ »(٤) بنته من الزنى ؛ لأنها ليست ببنت له فى أصح القولين لعلمائنا وأصح القولين فى الدين ؛ و إذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعا فلا يحرم الزنى بنت أم ولا أم بنت ، وما يحرم من الحلال لا يحرم من الحرام ؛ لأن الله امتن بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما ، وعلق الأحكام فى الحل والحرمة عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما .

(١) من ب .
(٢) راجع جـ ١٧ ص ١٦١ .
(٣) فى ك : قضاء من قضائه . لعله الأشبه .
(٤) راجع جـ ٥ ص ١٠٥ .

قلت: آختلف الفقهاء فى نكاح الرجل آبنته من زنى أو أخته أو بنت آبنه من زنى؛ فحرّم ذلك قوم منهم آبن القاسم، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك ابن الماجشون، وهو قول الشافعىّ، وقد مضى هذا فى «النساء»(١) مجوّدا. قال الفراء: النسب الذى لا يحلّ نكاحه، [والصهر الذى يحل نكاحه](٢). وقاله الزجاج، وهو قول على بن أبى طالب رضى الله عنه. وآشتقاق الصّهر من صهرت الشىء إذا خلطته؛ فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه، فسمّيت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها. وقيل: الصهر قرابة النكاح؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحْماء. والأصهار يقع عاما لذلك كله؛ قاله الأصمعىّ. وقال آبن الأعرابى: الأخْتَان أبو المرأة وأخوها وعمها — كما قال الأصمعىّ — والصهر زوج آبنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه. وقال محمد بن الحسن فى رواية أبى سليمان الجوزجانى: أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته، وكل ذات محرم منه، وأصهاره كل ذى رحم محرم من زوجته. قال النحاس: الأولى فى هذا أن يكون القول فى الأصهار ما قال الأصمعى، وأن يكون من قبلهما جميعا. يقال: صهرت الشىء أى خلطته؛ فكل واحد منهما قد خلط(٣) صاحبه. والأولى فى الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين: إحداهما الحديث المرفوع، روى محمد آبن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما أنت يا علىّ فختنى وأبو ولدى وأنت منى وأنا منك". فهذا على أن زوج البنت ختن. والجهة الأخرى أن آشتقاق الختن من ختنه إذا قطعه؛ وكأن الزوج قد آنقطع عن أهله، وقطع زوجته عن أهلها. وقال الضحاك: الصهر قرابة الرضاع. قال آبن عطية: وذلك عندى وَهْمٌ أوجبه أن آبن عباس قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر خمس. وفى رواية أخرى من الصهر سبع؛ يريد قوله عز وجل: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ» فهذا هو النسب. ثم يريد بالصهر قوله تعالى: «وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ» إلى قوله: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ». ثم ذكر المحصنات. ومحمل هذا أن آبن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه، فقد أشار

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١١٤ فما بعد. (٢) من ك. (٣) فى ك: خالط.

بما ذكر إلى عظمه وهو الصهر ، لا أن الرضاع صهر ، وإنما الرضاع عديل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه . ومن روى : وحرم من الصهر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات ؛ وهن ذوات الأزواج .

قلت : فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدم نسبا، وهو قول الزجاج . قال أبو إسحق : النسب الذى ليس بصهر من قوله جل ثناؤه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » إلى قوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » والصهر من له التزويج . قال ابن عطية : وحكى الزهراوى قولا أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات .

قلت : وذكر هذا القول النحاس ، وقال : لأن المصاهرة من جهتين تكون . وقال ابن سيرين : نزلت هذه الآية فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وعليّ رضى الله عنه ؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر . قال ابن عطية : فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ على خلق ما يريده .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ لما عدد النعم وبيّن كمال قدرته عجب من المشركين فى إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضر ؛ أى إن الله هو الذى خلق ما ذكره، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتا جمادات لا تنفع ولا تضر . ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ روى عن ابن عباس « الْكَافِرُ » هنا أبو جهل [لعنه الله](١)؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه . وقال عكرمة : « الْكَافِرُ » إبليس، ظهر على عداوة ربه . وقال مُطَرِّف : « الْكَافِرُ » هنا الشيطان . وقال الحسن : « ظَهِيرًا » أى معينا للشيطان على المعاصى . وقيل : المعنى ؛ وكان الكافر على ربه هينا ذليلا لا قدر له ولا وزن عنده ؛ من قول العرب : ظهرت به أى جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه . ومنه قوله تعالى : « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا »(٢) أى هينا .

(١) من ك . (٢) راجع جـ ٩ ص ٨٥ فما بعد .

ومنه قول الفرزدق :

تَميمَ بنَ قيسٍ لا تكونَنّ حاجتى * بِظَهْرٍ فلا يعيا علىّ جوابُها

هذا معنى قول أبى عبيدة . وظهير بمعنى مظهور . أى كفر الكافرين هين على الله تعالى ، والله مستهين به لأن كفره لا يضره . وقيل : وكان الكافر على ربه الذى يعبده وهو الصنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر ونفع .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ يريد بالجنة مبشرا ونذيرا من النار ؛ وما أرسلناك وكيلا ولا مسيطرا . ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحى . و « مِن » للتأكيد . ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ لكن من شاء ؛ فهو آستثناء منقطع ، والمعنى : لكن من شاء ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بإنفاقه من ماله فى سبيل الله فلينفق . ويجوز أن يكون متصلا ويقدّر حذف المضاف ؛ التقدير : إلا أجر « مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا » بآتباع دينى حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ تقدم معنى التوكل فى «آل عمران»[1] وهذه السورة وأنه آعتماد القلب على الله تعالى فى كل الأمور ، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير آعتماد عليها . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أى نزّه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء . والتسبيح التنزيه ، وقد تقدم . وقيل : « وَسَبِّحْ » أى وصلّ له ؛ وتسمى الصلاة تسبيحا . ﴿ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ أى عليما فيجازيهم بها .

(١) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (٥٩)

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم في الأعراف (١) . و « ٱلَّذِى » في موضـع خفض نعتـا للحيّ . وقال : « بَيْنَهُمَا » ولم يقل بينهن ؛ لأنه أراد الصنفين والنوعين والشيئين ؛ كقول القُطامِيّ :

ألم يحـــزنك أن حبـال قيس　＊　وتغلب قـد تباينتـا ٱنقطاعا

أراد وحبال تغلب فثنّى ، والحبال جمع ؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين . ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال الزجاج : المعنى فٱسأل عنه . وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن ؛ كما قال تعالى : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِـعٍ (٢) » وقال الشاعر :

هَلَّا سألتِ الخيل يا ٱبنة مالك　＊　إن كنت جاهلة بمـا لم تعلمى (٣)

وقال [عَلْقَمة بن عَبَدة (٤)] :

فإن تسألونى بالنســاء فإننى　＊　خبـــيرٌ (٥) بأدواء النسـاءِ طبيبُ

أى عن النساء وعما لم تعلمى . وأنكره عليّ بن سليمان وقال : أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن ؛ لأن في هذا إفسادا لمعانى قول العرب : لو لقيت فلانا للقيك به الأسد ؛ أى للقيك بلقائك إياه الأســد . المعنى فٱسأل بسؤالك إياه خبـيرا . وكذلك قال ٱبن جبير : الخبـير هو الله تعالى . فـ« خَبِيرًا » نصب على المفعول به بالسؤال .

قلت : قول الزجاج يخرج على وجه حسن ، وهو أن يكون الخبير غير الله ؛ أى فٱسأل عنه خبيرا ، أى عالمـا به ، أى بصــفاته وأسمائه . وقيــل : المعنى فٱسأل له خبيرا ، فهو نصب

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ فما بعد .　(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٨ .　(٣) البيت من معلقة عنترة .
(٤) في نسخ الأصول : « وقال ٱمرؤ القيس » وهو تحريف . والبيت من قصيدة لعلقمة مطلعها :
طحا بك قلب في الحسان طروب　＊　بعيد الشباب عصر حان مشيب
(٥) يروى : بصير أى عليم .

على الحال من الهاء المضمرة . قال المهدوىّ : ولا يحسن حالا إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسئول، ولا يصح كونها حالا من الفاعل؛ لأن الخبير لا يحتاج أن يسأل غيره . ولا يكون من المفعول ؛ لأن المسئول عنه وهو الرحمن خبير أبدا ، والحال فى أغلب الأمر يتغير و ينتقل؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة؛ مثل : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا »[1] فيجوز . وأما « الرَّحْمَٰنُ » ففى رفعه ثلاثة أوجه : يكون بدلا من المضمر الذى فى « اسْتَوَى » . و يجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هو الرحمن . و يجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره « فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » . و يجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحىّ الذى لا يموت الرحمنِ؛ يكون نعتا . و يجوز النصب على المدح .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أى لله تعالى . ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ على جهة الإنكار والتعجب ، أى ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب . وزعم القاضى أبو بكر بن العربىّ أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف ، واستدلّ على ذلك بقوله : « وَمَا الرَّحْمَٰنُ » ولم يقولوا ومن الرحمن . قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ »[2] . ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين؛ أى لما تأمرنا أنت يا محمد . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائىّ : « يَأْمُرُنَا » بالياء . يعنون الرحمن؛ كذا تأوله أبو عبيد ، قال : ولو أقروا بأن الرحمن أمرهم ما كانوا كفارا . فقال النحاس : وليس يجب أن يتأول عن الكوفيين فى قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم « أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا » النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فتصح القراءة على هذا ، و إن كانت الأولى أبين وأقرب تناولا[3] . ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أى زادهم قول القائل لهم اسجدوا للرحمن نفورا عن الدِّين . وكان سفيان الثورىّ يقول فى هذه الآية : إلهى زادنى لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣١٧ . (٣) فى ك و ز : متناولا .

قوله تعالى : تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ (1) أى منازل ؛ وقد تقدّم ذكرها . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ قال ٱبن عباس : يعنى الشمس ؛ نظيره : « وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » (2) . وقراءة العامة : «سِرَاجًا» بالتوحيد . وقرأ حمزة والكسائى : «سُرُجًا» يريدون النجوم العظام الوقادة . والقراءة الأولى عند أبى عبيد أولى ؛ لأنه تأوّل أن السُّرُج النجوم ، وأن البروج النجوم ؛ فيجىء المعنى نجوما ونجوما . النحاس : ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلب قال : السرج النجوم الدرارى . الثعلبى : كالزهرة والمشترى و زحل والسماكين ونحوها . ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ينير الأرض إذا طلع . و روى عِصمة عن الأعمش «وَقُمْرا» بضم القاف و إسكان الميم . وهذه قراءة شاذة ، ولو لم يكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين فى وقته قال : لا تكتبوا ما يحكيه عِصمة الذى يروى القراءات ، وقد أولع أبو حاتم السجستانى بذكر ما يرويه عِصمة هذا .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ خِلْفَةً ﴾ قال أبو عبيدة : الخِلفة كل شىء بعد شىء . وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه . و يقال للبطون : أصابته خِلفة ؛ أى قيام وقعود يخلف هذا ذاك . ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأوّل فى الصيف . ومن هذا المعنى قول زهير بن أبى سُلْمى :

بها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً　＊　وأَطْلَاؤُها يَنْهَضنَ من كُلِّ مَجْثَمِ (3)

(1) راجع جـ ١٠ ص ٩ .　(2) راجع جـ ١٩ ص ٣٠٥ .　(3) العين (بالكسر) جمع أعين وعيناء ، وهى بقر الوحش ؛ سميت بذلك لسعة أعينها . والأطلاء : جمع طلا ، وهو ولد البقرة و ولد الظبية الصغير . والمجثم : الموضع الذى يجثم فيه ؛ أى يقام فيه .

الرئم ولد الظبي وجمعه آرام؛ يقول : إذا ذهب فوج جاء فوج . ومنه قول الآخر[1] يصف آمرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأبا .

ولها بالماطرونِ إذا * أَكَلَ النملُ الذى جَمَعَا

خِلفةً حتى إذا آرتبعتْ * سَكَنتْ مِن جِلّقٍ بِيَعَا

فى بيوت وَسْطَ دَسْكَرةٍ * حولَها الزيتونُ قد يَنَعَا

قال مجاهد : « خِلفةً » من الخلاف ؛ هذا أبيض وهذا أسود ؛ والأول أقوى . وقيل : يتعاقبان فى الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ؛ أى جعل الليل والنهار ذوى خِلفة ، أى آختلاف . ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أى يتذكر ، فيعلم أن الله لم يجعله كذلك عبثا فيعتبر فى مصنوعات الله ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه فى العقل والفكر والفهم . وقال عمر بن الخطاب وآبن عباس والحسن : معناه من فاته شىء من الخير بالليل أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل . وفى الصحيح : "ما من آمرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها نوم فيصلّى ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة" . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من نام عن حزبه أو عن شىء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل" .

الثانيــة — قال آبن العربى : سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول : إن الله تعالى خلق العبد حيا عالما ، وبذلك كماله ، وسلّط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخِلقة ؛ إذ الكمال للأوّل الخالق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر فى طاعة الله فليفعل . ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوا ، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون سنة ، ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثى عمره فى لذة فانية ، ولا يتلف عمره بسهر فى لذة باقية عند الغنى الوفى الذى ليس بعديم ولا ظلوم .

(١) هو يزيد بن معاوية . والماطرون : موضع بالشام قرب دمشق .

الثالثــــة — الأشياء لا تتفاضل بأنفسها ؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة ، و إنما يقع التفاضل بالصفات . وقد آختلف أيّ الوقتين أفضل ، الليل أو النهار . وفى الصوم غنية فى الدلالة ، والله أعلم ؛ قاله آبن العربى .

قلت : والليل عظيم قدره ؛ أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ »[1] ، وقال : «قُمِ اللَّيْلَ»[2] على ما يأتى بيانه . ومدح المؤمنين على قيامه فقال : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ »[3] . وقال عليه الصلاة والسلام : "والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل فى جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى" حسبما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الرابعــــة — قرأ حمــزة وحده : « يَذْكُرَ » بسكون الذال وضم الكاف . وهى قــراءة آبن وثّاب وطلحة والنَّخَعىّ . وفى مصحف أبىّ « يَتَذَكَّر » بزيادة تاء . وقــرأ الباقون : «يَذَّكَّر» بتشديد الكاف . و يَذْكُرَ و يَذَّكَّر بمعنى واحد . وقيل : معنى «يَذْكُرَ» بالتخفيف أى يذكر ما نسيه فى أحد الوقتين فى الوقت الثانى ، أو ليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيها . ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ يقال : شكر يشكر شكرا وشكورا ، مثل كفر يكفر كفرا وكفورا . وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواما لمعاشهم . وكأنهم لما قالوا : «وَمَا الرَّحْمَنُ»[4] قالوا : هو الذى يقدر على هذه الأشياء .

قوله تعالى : وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم فى القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضا وذكر صفاتهم ، وأضافهم إلى عبوديته تشريفا لهم ، كما قال : «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ»[1] وقد تقدّم . فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه و بصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذى يستحق

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥ وص ٣٠٧ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٣٠ .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٩٩ فما بعد . (٥) فى ك : قال .

ٱسم العبودية ، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى : « أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ » يعنى فى عدم الاعتبار ؛ كما تقدّم فى « الأعراف »[1] . وكأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض ، فحذف هم ؛ كقولك : زيد الأمير ، أى زيد هو الأمير . فـ « ٱلَّذِينَ » خبر مبتدإ محذوف ؛ قاله الأخفش . وقيل : الخبر قوله فى آخر السورة : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » وما بين المبتدإ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها ؛ قاله الزجاج . قال : ويجوز أن يكون الخبر « ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ » . و « يَمْشُونَ » عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم ، فذكر من ذلك العظم ، لا سيما وفى ذلك الانتقال فى الأرض ؛ وهو معاشرة الناس وخلطتهم .

قوله تعالى : « هَوْنًا » الهون مصدر الهَيِّن وهو من السكينة والوقار . وفى التفسير : يمشون على الأرض حلماء متواضعين ، يمشون فى ٱقتصاد . والقصد والتؤدة وحسن السَّمْت من أخلاق النبوة . وقال صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس فى الإيضاع "[2] وروى فى صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا زال زال تقلعا ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المِشية إذا مشى كأنما يحط من صَبَب . التقلع ، رفع الرجل بقوّة والتكفؤ : الميل إلى سنن المشى وقصده . والهون الرفق والوقار . والذريع الواسع الخطا ؛ أى أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه ؛ خلاف مِشية المختال ، ويقصد سمته ؛ وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة . كما قال : كأنما يحط من صَبَب ؛ قاله القاضى عِياض . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسرع جِبلة لا تكلفا . قال الزهرى : سرعة المشى تذهب بهاء الوجه . قال ٱبن عطية : يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار ؛ والخير فى التوسط . وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » فما وجدت من ذلك شفاء ، فرأيت فى المنام من جاءنى فقال لى : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا فى الأرض . قال القُشيرى : وقيل لا يمشون لإفساد ومعصية ، بل فى طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك[3] . وقد قال الله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢٤ فما بعد . (٢) الإيضاع : سير مثل الخبب . (٣) فى ك : هزل .

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »[1] . وقال ابن عبـاس : بالطاعة والمعروف والتواضع . الحسن : حلمـاء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقيل : لا يتكبرون على الناس .

قلت : وهـذه كلها معانٍ متقاربة، ويجمعها العلم بالله والخوف منه ، والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه ؛ جعلنا الله منهم بفضـله ومنّه . وذهبت فرقة إلى أن « هَوْناً » مرتبط بقوله : « يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ» أن المشى هو هون . قال ابن عطية : ويشـبه أن يتأول هـذا على أن تكون أخلاق ذلك المـاشى هونا مناسـبة لمشيه ، فيرجع القول إلى نحو ما بينـاه . وأما أن يكون المراد صـفة المشى وحده فبـاطل ؛ لأنه رب ماش هونا رويدا وهو ذئب أطلس[2] . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفأ فى مشيه كأنمـا ينحط[3] فى صبب . وهو عليه الصلاة والسلام الصدر فى هذه الأمة . وقوله عليه الصلاة والسلام : " من مشى منكم فى طمع فليمش رويدا " إنمـا أراد فى عقد نفسه، ولم يرد المشى وحده . ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدّين تمسكوا بصورة المشى فقط ؛ حتى قال فيهم الشاعر[4] ذمّاً لهم:

كلُّهم يمشِى رُوَيْد * كلُّهم يَطْلُبُ صَيْد

قلت : وفى عكسه أنشد ابن العربىّ لنفسه .

تواضعتُ فى العليـاء والأصل كابر * وحزتُ قصابَ السبقِ بالهَوْنِ فى الأمر

سكونٌ فلا خبث السريرة أصـله * وجلّ سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾ قال النحاس : ليس « سَلَاماً » من التسليم إنمـا هو من التسلُّم ؛ تقول العرب : سلاما ، أى تَسلُّما منك ، أى براءة منك . منصوب على أحد أمرين : يجوز أن يكون منصوبا بـ «قَالُوا» ، ويجوز أن يكون مصدرا ؛ وهذا قول سيبويه . قال ابن عطية : والذى أقوله : أن « قَالُوا » هو العامل فى « سَلَاماً » لأن المعنى قالوا هذا اللفظ . وقال مجاهد : معنى « سَلَاماً » سَدَاداً . أى يقول للجاهل كلاما

(١) راجع جـ ١٤ ص ٦٩ فما بعد . (٢) الأطلس من الذئاب : هو الذى تساقط شعره ، وهو أخبث ما يكون . وقيـل : هو الذى فى لونه غبرة إلى السواد . (٣) من هـ ، وهو الرواية . (٤) هذا من كلام أبى جعفر المنصور الخليفة فى مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور . وتمـامه : * غير عمرو بن عبيد *

يدفعه به برفق ولين . فـ «قَالُوا» على هذا التأويل عامل فى قوله : «سَلَامًا» على طريقة النحويين ؛ وذلك أنه بمعنى قولا . وقالت فرقة : ينبغى للخاطب أن يقول للجاهل سلاما ؛ بهذا اللفظ . أى سلمنا سلاما أو تسليما ، ونحو هذا ؛ فيكون العامل فيه فعلا من لفظه على طريقة النحويين .

مسـألة : هذه الآية كانت قبل آية السيف ، نسخ منها ما يخص الكفرة و بقى أدبها فى المسلمين إلى يوم القيامة . وذكر سيبويه النسخ فى هذه الآية فى كتابه ، وما تكلم فيه على نسخ سواه ؛ رجح به أن المراد السلامة لا التسليم ؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة . والآية مكية فنسختها آية السيف . قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاما فى معنى الناسخ والمنسوخ إلا فى هذه الآية . قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلّموا على المشركين لكنه على معنى قوله : تَسلُّما منكم ، ولا خير ولا شر بيننا و بينكم . المبرد : كان ينبغى أن يقال : لم يؤمر المسلمون يومئـذ بحربهم ثم أمروا بحربهم . محمد بن يزيد : أخطأ سيبويه فى هـذا وأساء العبارة . ابن العربى : لم يؤمر المسلمون يومئـذ أن يسلّموا على المشركين ولا نُهوا عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم و يحييهم و يدانيهم ، ولا يداهنهم . وقد اتفق الناس على أن السفيه من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك .

قلت : هـذا القول أشبه بدلائل السنة . وقد بيّنا فى سورة « مريم »[1] اختلاف العلماء فى جواز التسليم على الكفار ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ ؛ والله أعلم . وقد ذكر النضر بن شميل قال حدثنى الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابى وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فلما سلمنا ردّ علينا السلام وقال لنا : استووا . و بقينا متحيرين ولم ندر ما قال . فقال لنا أعرابى إلى جنبه : أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله عز وجل : « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ »[2] فصمدنا إليه فقال : هل لكم فى خبز فطير ، ولبن هجير ، وماء نمير[3]؟ فقلنا : الساعة فارقناه . فقال : سلاما . فلم ندر ما قال . قال فقال الأعرابى : إنه

(١) راجع جـ ١١ ص ١١١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢ فما بعد .
(٣) الفطير : خلاف الخمير ؛ وهو العجين الذى لم يختمر . والهجير : الفائق الفاضل . والنمير : الناجع فى الرى .

سألكم متاركة لا خير فيها ولا شر. فقال الخليل : هو من قول الله عز وجل : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . قال ٱبن عطية : ورأيت فى بعض التواريخ أن إبرهيم بن المهدىّ — وكان من المـائلين على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه — قال يوما بحضرة المـأمون وعنده جماعة : كنت أرى علىّ بن أبى طالب فى النـوم فكنت أقول له من أنت ؟ فكان يقـول : علىّ بن أبى طالب . فكنت أجىء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمنى فى عبورها . فكنت أقول : إنمـا تدعى هذا الأمر بٱمرأة ونحن أحق به منك . فما رأيت له فى الجواب بلاغة كما يذكر عنـه . قال المأمون : وبمـاذا جاوبك ؟ قال : فكان يقول لى سـلاما . قال الراوى : فكأن إبراهيم بن المهدىّ لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه فى ذلك الوقت . فنبه المأمون على الآية من حضره وقال : هو والله ياعم علىّ بن أبى طالب ، وقـد جاوبك بأبلغ جواب ، فخزى إبراهيم وٱستحيا . وكانت رؤيا لا محالة صحيحة .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ قال الزجاج : بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل ، نام أو لم ينم . قال زهير(١) :

فبتنا قيـاما عند رأس جوادِنا * يزاولنـا عن نفسه ونزاوله

وأنشدوا فى صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق منـاما * وٱذرِ الدموع على الخدود سِجاما
وٱعـلم بأنك ميت ومحـاسَبٌ * يا من على سخـط الجليـل أقاما
لله قـوم أخلصـوا فى حبِّـه * فرضِى بهـم وٱختصهم خدّاما
قـوم إذا جنّ الظلام عليهـم * باتوا هنـالك سُجَّــدا وقيـاما
خمص البطون من التعفف ضمّرا * لا يعرفون سـوى الحلال طعاما

(١) فى الأصول : «قال ٱمرؤ القيس» . وهو تحريف . والبيت من قصيدة لزهير مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله * وعرى أفـراس الصبـا ورواحله

وقال ابن عباس : من صلّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا وقائما .
وقال الكلبيّ : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء فقد بات ساجدا وقائما .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله . ابن عباس : يقولون ذلك فى سجودهم وقيامهم . ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى لازما دائما غير مفارق . ومنه سمى الغريم لملازمته . ويقال : فلان مغرم بكذا أى لازم له مولع به . وهذا معناه فى كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابيّ وابن عرفة وغيرهما . وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـ * ـط جزيلا فإنه لا يبالى

وقال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم . وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب . وقال ابن زيد : الغرام الشر . وقال أبو عبيدة : الهلاك . والمعنى واحد . وقال محمد بن كعب : طالبهم الله تعالى بثمن النعيم فى الدنيا فلم[1] يأتوا به ، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار . ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى بئس المستقر وبئس المقام . أى إنهم يقولون ذلك عن علم ، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ اختلف المفسرون فى تأويل هذه الآية . فقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معناه أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار ، ومن أنفق فى طاعة الله تعالى فهو القَوام .

(١) فى ك : فلما لم يأتوا به غرمهم .

وقال آبن عباس : من أنفق مائة ألف فى حق فليس بسرف، ومن أنفق درهما فى غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر. وقاله مجاهد وآبن زيد وغيرهما . وقال عون آبن عبد الله : الإسراف أن تنفق مال غيرك . قال آبن عطية : وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية، والوجه أن يقال. إن النفقة فى معصيةٍ أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره وكذلك التعدى على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك ، وإنما التأديب فى هذه الآية هو فى نفقة الطاعات فى المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقا آخر أو عيالا ونحو هذا ، وألا يضيق أيضا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط فى الشح ، والحسن فى ذلك هو القوام، أى العدل ، والقوام فى كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه الخصال ، وخير الأمور أوساطها ؛ ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق أن يتصدق بجميع ماله ، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره فى الدِّين، ومنع غيره من ذلك . ونعم ما قال إبراهيم النَّخَعِىّ : هو الذى لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف . وقال يزيد بن أبى حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب لجمال ، ولا يأكلون طعاما للذة . وقال يزيد أيضا فى هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحر والبرد . وقال عبد الملك آبن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه آبنته فاطمه : ما نفقتك ؟ فقال له عمر : الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية . وقال عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفا ألا يشتهى شيئا إلا آشتراه فأكله . وفى سنن آبن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من السرف أن تأكل كل ما آشتهيت " وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ولم يبخلوا . كقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ »[1] وقال الشاعر :

ولا تغلُ فى شىء من الأمر وآقتصد * كلَا طَرَفَىْ قصدِ الأمورِ ذميمُ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٩ فما بعد .

وقال آخـر :

إذا المرءُ أعطى نفسه كلَّ ما اشتهتْ * ولم يَنْهها تاقت إلى كل باطل

وساقت إليه الإثم والعار بالذى * دعته إليه من حلاوةِ عاجلِ

وقال عمر لابنه عاصم : يا بنىّ ، كل فى نصف بطنك ؛ ولا تطرح ثوبا حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم . ولحاتم طىّ :

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله * وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ قرأ حمزة والكسائىّ والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على اختلاف عنهما « يَقْتُرُوا » بفتح الياء وضم التاء ، وهى قراءة حسنة ؛ من قتر يقتر . وهذا القياس فى اللازم ، مثل قعد يقعد . وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء ، وهى لغة معروفة حسنة . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء . قال الثعلبى : كلها لغات صحيحة . النحاس : وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه ؛ لأن أهل المدينة عنده لا يقع فى قراءتهم الشاذ ، وإنما يقال : أقتر يقتر إذا افتقر، كما قال عز وجل : « وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ »(١) وتأول أبو حاتم لهم أن المسرف يفتقر سريعا . وهذا تأويل بعيد ؛ ولكن التأويل لهم أن أبا عمر الجَرْمىّ حكى عن الأصمعىّ أنه يقال للإنسان إذا ضيّق : قتر يقتر ويقتر، وأقتر يُقتر . فعلى هذا تصح القراءة ، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب متناولا ، وأشهر وأعرف . وقرأ أبو عمرو والناس « قَوَامًا » بفتح القاف ؛ يعنى عدلا . وقرأ حسّان ابن عبد الرحمن : « قِوَامًا » بكسر القاف ؛ أى مبلغا وسدادا وملاك حال . والقِوام بكسر القاف : مايدوم عليه الأمر ويستقر . و[قيل :](٢) هما لغتان بمعنًى . و« قَوَامًا » خبر كان ، واسمها مقدر فيها ؛ أى كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواما ؛ قاله الفراء . وله قول آخر يجعل « بَيْنَ » اسم كان وينصبها ؛ لأن هذه الألفاظ كثير(٣) استعمالها فتركت على حالها فى موضع الرفع . قال النحاس : ما أدرى ما وجه هذا؛ لأن « بينا » إذا كانت فى موضع رفع رفعت ؛ كما يقال : بَيْنُ عينيه أحمرُ .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠١ . (٢) من ك . (٣) فى ك : كثر .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة فى عبادتهم الأوثان ، وقتلهم النفس بوَأْدِ البنات ، وغير ذلك من الظلم والاغتيال ، والغارات ، ومن الزنى الذى كان عندهم مباحا . وقال من صرف هـذه الآية عن ظاهرها من أهل المعانى : لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص ، وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم لأنهم أعلى وأشرف ، فقال : معناها لا يدعون الهوى إلها ، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصى فيكون قتلالها . ومعنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء ليست لهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحا ؛ بل بالضرورة فيكون كالنكاح . قال شيخنا أبو العباس : وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق[1] . وهى نبعة باطنية ونزعة باطلية وإنما صح تشريف عباد الله باختصاص الإضافة بعد أن تحلّوا بتلك الصفات الحميدة وتخلّوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة ، فبدأ فى صدر هذه الآيات بصفات التحلى تشريفا لهم ، ثم أعقبها بصفات التخلى تبعيدا[2] لها ؛ والله أعلم .

قلت : ومما يدلّ على بطلان ما ادّعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها ما روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال قلت : يارسول الله ، أىّ الذنب أكبر عند الله ؟ قال : " أن تدعو لله ندا وهو خلقك " قال : ثم أى ؟ قال : " أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم " قال : ثم أىّ ؟ قال : "أن تزانى حليلة جارك" فأنزل الله تعالى تصديقها : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأثام فى كلام العرب العقاب ، وبه قرأ ابن زيد وقتادة هذه الآية .

(١) أحمق . (٢) كذا فى ز و ك .

ومنه قول الشاعر :

جَزى الله ابن عُروة حيث أمسى * عُقـوقًا والعُقـوق لـه أثامُ

أى جزاء وعقوبة . وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد : إن «أَثَامًا» وادٍ فى جهنم جعله الله عقابا للكفرة . قال الشاعر :

لقيت المهالك فى حربنا * وبعد المهالك تلقى أثاما

وقال السدّى : جبل فيها . قال :

وكان مُقامُنا ندعوا عليهم * بأبطح ذى المجاز له أثامُ

وفى صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، وهو يخبرنا بأن لما عملنا كفارة(1)، فنزلت : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . ونزل: « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ »(2) الآية . وقد قيل : إن هذه الآية، « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا » نزلت فى وحشى قاتل حمزة ؛ قاله سعيد بن جبير وابن عباس ، وسيأتى فى « الزمر »(2) بيانه .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان ؛ على ما تقدم بيانه فى « الأنعام »(3) . ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا ملك يمين . ودلّت هـذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى ؛ ولهذا ثبت فى حد الزنا القتل لمن كان محصنا أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى « يُضَاعَفْ . وَيَخْلُدْ » جزما. وقرأ ابن كثير: «يُضَعَّفْ» بشد العين وطرح الألف؛ وبالجزم فى « يُضَعَّفْ . وَيَخْلُدْ» . وقرأ طلحة بن سليمان: « نُضَعِّفْ » بضم النون وكسر العين المشدّدة . « الْعَذَابَ » نصب « وَيَخْلُدْ » جزم ، وهى قراءة أبى جعفر وشيبة .

---

(1) فى ك و ز : لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة . ولعله الأشبه بالمعنى . محققه .

(2) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٧ فما بعد . (3) راجع جـ ٧ ص ١٣٣ .

وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر : « يُضَاعَفُ . وَيُخَلَّدُ » بالرفع فيهما على العطف والاستئناف . وقرأ طلحة بن سليمان : « وَتَخْلُدْ » بالتاء على معنى مخاطبة الكافر. وروى عن أبى عمرو « وَيُخْلَدْ » بضم الياء من تحت وفتح اللام . قال أبو على : وهى غلط من جهة الرواية . و « يُضَاعَفْ » بالجزم بدل من « يَلْقَ » الذى هو جزاء الشرط . قال سيبويه : مضاعفة العذاب لُقِىُّ الأثام . قال الشاعر :

مَتَى تأتنا تُلْمِمْ بنا فى دِيارنا　*　تجِدْ حَطَبًا جَزْلًا ونارًا تأَجَّجا

وقال آخــــر :

إنّ علىَّ اللهَ أَنْ تُبَايِعا[(1)]　*　تُؤْخَذَ كَرْهًا أو تَجِىءَ طائعا

وأما الرفع ففيه قولان : أحدهما أن تقطعه ممـا قبله . والآخر أن يكون محمـولا على المعنى؛ كأن قائلا قال : ما لُقِىُّ الأثام ؟ فقيل له : يضاعف له العذاب . و ﴿ مُهَـانًا ﴾ معناه ذليلا خاسئا مُبعَدًا مطرودا .

قوله تعـالى : إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُولَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِـلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل فى الكافر والزانى . واختلفوا فى القاتل من المسلمين على ما تقدم بيـانه فى « النسـاء »[(2)] ومضى فى « المـائدة »[(3)] القول فى جواز التراخى فى الاستثناء فى اليمين ، وهو مذهب ابن عباس مستدلا بهذه الآية .

قوله تعـالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل فيه أنه يكتب موضع كافرٍ مؤمن ، وموضع عاصٍ مطيع . وقال مجاهد والضحاك : أن يبدلهم

---

(١) الشاهد فى حمل تؤخذ على تبايع و إبداله منه . وأراد بقوله « الله » القسم ، والمعنى إن على والله فلما حذف الجار نصب .　　(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٣٢ فما بعد .　　(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٧٣ .

الله من الشرك الإيمان وروى نحوه عن الحسن . قال الحسن: قوم يقولون التبديل فى الآخرة، وليس كذلك ، إنما التبديل فى الدنيا؛ يبدلهم الله إيمانا من الشرك، وإخلاصا من الشك، وإحصانا من الفجور . وقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . وروى أبو ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أن السيئات تبدّل بحسنات" . وروى معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما. وقال أبو هريرة : ذلك فى الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته ، فيبدل الله السيئات حسنات . وفى الخبر : "لَيتمنَّين أقوام أنهم أكثروا من السيئات" فقيل : ومن هم ؟ قال : "الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات" . رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الثعلبي والقُشيري . وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ؛ أى يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات .

قلت : فلا يبعد فى كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : "أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالِق الناس بخلق حسن" . وفى صحيح مسلم عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخرَ أهل النار خروجا منها رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيقال آعرِضوا عليه صِغار ذنوبه وآرفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطع أن ينكر وهو مشفِق فى كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئةٍ حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا" فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . وقال أبو طَويل[1] : يا رسول الله ، أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئا ، وهو فى ذلك لم يترك حاجّة ولا داجّة إلا آقتطعها فهل له من توبة ؟ قال : "هل أسلمت" قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال "نعم.

(١) أبو طويل : كنية شطب الممدود ، رجل من كندة .

تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات ". قال : وغدراتي وفجراتي يانبي الله قال : " نعم ". قال : الله أكبر ! فما زال يكررها حتى توارى . ذكره الثعلبي . قال مبشر بن عبيد، وكان عالما بالنحو والعربية : الحاجّة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا . والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ لا يقال : من قام فإنه يقوم ؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب ؟ فقال ابن عباس : المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحا وأدّى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا ؛ أى فإني قدّمتهم وفضلتهم على من قاتل النبي صلى الله عليه وسلم واستحل المحارم . وقال القفّال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ » ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا . وقيل : أى من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة ؛ بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذى تاب إلى الله متابا؛ أى تاب حق التوبة وهى النصوح، ولذا أكد بالمصدر . ف « متابا » مصدر معناه التأكيد، كقوله : « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا »[1] أى فإنه يتوب إلى الله حقا فيقبل الله توبته حقا .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أى لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه . والزور كل باطل زُوِّر وزُخرِف، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد . وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس . وفى رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين . عكرمة : لعبٌ

(١) راجع جـ ٦ ص ١٧ فما بعد .

كان فى الجاهلية يسمى بالزور . مجاهد : الغناء؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضا . ابن جُريج : الكذب ؛ وروى عن مجاهد . وقال علىّ بن أبى طلحة ومحمد بن علىّ : المعنى لا يشهدون بالزور، من الشهادة لا من المشاهدة . قال ابن العربى : أما القول بأنه الكذب فصحيح ، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع ، وأما من قال إنه لعِبٌ كان فى الجاهليـة فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قمار أو جهالة ، أو أمر يعود إلى الكفر ، وأما القول بأنه الغناء فليس ينتهى إلى هذا الحد .

قلت : من الغناء ما ينتهى سماعه إلى التحريم ، وذلك كالأشعار التى توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال، أو يثير كامنا من حب اللهو ؛ مثل قول بعضهم :

ذهبىّ اللون تحسب من * وجنتيـه النـار تُقتدَحُ

خوّفونى من فضيحتـه * ليتـه وافى وأفتضِحُ

لاسيما إذا اقترن بذلك شبّابَات(١) وطارات مثل ما يفعل اليوم فى هـذه الأزمان ، على ما بيناه فى غير هذا الموضع . وأما من قال إنه شهادة الزور؛ وهى :

الثانيـة — فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنـه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخّم وجهه، ويحلق رأسـه، ويطوف به فى السوق(٢) . وقال أكثر أهل العلم : ولا تقبل له شهادة أبدا وإن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله . وقد قيل : إنه إذا كان غير مبرّز فحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدّم بيانه فى سورة « الحجّ »(٣) فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾(٤) قد تقدّم الكلام فى اللغو، وهو كل سقط من قول أو فعل؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك ممـا قاربه ، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنـين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر . وقال مجاهـد : إذا أوذوا صـفحوا . وروى عنه : إذا ذكر النكاح كنَّوا(٥) عنه . وقال الحسن : اللغو المعاصى كلها . وهذا جامع . و « كِرَامًا » معناه معرضين منكرين لا يرضونه ، ولا يمـالئون عليه ، ولا يجالسون أهـله .

(١) الشبابة (بالتشديد) : نوع من المزمار (مولد) . (٢) فى ك : الأسواق .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٥٥ . (٤) راجع جـ ٣ ص ٩٩ فـا بعد . (٥) كنوا عنه من التكنية . كذا فى ك وز .

أى مروا مرّ الكرام الذين لا يدخلون فى الباطل . يقال : تكرم فـلان عما يشينه ، أى تنزّه وأكرم نفسه عنه . وروى أن عبد الله بن مسعود[1] سمع غناء فأسرع وذهب ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لقد أصبح ابن أمّ عبدٍ كريما " . وقيل : من المرور باللغو كريما أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

قوله تعـالى : وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسـمع . وقال : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا ﴾ وليس ثَمّ خرور ؛ كما يقال : قعـد يبكى وإن كان غير قاعد ؛ قاله الطبرى واختاره ؛ قال ابن عطيـة : وهو أن يخروا صمًّا وعميانا هى صـفة الكفار ، وهى عبارة عن إعراضهم ؛ وقـرن ذلك بقولك : قعـد فلان يشتمنى وقام فلان يبكى وأنت لم تقصد الإخبـار بقعود ولا قيام ، وإنمـا هى توطئات فى الكلام والعبارة . قال ابن عطية : فكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر ، فإذا أعرض وضـلّ كان ذلك خرورا ، وهو السقوط على غير نظام وترتيب ؛ وإن كان قد شبّه به الذى يخر ساجدا لكن أصله على غير ترتيب . وقيل : أى إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخروا سجدا وبكيا ، ولم يخروا عليها صما وعميانا . وقال الفراء : أى لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .

الثانيـــة — قال بعضهم : إن من سمع رجلا يقرأ سجدة يسجد معـه ؛ لأنه قد سمع آيات الله تتلى عليه . قال ابن العربى : وهذا لا يلزم إلا القارئ وحده ، وأما غيره فلا يلزمه ذلك إلا فى مسئلة واحدة ؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذى جلس معه جلس ليسمعه فليسجد معـه ، وإن لم يلتزم السماع [معه[2]] فلا سجود عليه . وقد مضى هذا فى « الأعراف[3] » .

---

(١) فى ك : بن عمر . لقد أصبح ابن آدم عبدا كريما .   (٢) من ك .   (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٥٢ .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قال الضحاك : أى مطيعين لك . وفيه جواز الدعاء بالولد وقد تقدّم[(١)] . والذرّية تكون واحدا وجمعا . فكونها للواحد قوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا[(٢)] » وكونها للجمع « ذُرِّيَّةً ضِعَافًا[(٣)] » وقد مضى فى « البقرة[(٤)] » اشتقاقها مستوفى . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن : «وَذُرِّيَّاتِنَا» وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وطلحة وعيسى : « وذريتنا » بالإفراد . « قُرَّةَ أَعْيُنٍ » نصب على المفعول، أى قرّة أعين لنا . وهذا نحو قوله عليه الصلاة والسلام لأنس : " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه " وقد تقدّم بيانه فى « آل عمران[(١)] » و « مريم[(٢)] » . وذلك أن الإنسان إذا بورك له فى ماله وولده قرّت عينه بأهله وعياله ، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرّية محافظون على الطاعة ، معاونون له على وظائف الدِّين والدنيا ، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده ، فتسكن عينه عن الملاحظة ، ولا تمتد عينه إلى ما ترى ؛ فذلك حين قرّة العين ، وسكون النفس . ووحّد « قُرّة » لأنه مصدر ؛ تقول : قرّت عينك قُرّة . وقُرّة العين يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من القُرّ وهو الأشهر . والقُرّ البرد ؛ لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد . وأيضا فإن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن سخن ، فمن هذا يقال : أقرّ الله عينك ، وأسخن الله عين العدو . وقال الشاعر :

فكم سَخِنتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ * وقَرّت عيونٌ دمعُها اليوم ساكبُ

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ فما بعد .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٧٩ فما بعد
(٣) راجع جـ ٥ ص ٥٠ .
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى قدوة يقتدى بنا فى الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعى متقيا قدوة ؛ وهذا هو قصد الداعى . وفى الموطأ : " إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم " فكان ٱبن عمر يقول فى دعائه : اللهم ٱجعلنا من أئمة المتقين . وقال : «إِمَامًا» ولم يقل أئمة على الجمع ؛ لأن الإمام مصدر . يقال : أمّ القوم فلان إماما ؛ مثل الصيام والقيام . وقال بعضهم : أراد أئمة، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء، يعنى أمراءنا . وقال الشاعر

يا عاذلاتى لا تَزِدْنَ مَلامتِى * إنّ العـواذل لَسْنَ لِى بأميرِ

أى أمراء . وكان القشيرى أبو القاسم شيخ الصوفية يقول : الإمامة بالدعاء لا بالدعوى ؛ يعنى بتوفيق الله وتيسيره ومنته لا بما يدّعيه كل أحد لنفسه . وقال إبراهيم النّخعىّ : لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة فى الدِّين . وقال ابن عباس : ٱجعلنا أئمة هدى، كما قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »(١) وقال مكحول : ٱجعلنا أئمة فى التقوى يقتدى بنا المتقون . وقيل : هذا من المقلوب ؛ مجازه : وٱجعل المتقين لنا إماما ؛ وقاله مجاهد . والقول الأوّل أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة فى الدين ندب . وإمام واحد يدلّ على جمع ؛ لأنه مصدر كالقيام . قال الأخفش : الإمام جمع آمّ من أمّ يؤمّ جمع على فِعال، نحو صاحب وصِحاب، وقائم وقِيام .

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ « أُولَٰئِكَ » خبر « وعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ » فى قول الزجاج على ما تقدّم، وهو أحسن ما قيل فيه . وما تخلل بين المبتدإ وخبره أوصافهم من التحلى والتخلى ؛ وهى إحدى عشرة : التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسىء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله . و«الْغُرْفَةَ» الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا . حكاه ٱبن شجرة . وقال الضحاك : الغرفة الجنة . « بِمَا صَبَرُوا » أى بصبرهم على أمر ربهم : وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال محمد ٱبن على بن الحسين : « بِمَا صَبَرُوا » على الفقر والفاقة فى الدنيا . وقال الضحاك : « بِمَا صَبَرُوا» عن الشهوات . ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيي

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٠٩ .

وحمزة والكسائي وخلف : « وَيَلْقَوْنَ » مخففة، وآختاره الفراء؛ قال لأن العرب تقول : فلان يُتلقّى بالسلام وبالتحية وبالخير بالتاء، وقلما يقولون فلان يُلقّى السلامة . وقرأ الباقون : « وَيُلَقَّوْنَ » وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى : « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً »(١) . قال أبو جعفر النحاس : وما ذهب إليه الفراء وآختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت « يُلَقَّوْنَ » كانت في العربية بتحية وسلام، وقال كما يقال : فلان يُتلقّى بالسلام وبالخير ؛ فمن عجيب ما في هذا الباب أنه قال يتلقى والآية « يُلَقَّوْنَ » والفرق بينهما بين : لأنه يقال فلان يتلقى بالخير(٢) ولا يجوز حذف الباء ، فكيف يشبه هذا ذاك ! وأعجب من هذا أن في القرآن « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً » ولا يجوز أن يقرأ بغيره . وهذا يبيّن أن الأولى على خلاف ما قال . والتحية من الله والسلام من الملائكة . وقيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم ؛ والأظهر أنهما بمعنى واحد، وأنهما من قبل الله تعالى؛ دليله قوله تعالى : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ »(٣) وسيأتي . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال ﴿ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ هذه آية مشكلة تعلقت بها الملحدة . يقال : ما عبأت بفلان أي ما باليت به؛ أي ما كان له عندي وزن ولا قدر . وأصل يعبأ من العِبء وهو الثقل . وقول الشاعر(٤) :

كأن بصدره وبجانبيه * عبيرًا بات يعبؤه عروسُ

أي يجعل بعضه على بعض . فالعبء الحمل الثقيل ، والجمع أعباء . والعبء المصدر . وما آستفهامية؛ ظهر في أثناء كلام الزجاج، وصرح به الفراء . وليس يبعد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها آستفهام فهو نفي خرج مخرج الآستفهام ؛ كما قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »(٥) قال ابن الشجري : وحقيقة القول عندي أن موضع « ما » نصب؛ والتقدير : أيّ عِبء يعبأ بكم؛ أي أيّ مبالاة يبالي ربي بكم لولا دعاؤكم؛ أي لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذي هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله ؛ وهو آختيار الفراء . وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف في قوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٣٣ . (٢) في ك : بالتحية . (٣) راجع جـ ١٤ ص ١٩٩ .
(٤) هو أبو زبيد يصف أسدا ، كما في اللسان مادة « عبأ » . ورواه هكذا :
كأن بنحره وبمنكبيه * عبيرا بات يعبؤه عروس (٥) راجع جـ ١٧ ص ١٨٢ .

الْجِبَالُ (١) » تقديره : لم يعبأ بكم . ودليل هذا القول قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٢) » فالخطاب لجميع الناس ؛ فكأنه قال لقريش منهم : أى ما يبالى الله بكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت ؛ وذلك الذى يعبأ بالبشر من أجله . ويؤيد هـذا قراءة ابن الزبير وغيره . « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » فالخطاب بمـا يعبأ لجميع الناس ، ثم يقول لقريش : فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العذاب لزاما . وقال النقاش وغيره : المعنى ؛ لولا استغاثتكم إليه فى الشدائد ونحو ذلك . بيانه : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ (٣) » ونحو هذا . وقيــل : « مَا يَعْبَأُ بِكُمْ » أى بمغفــرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم « لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » معه الآلهة والشركاء . بيانه : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (٤) » ؛ قاله الضحاك . وقال الوليــد بن أبى الوليد : بلغنى فيهـا أى ما خلقتــكم ولى حاجة إليــكم إلا تسألونى فأغفر لكم وأعطيكم . وروى وهب بن مُنبّــه أنه كان فى التوراة : « يا ابن آدم وعزتى ما خلقتك لأربح عليك إنمـا خلقتك لتربح علىّ فاتخذنى بدلا من كل شىء فأنا خير لك من كل شىء » . قال ابن جِنّى : قــرأ ابن الزبير وابن عباس « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » . قال الزهراوى والنحاس : وهى قراءة ابن مسعود وهى على التفسير ؛ للتاء والميم فى « كَذَّبْتُمْ » . وذهب القتبى والفارسى إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، الأصــل لولا دعاؤكم آلهة من دونه ؛ وجواب « لَوْلَا » محذوف تقديره فى هذا الوجه : لم يعذبكم . ونظير قوله : لولا دعاؤكم آلهة قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ (٥) » . ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أى كذبتم بمـا دعيتم إليه ؛ هذا على القول الأول ؛ وكذبتم بتوحيد الله على الثانى . ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى يكون تكذيبكم ملازما لكم . والمعنى : فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا (٦) » أى جزاء ما عملوا وقوله : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَـا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٧) » أى جزاء ما كنـتم تكفرون . وحسن إضمار التكذيب لتقدّم ذكر فعـله ؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دلّ بلفظه على مصدره ؛ كما قال : « وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٨) » أى لكان الإيمان . وقوله : « وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (٩) » أى يرضى الشكر . ومثله كثير . وجمهور المفسرين

(١) راجع جـ ٩ ص ٣١٨ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ . (٣) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء .
(٤) راجع جـ ٥ ص ٤٢٦ . (٥) راجع جـ ٧ ص ٣٤٢ . (٦) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ .
(٧) راجع جـ ٦ ص ٤١١ . (٨) راجع جـ ٤ ص ١٧٣ . (٩) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٦ فما بعد .

على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بَدْر ، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب وأبى مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم . وفى صحيح مسلم عن عبد الله : وقد مضت البطشة والدخان واللزام . وسيأتى مبينا فى سورة « الدخان »(١) إن شاء الله تعالى . وقالت فرقة : هو توعد بعذاب الآخرة . وعن ابن مسعود أيضا : اللزام التكذيب نفسه ؛ أى لا يعطون التوبة منه ؛ ذكره الزهراوى ؛ فدخل فى هذا يوم بَدْر وغيره من العذاب الذى يُلْزَمونه . وقال أبو عبيدة : لزاما فيصلا أى فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين . والجمهور من القراء على كسر اللام ؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فإما يَنْجُوَا من خَسْف أرضٍ * فقد لَقِيا حُتُوفَهما لِزاما

ولزاما وملازمة واحد . وقال الطبرى : « لِزَامًا » يعنى عذابا دائما لازما ، وهلاكا مفنيا يلحق بعضكم ببعض ؛ كقول أبى ذؤيب :

ففاجأه بعاديةٍ لِزامٍ(٢) * كما يَتَفَجَّرُ الحوضُ اللَّقِيفُ

يعنى باللزام الذى يتبع بعضه بعضا ، وباللقيف المتساقط الحجارة المتهدم . النحاس : وحكى أبو حاتم عن أبى زيد قال سمعت قَعْنبا أبا السَّمَّال يقرأ : « لَزَاما » بفتح اللام . قال أبو جعفر : يكون مصدر لزِم والكسر أولى ، يكون مثل قِتال ومقاتلة ، كما أجمعوا على الكسر فى قوله عز وجل : « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى »(٣) . قال غيره : اللِّزام بالكسر مصدر لازم لِزاما مثل خاصم خصاما ، واللَّزام بالفتح مصدر لَزِم مثل سَلِم سلاما أى سلامة ؛ فاللَّزام بالفتح اللُّزوم ، واللِّزام الملازمة ، والمصدر فى القراءتين وقع موقع اسم الفاعل ، فاللزام وقع موقع ملازِم ، واللزام وقع موقع لازِم . كما قال تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا »(٤) أى غائرا . قال النحاس : وللفراء قول فى اسم يكون ؛ قال : يكون مجهولا وهذا غلط ؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة ، كما قال تعالى : « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ »(٥) . وكما حكى النحويون كان زيد منطلق [يكون فى كان مجهول(٦)] ويكون المبتدأ وخبره خبر المجهول ، والتقدير . كان الحديث ؛ فأما أن يقال كان منطلقا ، ويكون فى كان مجهول فلا يجوز عند أحد علمناه . وبالله التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٣٣ (٢) العادية . القوم يعدون على أرجلهم ؛ أى فحملتهم لزام كأنهم لزموه لا يفارقون ماهم فيه وشبه حملتهم بهدم الحوض إذا تهدم ويروى * فلم ير غير عادية لزاما * (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٦٠ (٤) [راجع] جـ ١٨ ص ٢٢٢ . (٥) راجع جـ ٩ ص ٢٥٥ فما بعد (٦) من ك .

ســـورة الشـــعراء

هى مكية فى قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدنى؛ الآية التى يذكر فيها الشعراء، وقوله : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وقال ابن عباس وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » إلى آخرها . وهى مائتان وسبع وعشرون آية . وفى رواية : ست وعشرون . وعن ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أعطيت السورة التى تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصّل نافلة " . وعن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المبين مكان الإنجيل وأعطانى الطواسين مكان الزبور وفضلنى بالحواميم والمفصل ماقرأهن نبيّ قبلى " .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿ طسٓمٓ ﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائي وخلف: بإمالة الطاء مشبعا في هذه السورة وفي أختيها . وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري : بين اللفظين؛ وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الباقون بالفتح مشبعا . قال الثعلبي : وهي كلها لغات فصيحة . وقد مضى في « طه »[1] قول النحاس في هذا . قال النحاس : وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي : « طسٓمٓ » بإدغام النون في الميم، والفراء يقول بإخفاء النون . وقرأ الأعمش : وحمزة: « طسين ميم » بإظهار النون . قال النحاس: للنون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه : يبيّنان عند حروف الحلق، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء، ويقلبان ميما عند الباء ويكونان من الخياشيم؛ أي لا يبينان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف الحلق فتبيّن النون عنده، ولكن في ذلك وُجَيْه : وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها ، فإذا وقف عليها تبينت النون . قال الثعلبي : الإدغام آختيار أبي عبيد وأبي حاتم قياسا على كل القرآن، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم . قال النحاس : وحكى أبو إسحق في كتابه « فيما يجرى وفيما لا يجرى » أنه يجوز أن يقال : « طسينَ ميمُ » بفتح النون وضم الميم، كما يقال هذا معدى كربُ . وقال أبو حاتم : قرأ خالد : « طسينَ ميمُ » . آبن عباس: « طسم » قَسَم وهو آسم من أسماء الله تعالى، والمقسم عليه : « إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً » . وقال قتادة : آسم من أسماء القرآن أقسم الله به. مجاهد : هو آسم السورة ؛ ويحسن افتتاح السورة . الربيع : حساب مدّة قوم . وقيل : قارعة تحل بقوم . « طسٓمٓ » و « طسٓ » واحد . قال[2] :

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ * بأن تُسْعِدَا والدَّمعُ أَشْفَاه ساجِمُهْ

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٨ .

(٢) هو المتنبي ؛ والبيت مطلع قصيدة له مدح بها أبا الحسن على آبن عبد الله العدوي . وأشجاه : أحزنه . والطاسم : الدارس . والساجم : السائل . والمعنى: طلب وفاء هما بالإسعاد وهو الإعانة على البكاء والموافقة ، ولذلك قال : (والدمع أشفاه ساجمه) والمعنى ابكيا معي بدمع في غاية السجوم فهو أشفى للوجد ، فإن الربع في غاية الطسوم وهو أشجى للحب . وأراد بالوفاء هنا البكاء لأنهما عاهداه على الإسعاد . « شرح التبيان جـ ٢ للعكبري » .

وقال القرظى : أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه . وقال عبد الله بن محمد بن عَقِيل : الطاء طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة . وقال جعفر بن محمد بن علىّ : الطاء شجرة طوبى، والسين سِـدرة المنتهى، والميم محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الطاء من الطاهر والسين من القدوس — وقيل : من السميع وقيل : من السلام — والميم من المجيد . وقيل : من الرحيم . وقيل: من الملك . وقد مضى هذا المعنى فى أول سورة « البقرة »[1] . والطَّوَاسِيمُ والطَّواسِينُ سور فى القرآن جُمعت على غير قياس . وأنشد أبو عبيدة :

وبالطَّواسِيم التى قد ثُلِّثت ✻ وبالحوامِيم التى قـد سُبِّعت

قال الجوهرى : والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد، فيقال : ذواتُ طسم وذواتُ حـم .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ رفع على إضمار مبتدإ أى هـذه « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » التى كنتم وعدتم بها ؛ لأنهم قـد وعدوا فى التوراة والإنجيل بإنزال القرآن . وقيل : « تِلْكَ » بمعنى هذه . ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ أى قاتل نفسك ومهلكها . وقد مضى فى « الكهف »[2] بيانه . ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى لتركهم الإيمان . قال الفراء : « أن » فى موضع نصب؛ لأنها جزاء . قال النحاس : وإنما يقال : بإن مكسورة لأنها جزاء ؛ كذا المتعارف . والقول فى هـذا ما قاله أبو إسحق فى كتابه فى القرآن ؛ قال : « أَنْ » فى موضع نصب مفعول من أجله ؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان . ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ أى معجزة ظاهرة وقـدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية ؛ ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية . وقال أبو حمزة الثُّمالىّ فى هذه الآية : [بلغنى أن لهذه الآية[3]] صوتا يسمع من السماء فى النصف من شهر رمضان؛ تخرج به العواتق من البيوت وتضج له الأرض . وهذا فيه بعدٌ؛ لأن المراد قريش لا غيرهم . ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ أى فتظل أعناقهم ﴿ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ قال مجاهد : أعناقهم كبراؤهم؛ وقال النحاس : ومعروف فى اللغة؛ يقال: جاءنى عُنُق من الناس أى رؤساء منهم . أبو زيد والأخفش : «أَعْنَاقُهُمْ» جماعاتهم؛

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٨ . (٣) من ز و ك

يقال : جاءنى عُنُق من الناس أى جماعة . وقيل : إنما أراد أصحاب الأعناق، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . قتادة : المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوى أحد منهم عنقه إلى معصية . ابن عباس : نزلت فينا وفى بنى أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذلّ لنا أعناقهم بعد معاوية ؛ ذكره الثعلبي والغزنوى [فالله أعلم[1]] . وخاضعين وخاضعة هنا سواء؛ قاله عيسى بن عمر واختاره المبرد . والمعنى: إنهم إذا ذلّت رقابهم ذلّوا؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها . ويسوغ فى كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثانى ؛ قال الراجز :

طولُ الليالى أسرعتْ فى نَقْضى * طَوَيْنَ طُولِي وطَوَيْنَ عَرْضِى

فأخبر عن الليالى وترك الطول . وقال جرير[2] :

أرَى مَرَّ السنين أَخَذْنَ مِنّى * كما أَخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ

وإنما جاز ذلك لأنه لو أسقط مرّ وطول من الكلام لم يفسد معناه ، فكذلك رد الفعل إلى الكناية فى قوله : « فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ » لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدّى ما بقى من الكلام عنه حتى يقول : فظلوا لها خاضعين . وعلى هذا اعتمد الفراء وأبو عبيدة . والكسائى يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم، وهذا خطأ عند البصريين والفراء . ومثل هذا الحذف لا يقع فى شيء من الكلام؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ تقدّم فى « الأنبياء[3] » . ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ أى أعرضوا ومن أعرض عن شيء ولم يقبله فهو تكذيب له . ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وعيد لهم ؛ أى فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذى استهزءوا به .

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ نبه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذى يستحق أن يُعبد ؛ إذ هو القادر على كل شيء . والزوج هو اللون ؛ قاله الفراء . و « كَرِيم » حسن شريف، وأصل

(١) من ز و ك . (٢) تقدم البيت فى جـ ٧ ص ٢٦٤ . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٦٨ فما بعد

الكرم فى اللغة الشرف والفضل، فنخلة كريمة أى فاضلة كثيرة الثمر[1]، ورجل كريم شريف فاضل صفوح . ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى . وقد تقدّم فى سورة « البقرة »[2] والله سبحانه هو المخرج[3] والمنبت له . وروى عن الشعبي أنه قال : الناس من نبات الأرض فن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار إلى النـار فهو لئيم . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى فيما ذكر من الإنبات فى الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى مصدقين لـما سبق من علمى فيهـم . و « كَانَ » هنا صـلة فى قول سيبويه ؛ تقديره : وما أكثرهم مؤمنين . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليـائه .

قوله تعـالى : وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ « إِذْ » فى موضع نصب ؛ المعنى: واتل عليهم « إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ » ويدلّ على هذا أنّ بعده. «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ» ذكره النحاس. وقيل : المعنى؛ واذكر إذ نادى كما صرح به فى قوله : « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ »[4] وقوله : « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ »[5] وقوله : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ »[6] . وقيل : المعنى ؛ « وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ » كان كذا وكذا . والنداء الدعاء بيافلان، أى قال ربك يا موسى : ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم أخبر من هم فقـال ، ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ فـ « قَـومَ » بدل ؛ ومعنى « أَلَا يَتَّقُونَ » ألا يخافون عقاب الله ؟ وقيل : هـذا من الإيمـاء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتى القوم الظالمين، ودلّ قوله : « يَتَّقُونَ » على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى . وقيل : المعنى؛ قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب، ولو جاء بالتاء

(١) فى ز و ك : كثيرة التثمير . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٢٧ فـا بعد . (٣) فى ك المخرج للنبات .
(٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٣ . (٥) راجع جـ ١٥ ص ٢١٧ (٦) راجع جـ ١١ ص ٨٩ فـا بعد .

لحاز . ومثله « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ »[1] بالتاء والياء . وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم « أَلَا تَتَّقُونَ » بتاءين أى قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » . ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ أى قال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ أى فى الرسالة والنبوة . ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ لتكذيبهم إياى . وقراءة العامة « وَيَضِيقُ » « وَلَا يَنْطَلِقُ » بالرفع على الاستئناف . وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة : « وَيَضِيقَ — وَلَا يَنْطَلِقَ » بالنصب فيهما ردّا على قوله : « أَنْ يُكَذِّبُونِ » قال الكسائى : القراءة بالرفع ؛ يعنى فى « يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » [من وجهين : أحدهما الابتداء والآخر بمعنى وإنى يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى[2]] يعنى نسقا على « إِنِّي أَخَافُ » . قال الفراء : ويقرأ بالنصب . حكى ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى ابن عمر وكلاهما له وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ؛ لأن النصب عطف على « يُكَذِّبُونِ » وهذا بعيد يدلّ على ذلك قوله عز وجل : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي » فهذا يدلّ على أن هذه كذا . ومعنى ، « وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » فى المحاجة على ما أحب ؛ وكان فى لسانه عُقْدة على ماتقدّم فى « طه »[3] . ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحى ، واجعله رسولا معى ليؤازرنى ويظاهرنى ويعاوننى . ولم يذكر هنا ليعيننى؛ لأن المعنى كان معلوما، وقد صرح به فى سورة « طه » : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا » وفى القصص : « أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي »[4] وكأن موسى أذن له فى هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه . ففى هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ، ويخاف من نفسه تقصيرا ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يلحقه فى ذلك لوم .

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ الذنب هنا قتل القبطى واسمه فاثور على ما يأتى فى « القصص »[4] بيانه، وقد مضى فى « طه » ذكره . وخاف موسى أن يقتلوه به ، ودلّ على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو ؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أى كلا لن يقتلوك . فهو ردع وزجر عن هذا الظن ، وأمر بالثقة بالله تعالى؛ أى ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم ؛ فإنهم لا يقدرون على قتلك ،

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤ .
(٢) من ك .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٩٢
(٤) راجع ص ٢٨٤ وص ٢٥٩ من هذا الجزء .

ولا يقوون عليه . ﴿ فَٱذْهَبَا ﴾ أى أنت وأخوك فقد جعلته رسولا معك . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى ببراهيننا و بالمعجزات . وقيل : أى مع آياتنا . ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى . ﴿ مُسْتَمِعُونَ ﴾ أى سامعون ما يقولون وما يجاوبون . وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وأنه يعينهما ويحفظهما . والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يوصف البارى سبحانه بذلك . وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير . وقال فى «طه» (١) : « أَسْمَعُ وَأَرَى » وقال : «مَعَكُمْ» فأجراهما مجرى الجمع ؛ لأن الاثنين جماعة . ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلا إليه . ويجوز أن يكون لجميع بنى إسرائيل .

قوله تعالى : فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال أبو عبيدة : رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا ؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين . قال الهذلى :

أَلِكْنِي إليها وخَيرُ الرَّسُو　＊　لِ أَعْلَمُهُمْ بنَوَاحِى الخَبَرَ

الكنى إليها معناه أرسلنى . وقال آخر (٢) :

لقد كَذَبَ الواشون ما بُحتُ عندهم　＊　بِسِرٍّ ولا أَرسلتُهم برسولِ

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٠١ فما بعد .　(٢) هو كثير . ويروى أيضا فى اللسان مادة « رسل » :

＊ بليلى ولا أرسلتهم برسيل ＊

آخر[1] : ألا أَبلِغْ بنى عمرو رسولًا * بأنى عن فُتَاحَتِكُمْ[1] غنى

وقال العباس بن مرداس :

ألَا مَن مُبلِغٌ عنّى خُفَافَا * رسولًا بيتُ أهلِك مُنْتَهاها

يعنى رسالة فلذلك أنثها . قال أبو عبيد : ويجوز أن يكون الرسول فى معنى الاثنين والجمع؛ فتقول العرب : هذا رسولى ووكيلى ، وهذان رسولى ووكيلى، وهؤلاء رسولى ووكيلى . ومنه قوله تعالى : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » . وقيل : معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين . ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم ؛ وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة ، وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا . فانطلقا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة فى الدخول عليه ، فدخل البوّاب على فرعون فقال : ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين . فقال فرعون : آيذن له لعلنا نضحك منه؛ فدخلا عليه وأديا الرسالة . وروى وهب وغيره : أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعا من أسد ونمور وفهود يتفرج عليها، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهرون، فأسرعوا إليها، وأسرعت السباع إلى موسى وهرون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتبصبص إليهما بأذنابها، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال : ما أنتما ؟ قالا : « إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فعرف موسى لأنه نشأ فى بيته ؛ فـ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ على جهة المنّ عليه والاحتقار . أى ربيناك صغيرا ولم نقتلك فى جملة من قتلنا ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ فمتى كان هذا الذى تدعيه . ثم قرره بقتل القبطى بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ والفَعْلة بفتح الفاء المرة من الفعل . وقرأ الشعبي : « فِعلتك » بكسر الفاء والفتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أى فعلتك التى تعرف فكيف تدعى مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك . وقال الشاعر :

كأنّ مِشيتَها مِن بيت جارتِها * مرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

---

(١) هو الأسعر الجعفىّ . عن فتاحتكم : أى عن حكمكم .

ويقال : كان ذلك أيام الرِّدة والرَّدة . ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ قال الضحاك : أى فى قتلك القبطى إذ هـو نفس لا يحل قتـله . وقيل : أى بنعمتى التى كانت لنـا عليك من التربية والإحسان إليك ؛ قاله ٱبن زيد . الحسن : « مِنَ الْكَافِرِينَ » فى أنى إلهك . السّدى : « مِنَ الْكَافِرِينَ » بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى تعيبه . وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبيّـا أحد عشر عاما غير أشهر . فـ ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾ أى فعلت تلك الفعلة يريد قتـل القبطى ﴿ وَأَنَا ﴾ إذ ذاك ﴿ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى من الجاهلين ؛ فنفى عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل . وكذا قال مجاهد؛ « مِنَ الضَّالِّينَ » من الجاهلين . ابن زيد : من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتـل . وفى مصحف عبد الله « مِنَ الجاهِلِين » ويقال لمن جهل شيئا ضل عنـه . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » من الناسين ؛ قاله أبو عبيدة . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » عن النبوّة ولم يأتنى عن الله فيه شيء ، فليس علىّ فيما فعلته فى تلك الحالة توبيخ . وبيّن بهـذا أن التربية فيهم لا تنافى النبوّة والحلم على الناس ، وأن القتل خطأ أو فى وقت لم يكن فيه شرع لا ينافى النبوّة .

قوله تعـالى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أى خرجت من بينكم إلى مَدْين كما فى سورة « القصص » : « فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ »(١) وذلك حين القتل . ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ يعنى النبوّة؛ عن السّدى وغيره . الزجاج : تعليم التوراة التى فيها حكم الله . وقيل : علما وفهما . ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ٱختلف الناس فى معنى هذا الكلام ؛ فقال السّدى والطّبرى والفراء : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ؛ كأنه يقول : نعم ؟ وتربيتك نعمة علىّ من حيث عبّدت غيرى وتركتنى ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتى . وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار؛ أى أتمنّ علىّ بأن ربيتنى وليدا وأنت قد ٱستعبدت بنى إسرائيل وقتلتهم ؟ ! أى ليست بنعمة ؟ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهـم قومى ؛ فكيف تذكر إحسانك إلىّ على

(١) راجع جـ ص ٢٦٥ من هذا الجزء

الخصوص ؟ ! قال معناه قتاده وغيره . وقيل : فيه تقدير آستفهام ؛ أى أو تلك نعمة ؟ قاله الأخفش والفراء أيضا وأنكره النحاس وغيره . قال النحاس . وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى ، وحذفها محال إلا أن يكون فى الكلام أم ؛ كما قال الشاعر :

* تَرُوحُ من الحىّ أم تَبْتَكِر *

ولا أعلم بين النحويين آختلافا فى هذا إلا شيئا قاله الفراء . قال : يجوز حذف ألف الآستفهام فى أفعال الشك ، وحكى تُرَى زيدا منطلقا ؟ بمعنى أُتُرى . وكان على بن سليمان يقول فى هذا : إنما أخذه من ألفاظ العامة . قال الثعلبىّ : قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة؟ على طريق الآستفهام؛ كقوله : «هَذَا رَبِّى»(1) «فَهُمُ الخَالِدُونَ» . قال الشاعر(2) :

رَفَوْنِى وقالوا يا خُوَيلِدُ لا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

وأنشد الغزنوى شاهدا على ترك الألف قولهم :

لم أنس يوم الرحيل وقفتَها * وجفنها من دموعها شَرِقُ
وقولَها والركابُ واقفةٌ * تَركتنى هكذا ونَنطلقُ

قلت : ففى هذا حذف ألف الآستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس . وقال الضحاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون بآستفهام وبغير آستفهام ؛ والمعنى : لو لم تقتل بنى إسرائيل لربانى أبواى؛ فأى نعمة لك علىّ! فأنت تمنّ علىّ بما لا يجب أن تمنّ به . وقيل : معناه كيف تمنّ بالتربية وقد أهنت قومى ؟ ومن أهين قومه ذل . و «أَنْ عَبَّدْتَ» فى موضع رفع على البدل من « نِعْمة » ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى : لأن عبدت بنى إسرائيل ؛ أى آتخذتهم عبيدا . يقال : عبدته وأعبدته بمعنى ؛ قاله الفراء وأنشد :

عَلَامَ يُعبِدُنِى قومى وقد كَثُرَت * فيهم أَبَاعِرُ ما شاءوا وعِبْدانُ

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٥ . (2) هو أبو خراش الهذلى ؛ وقد تقدم شرح البيت فى جـ ١١ ص ٢٨٧ .

قوله تعالى : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى فى قوله : رسول رب العالمين ؛ فاستفهمه آستفهاما عن مجهول من الأشياء . قال مكىّ وغيره : كما يستفهم عن الأجناس فلذلك آستفهم بـ« ما » . قال مكى : وقد ورد له آستفهام بـ « من » فى موضع آخر ويشبه أنها مواطن ؛ فأتى موسى بالصفات الدالّة على الله من مخلوقاته التى لا يشاركه فيها مخلوق ، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى ؛ لأن الأجناس محدثة ، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التى تبيّن للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها . فقال فرعون : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك . فزاد موسى فى البيان بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه ؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغيِّر ، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا ، وأنهم لا بد لهم من مكوِّن . فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى ليس يجيبنى عما أسأل ؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أن ليس ملكه كملكك ؛ لأنك إنما تملك بلدا واحدا لا يجوز أمرك فى غيره ، ويموت من لا تحب أن يموت ، والذى أرسلنى يملك المشرق والمغرب ؛ ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : علم موسى عليه السلام أن قصده فى السؤال معرفة من سأل عنه ، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم . ثم لما آنقطع فرعون لعنه الله فى باب الحجة رجع إلى الآستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن ، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك ؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمّ إلها غيره . وفى توعده بالسجن ضعف . وكان فيما يروى

أنه يفزع منه فزعا شديدا حتى كان اللعين لا يمسك بوله . وروى أن سجنه كان أشد من القتل. وكان إذا سجن أحدا لم يخرجه من سجنه حتى يموت ، فكان مَخُوفا . ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعُّد فرعون ﴿ قَالَ ﴾ له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ فيتضح لك به صدقي ، فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة ﴿ فَقَالَ ﴾ له ﴿ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سيبويه ؛ لأن ما تقدّم يكفي منه . ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ﴾ من يده فكان ما أخبر الله من قصته . وقد تقدّم بيان ذلك وشرحه في « الأعراف »[1] إلى آخر القصة . وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا ؛ أي إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين. وهذا يدلّ على شدّة استبصارهم وقوّة إيمانهم . قال مالك : دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام ، وأن السحرة آمنوا به في يوم واحد . يقال : لا ضَيْرَ ولا ضَوْر ولا ضَرّ ولا ضَرَرَ ولا ضارُورة بمعنى واحد ؛ قاله الهروي . وأنشد أبو عبيدة[2] :

فإنكَ لا يَضُورُكَ بعدَ حَوْلٍ * أظبيٌّ كان أُمَّكَ أم حِمَارُ

وقال الجوهري : ضارَه يَضُوره ويضيره ضَيْرا وضَوْرا أي ضرّه . قال الكسائي : سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يَضُورني . والتّضور الصياح والتلوى عند الضرب أو الجوع . والضُّورَة بالضم الرجل الحقير الصغير الشأن . ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ يريد نتقلب إلى رب كريم رحيم ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . « أَنْ » في موضع نصب أي لأن كنا . وأجاز الفراء كسرها على أن تكون مجازاة . ومعنى : ﴿ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون . الفراء : أول مؤمني زماننا . وأنكره الزجاج وقال : قد روى أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفا ، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ » روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٦ فما بعد . (٢) البيت لخداش بن زهير ، واستشهد به سيبويه في كتابه على جعل اسم كان نكرة وخبرها معرفة ضرورة . والمعنى : لا تبالي بعد قيامك بنفسك واستغنائك عن أبويك من انتسبت إليه من شريف أو وضيع ، وضرب المثل بالظبي أو الحمار .

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ لما كان من سنته تعالى فى عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، و إهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه ، أمر موسى أن يخرج ببنى اسرائيل ليلا وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى . ومعنى : « إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ » أى يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم . وفى ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛ فخرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل سَحَرا، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بنى إسرائيل يقول له فى ترك الطريق فيقول : هكذا أمرت . فلما أصبح فرعون وعلم بُسَرى موسى ببنى إسرائيل، خرج فى أثرهم، و بعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروى أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان . وروى أن بنى إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا . والله أعلم بصحته . وإنما اللازم من الآية الذى يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من

بنى إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك . قال آبن عباس : كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل . والشِّرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشَّراذم . قال الجوهرى : الشِّرذمة الطائفة من النـاس والقطعة من الشيء . وثوب شراذم أى قطع . وأنشد الثعلبي قول الراجـز :

جاء الشتـاءُ وثيَـابى أَخْلاقْ * شَراذِمٌ يَضحكُ منها النَّوَّاقْ

النَّوَّاق من الرجال الذى يروض الأمـور ويصلحها[1] ؛ قاله فى الصحاح . واللام فى قوله : « لَشِرْذِمَةٌ » لام توكيـد وكثيرا ما تدخل فى خبر إن ، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيدا لسوف يقوم . والدليل على أنه جائز قوله تعـالى : « فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وهـذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف ؛ قاله النحاس . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَـا لَغَائِظُونَ ﴾ أى أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التى آستعاروها على ما تقـدم . وماتت أبكارهم تلك الليلة . وقد مضى هذا فى « الأعراف[2] » و « طه[3] » مستوفى . يقال : غاظنى كذا وأغاظنى . والغيظ الغضب ومنه التغيظ والآغتياظ . أى غاظونا بخروجهم من غير إذن . ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴾ أى مجتمع [مستعد][4] أخذنا حذرنا وأسلحتنا . وقرئ : « حَاذِرُونَ » ومعناه معنى « حَذِرُونَ » أى فرقون خائفون . قال الجوهرى : وقرئ : « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ » و « حَذِرُونَ » و « حَذُرُونَ » بضم الذال حكاه الأخفش؛ ومعنى : « حَاذِرُونَ » متأهبون، ومعنى : «حَذِرُونَ » خائفون . قال النحاس : « حَذِرُونَ » قراءة المدنيين وأبى عمرو ، وقراءة أهل الكوفة : « حَاذِرُونَ » وهى معروفة عن عبد الله بن مسعود وآبن عباس ؛ و « حَادِرُونَ » بالدال غير المعجمة قراءة أبى عبّاد وحكاها المهـدوى عن ابن أبى عمار ، والمـاوردى والثعلبى عن سُمَيْط بن عجلان . قال النحاس : أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى « حَذِرُونَ » « وحَاذِرُونَ » واحد . وهو قول سيبويه وأجاز : هو حَذِرٌ زيدا ؛ كما يقال : حاذر زيدا ، وأنشد :

حَذِرٌ أُمورًا لا تَضِيرُ وآمِنٌ * ماليس مُنْجِيَهُ من الأقدارِ

(١) ويقال هو آسم آبنه . ويروى (التواق) بالتاء .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٢٧ فما بعد .
(٤) من ز و ك .

وزعم أبو عمر الجَرْمىّ أنه يجوز هو حذِرٌ زيدا على حذف مِن . فأما أكثر النحويين فيفرقون بين حذِر وحاذر ؛ منهم الكسائى والفراء ومحمد بن يزيد ؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر فى خلقته الحذر ، أى متيقظ متنبه ، فإذا كان هكذا لم يتعدّ ، ومعنى حاذر مستعدّ وبهذا جاء التفسير عن المتقدمين . قال عبد الله بن مسعود فى قول الله عز وجل : « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ » قال : مُؤْدون فى السلاح والكُرَاع مُقْوون، فهذا ذاك بعينه . وقوله : مُؤْدون معهم أداة . وقد قيل : إن المعنى : معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال ؛ فأما « حادِرون » بالدال المهملة فمشتق من قولهم عين حَدْرة أى ممتلئة ؛ أى نحن ممتلئون غيظا عليهم ؛ ومنه قول الشاعر(١) :

وعينٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ * شُقّتْ مآقيهمَا مِنْ أُخُرْ

وحكى أهل اللغة أنه يقال : رجل حادِرٌ إذا كان ممتلئ اللحم ؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح . المهدوى : الحادر القوىّ الشديد .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يعنى من أرض مصر . وعن عبد الله ابن عمرو قال : كانت الجنات بحافتى النيل فى الشّقتين جميعا من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . والنيل سبعة خلجان : خليج الإسكندرية، وخليج سَخَا ، وخليج دمياط ، وخليج سَرْدُوس ، وخليج مَنْف ، وخليج الفيوم ، وخليج المَنْهى(٢) متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، والزروع ما بين الخلجان كلها . وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا بما دبّروا وقدّروا من قناطرها وجسورها وخلجانها؛ ولذلك سمى النيل إذا غلق ستة عشر ذراعا نيل السلطان ، ويُخلَع على ابن أبى الرّدّاد(٣) ؛ وهذه الحال مستمرة إلى الآن . وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخراج على الناس . وكانت أرض مصر جميعها تروى

(١) هو امرؤ القيس . (٢) وهو بحر يوسف عليه السلام . (٣) هو عبد الله بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبى الرّدّاد المؤذن ؛ قدم مصر من البصرة وحدّث بها ، وجعل على قياس النيل فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى — وكانت النصارى تتولى قياسه — وأجرى عليه سبعة دنانير فى كل شهر ، واستقر قياسه فى بنيه زمانا طويلا . وتوفى أبو الرّدّاد سنة ٢٦٦ هـ . عن خطط المقريزى جـ ١ ص ٥٨

من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعا ، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعا ونودى عليه إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعا ، آزداد فى خراجها ألف ألف دينار . فإذا خرج عن ذلك ونودى عليه إصبعا واحدا من تسعة عشر ذراعا نقص خراجها ألف ألف دينار . وسبب هذا ما كان ينصرف فى المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها . فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى إصبع من تسعة عشر ذراعا بمقياس مصر . وأما أعمال الصعيد الأعلى، فإن بها ما لا يتكامل رِيّه إلا بعد دخول المـاء فى الذراع الثانى والعشرين بالصعيد الأعلى.

قلت : أما أرض مصر فلا تروى جميعهـا الآن إلا من عشرين ذراعا وأصابع ؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها ، وهو من عجائب الدنيا ؛ وذلك أنه يزيد إذا آنصبت الميـاه فى جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر ، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصـل إليها إلا بالمراكب والقياسات . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سيد الأنهـار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، وذلل الله له الأنهار ؛ فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده ، فأمدته الأنهار بمائها ، وفجّر الله له عيونا ، فإذا آنتهى إلى ما أراد الله عز وجل ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره . وقال قيس بن الحجاج : لمـا افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمـرو بن العاص حين دخل بشـونة من أشهر القبط فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ فقالوا : إذا كان لأثنتى عشرة ليـلة تخلو من هـذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكر بين أبويها ؛ أرضينا أبويها ، وحملنا عليها من الحلىّ والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل ؛ فقال لهم عمرو : هـذا لا يكون فى الإسلام ؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبـله . فأقاموا أبيب ومسرى لا يجرى قليل ولا كثير، وهموا بالجلاء . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فأعلمه بالقصة، فكتب إليه عمر بن الخطاب : إنك قد أصبت بالذى فعلت ، وإن الإسلام يهـدم ما قبله ولا يكون هـذا . وبعث إليـه ببطاقة فى داخل كتابه . وكتب إلى عمرو : إنى قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى، فألقها فى النيل

إذا أتاك كتابي . فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر — أما بعد — فإن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . قال : فألقى البطاقة فى النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل . فلما ألقى البطاقة فى النيل ، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله فى ليلة واحدة ستة عشر ذراعا ، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة . قال كعب الأحبار : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله فى الدنيا سَيْحان وجَيْحان والنيل والفرات ، فسيحان نهر الماء فى الجنة ، وجيحان نهر اللبن فى الجنة ، والنيل نهر العسل فى الجنة ، والفرات نهر الخمر فى الجنة . وقال ابن لَهِيعَة : الدجلة نهر اللبن فى الجنة .

قلت : الذى فى الصحيح من هذا حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة" لفظ مسلم » وفى حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعة رجل من قومه قال : "وحدّث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ياجبريل ماهذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات" لفظ مسلم . وقال البخارى من طريق شَريك عن أنس "فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يَطَّرِدان[1] فقال ماهذان النهران ياجبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا ياجبريل فقال هذا هو الكوثر الذى خبأ لك ربُّك . " وذكر الحديث . والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء . وقال سعيد بن جبير : المراد عيون الذهب . وفى الدخان « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ[2] » . قيل : إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوّل مصر إلى آخرها . وليس فى الدخان « وكنوز » . « وكنوز » جمع كنز ؛ وقد مضى هذا

(١) يطردان : أى يجريان ، وهما يفتعلان من الطرد . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٣٨ .

فى سورة « براءة »[1] . والمراد بها ها هنا الخزائن . وقيل : الدفائن . وقال الضحاك : الأنهار ؛ وفيه نظر ؛ لأن العيون تشملها . ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد : المقام الكريم المنابر ، وكانت ألف منبر لألف جبّار يُعظّمون عليها فرعون وملكه . وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء ، حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول . وقال سعيد بن جبير : المساكن الحسان . وقال ابن لهيعة : سمعت أن المقام الكريم الفيوم . وقيل : كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسماها الله كريمة بهـذا . وقيل : مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدّة وزينة ؛ فصار مقامها أكرم منزل بهـذا ؛ ذكره المـاوردى . والأظهر أنهـا المساكن الحسان كانت تكرم عليهم . والمقام فى اللغة يكون الموضع ويكون مصدرا . قال النحاس : المقام فى اللغة الموضع ؛ من قولك قام يقوم ، وكذا المقامات واحدها مقامة ؛ كما قال[2] :

وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم * وأنديةٌ ينتـابُها القـولُ والفعلُ

والمقام أيضا المصدر من قام يقوم . والمقام (بالضم) الموضع من أقام . والمصدر أيضا من أقام يقـيم .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنـات والعيون والكنوز والمقـام الكريم أورثه الله بنى إسرائيـل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلىّ آل فرعون بأمر الله تعالى .

قلت : وكلا الأمرين حصل لهم . والحمد لله . ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى فتبع فرعون وقومه بنى إسرائيـل . قال السدى : حين أشرقت الشمس بالشعاع . وقال قتادة : حين أشرقت الأرض بالضياء . قال الزجاج : يقال شَرَقت الشمسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . وآختلف فى تأخر فرعون وقومه عن موسى وبنى إسرائيل على قولين : أحدهما —

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ . (٢) هو زهير بن أبى سلمى ؛ و ينتابها : أى يقال فيها الجميل و يفعل به .

لاشتغالهم بدفن أبكارهم فى تلك الليلة ؛ لأن الوباء فى تلك الليلة وقع فيهم ؛ فقوله « مُشْرِقِينَ » حال لقوم فرعون . الثانى — إن سحابة أظلتهم وظُلْمة فقالوا : نحن بعد فى الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا . وقال أبو عبيدة : معنى « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ناحية المشرق . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون : « فَاتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ » بالتشديد وألف الوصل ؛ أى نحو المشرق ؛ مأخوذ من قولهم : شرّق وغرّب إذا سار نحو المشرق والمغرب . ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فاتبع قوم فرعون بنى إسرائيل مشرّقين فهلكوا ، وورث بنو إسرائيل بلادهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾[1] أى تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه ، وهو تفاعل من الرؤية . ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أى قرب منا العدو ولا طاقة لنا به . وقراءة الجماعة « لَمُدْرَكُونَ » بالتخفيف من أدرك . ومنه : « حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ »[2] . وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهرى : « لَمُدَّرَكُونَ »[3] بتشديد الدال من آدّرك . قال الفراء : حفر واحتفر بمعنى واحد ، وكذلك « لَمُدْرَكُونَ » و « لَمُدَّرَكُونَ » بمعنى واحد . النحاس : وليس كذلك يقول النحويون الحذّاق ؛ إنما يقولون : مُدْرَكون ملحقون ، ومدّركون مجتهد فى لحاقهم ، كما يقال : كسبت بمعنى أصبت وظفرت ، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمعَ موسى وقرب منهم ، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القوىّ والبحر أمامهم ساءت ظنونهم ، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » فردّ عليهم قولهم وزَجَرهم وذكّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر « كَلَّا » أى لم يدركوكم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي » أى بالنصر على العدوّ . « سَيَهْدِينِ » أى سيدلّنى على طريق النجاة ؛ فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل ، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها ، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه ؛ وذلك أنه

---

(١) كذا فى الأصول . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٧٧ . (٣) وكسر الراء — كما فى البحر وروح المعانى والكشاف . على وزن مفتعلون ، وهو لازم بمعنى الفناء والاضمحلال ، من ادّرك الشىء إذا تتابع ففنى .

عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله ؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه . وقد مضى فى « البقرة »[1] قصة هذا البحر . ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بنى إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالطود العظيم ، أى الجبل العظيم . والطود الجبل ؛ ومنه قول امرئ القيس :

فبينا المرءُ فى الأحياءِ طَوْدٌ * رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فمالا

وقال الأسود بن يَعْفُر :

حَلُّوا بأنقرةٍ يَسيلُ عليهمُ * ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أَطْوادِ

جمع طود أى جبل . فصار لموسى وأصحابه طريقا فى البحر يَبَسًا ؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدم فى « يونس »[2] انصب عليهم وغرق فرعونُ ؛ فقال بعض أصحاب موسى : ماغرق فرعونُ ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه . وروى ابن القاسم عن مالك قال : خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالا له بم أمرك الله ؟ قال : أمرت أن أضرب البحر بعصاى هذه فينفلق ؛ فقالا له افعل ما أمرك الله فلن يخلفك ؛ ثم ألقيا أنفسهما فى البحر تصديقا له ؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه ، ثم ارتد كما كان . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾ أى قربناهم إلى البحر ؛ يعنى فرعون وقومه . قاله ابن عباس وغيره ؛ قال الشاعر :

وكُلُّ يومٍ مَضَى أو ليلةٍ سلَفَتْ * فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَزْدَلِفُ

أبو عبيدة : « أَزْلَفْنَا » جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جَمْع . وقرأ أبو عبد الله بن الحرث وأبىّ بن كعب وابن عباس : « وَأَزْلَقْنَا » بالقاف على معنى أهلكناهم ؛ من قوله : أزلقت الناقةُ وأزلقت الفرسُ فهى مُزْلِق إذا أزلقت ولدها[3] . ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ يعنى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى علامة على قدرة الله تعالى

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ فما بعد وص ٣٨٧ .   (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٧٨ .

(٣) فى ك : إذا ألقت ولدها .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لأنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون وآسمه حزقيل وآبنته آسية آمرأة فرعون ، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلّت على قبر يوسف الصديق عليه السلام . وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببنى إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا . قال موسى : فأيكم يدرى قبره ؟ قال : ما يعلمه إلا عجوز لبنى إسرائيل ؛ فأرسل إليها ؛ فقال : دلّينى على قبر يوسف ، قالت : لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمى ، قال : وما حكمك؟ قالت : حكمى أن أكون معك فى الجنة ؛ فثقل عليه ، فقيل له : أعطها حكمها ؛ فدلّتهم عليه ، فاحتفروه واستخرجوا عظامه ، فلما أقلوها ، فإذا الطريق مثل ضوء النهار فى رواية : فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل ، فأتت بهم إلى بحيرة ، فقالت لهم : أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام ؛ فتبينت لهم الطريق مثل ضوء النهار . وقد مضى فى « يوسف »(١) . وروى أبو بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بأعرابى فأكرمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حاجتك " قال : ناقة أرحلها وأعنزا أحلبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل " فقال أصحابه : وما عجوز بنى إسرائيل ؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التى آحتكمت على موسى أن تكون معه فى الجنة .

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ .

قوله تعـالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نبّه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن آعتقاد إبراهيم ودينـه وهو أبوهم . والنبأ الخبر ؛ أى آقصص عليهم يا محمد خبره وحديثـه وعيبه على قومه ما يعبدون . وإنمـا قال ذلك ملزما لهم الحجة . والجمهور من القراء على تخفيف الهمزة الثانيـة وهو أحسن الوجوه ؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم . وإن شئت حقّقتهما فقلت : « نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ » . وإن شئت خفّفتهما فقلت : « نبا إبراهيم » . وإن شئت خففت الأولى . وثَمّ وجهٌ خامس إلا أنه بعيـد فى العربيـة وهو أن يدغم الهمزة فى الهمزة كما يقال رأّاس للذى يبيع الرءوس . وإنمـا بعد لأنك تجمع بين همزتين كأنهما فى كلمة واحدة ، وحَسُن فى فَعَّال لأنه لا يأتى إلا مدغما . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أى أىّ شىء تعبدون ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب . ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أى فنقيم على عبادتهـا . وليس المراد وقتا معينا بل هو إخبار عما هم فيه . وقيل : كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ، وكانوا فى الليل يعبـدون الكواكب . فيقال : ظل يفعـل كذا إذا فعـله نهارا و بات يفعـل كذا إذا فعله ليلا . ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ قال الأخفش : فيه حذف ؛ والمعنى : هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؛ قال الشاعر[١] :

القـائد الخيـلِ منكوبًا دوابِرُهـا * قد أُحْكِمَتْ حَكَمَاتِ القِدِّ والأبَقَا

قال : والأَبَق الكَتَّان لحذف . والمعنى ؛ وأحكمت حكماتِ الأَبَق . وفى الصحاح : والأَبَق بالتحريك القِنَّب . وروى عن قتادة أنه قرأ : « هَـلْ يُسْمِعُونَكُمْ » بضم اليـاء ؛ أى هل يسمعونكم أصواتهم ﴿ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أى هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم ، أو تملك لكم خيرا أو ضرّا إن عصيتم ؟ ! وهذا آستفهام لتقرير الحجة ؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فمـا معنى عبادتكم لها . ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فنزعوا إلى التقليد

(١) هو زهير بن أبى سلمى . والبيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . وأحكمت : جعلت لها حكمات من القد . والحكمات جمع حكمة وهى ما تكون على أنف الدابة . ودوابرها : مؤخر حوافرها . ومنكوب : أى أصابت الحجارة دوابرها وأدمتهـا .

من غير حجة ولا دليل . وقد مضى القول فيه . ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ من هذه الأصنام ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ الأوّلون ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ واحد يؤدّى عن جماعة ، وكذلك يقال للرأة هي عدوّ الله وعدوّة الله ؟ حكاهما الفراء . قال على بن سليمان : من قال عدوّة الله وأثبت الهاء قال هي بمعنى معادية ، ومن قال عدوّ للؤنث والجمع جعله بمعنى النسب . ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوّ لى إن عبدتهم يوم القيامة ؛ كما قال : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا »[(١)] . وقال الفراء : هو من المقلوب ؛ مجازه فإنى عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك . ثم قال : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الكلبى : أى إلا من عبد رب العالمين ؛ إلا عابد رب العالمين ؛ فحذف المضاف . قال أبو إسحق الزجاج : قال النحويون هو آستثناء ليس من الأوّل ؛ وأجاز أبو إسحق أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله . وتأوّله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده : فإنهم لو عبدتُهم عدوّ لى يوم القيامة ؛ على ما ذكرنا . وقال الجرجانى : تقديره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لى . وإلا بمعنى دون وسوى ؛ كقوله : « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى »[(٢)] أى دون الموتة الأولى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى يرشدنى إلى الدين . ﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ أى يرزقنى . ودخول « هو » تنبيه على أن غيره لا يُطعم ولا يسق ؛ كما تقول : زيد هو الذى فعل كذا ؛ أى لم يفعله غيره . ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ قال : « مَرِضْتُ » رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعا . ونظيره قول

(١) راجع ج ١١ ص ١٤٨ . (٢) راجع ج ١٦ ص ١٥٤

فتى موسى : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ »[1] . ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب ؛ فبيّن أن الله هو الذى يميت ويحيي . وكله بغير ياء : « يهدين » « يشفين » لأن الحذف فى رءوس الآى حسن لتتفق كلها . وقرأ ٱبن أبى إسحق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء ؛ لأن الياء ٱسم وإنما دخلت النون لعلة . فإن قيل : فهذه صفة لجميع[2] الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره؟ قيل : إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة ؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها ؛ وهذا إلزام صحيح .

قلت : وتجوّز بعض أهل الإشارات فى غوامض المعانى فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم . فقال : «وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ» أى يطعمنى لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول . ولهم فى قوله : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » وجهان : أحدهما — إذا مرضت بمخالفته شفانى برحمته . الثانى — إذا مرضت بمقاساة الخلق، شفانى بمشاهدة الحق . وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفانى بالتوبة . وتأولوا قوله : « وَالَّذِى يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ » على ثلاثة أوجه : فالذى يميتنى بالمعاصى يحيينى بالطاعات . الثانى : يميتنى بالخوف يحيينى بالرجاء . الثالث : يميتنى بالطمع ويحيينى بالقناعة . وقول رابع : يميتنى بالعدل ويحيينى بالفضل . وقول خامس : يميتنى بالفراق ويحيينى بالتلاق . وقول سادس : يميتنى بالجهل ويحيينى بالعقل ؛ إلى غير ذلك مما ليس بشىء منه مراد من الآية ؛ فإن هـذه التأويلات الغامضة ، والأمور الباطنة ، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق، وأما من كان فى عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة، وتترك الأمور الظاهرة؟ هذا محال . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ « أَطْمَعُ » أى أرجو . وقيل : هو بمعنى اليقين فى حقه ، وبمعنى الرجاء فى حق المؤمنين سواه . وقرأ الحسن وابن أبى إسحق : « خَطَايَايَ » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال النحاس : خطيئة بمعنى

(١) راجع جـ ١١ ص ١٣ .　　(٢) كذا فى الأصول .

خطايا معروف فى كلام العرب ، وقد أجمعوا على التوحيد فى قوله عز وجل « فَٱعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ »[(١)] ومعناه بذنوبهم . وكذا « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ »[(٢)] معناه الصلوات ، وكذا « خَطِيئَتِي » إن كانت خطايا . والله أعلم . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا »[(٣)] وقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ »[(٤)] وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب : « هَذَا رَبِّي » وقد مضى بيان هـذا مستوفى[(٥)] . وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها . ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم . وهـذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له . وفى صحيح مسلم عن عائشة ؛ قلت يا رسول الله : ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه؟ قال : " لا ينفعه إنه لم يقل يوما « رَبِّ ٱغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » " .

قوله تعالى : رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ « حُكْمًا » معرفة بك وبحدودك وأحكامك ؛ قاله ٱبن عباس . وقال مقاتل : فهما وعلما ؛ وهو راجع إلى الأول . وقال الكلبي : نبوّة ورسالة إلى الخلق . « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى بالنبيين من قبلى فى الدرجة . وقال ٱبن عباس : بأهل الجنة ؛ وهو تأكيد قوله : « هَبْ لِي حُكْمًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ قال ٱبن عباس : هو ٱجتماع الأمم عليه . وقال مجاهد : هو الثناء الحسن . قال ٱبن عطية : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين ؛ وكذلك أجاب الله دعوته ، وكل أمة تتمسك به وتعظمه ، وهو على الحنيفية التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مكى : وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته فى آخر الزمان

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٣ . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٤٢ فما بعد . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٩٩ فما بعد (٤) راجع جـ ١٥ ص ٩٢ (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٥ فما بعد .

من يقوم بالحق ؛ فأجيبت الدعوة في محمد صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عطية : وهذا معنى حسن إلا أن لفظ[1] الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ . وقال القشيري : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد .

قلت : وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات . والصلاة دعاء بالرحمة : والمراد باللسان القول، وأصله جارحة الكلام . قال القتبي : وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة . قال الأعشى :

إنِّي أتَتْنِي لسانٌ لا أُسَرُّ بِها * مِن عَلْوُ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

قال الجوهري : يروى من علو بضم الواو وفتحها وكسرها . أي أتاني خبر من أعلى، والتأنيث للكلمة . وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر . روى أشهب عن مالك قال قال الله عز وجل : « وَٱجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ » لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحا ويرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي[2] » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا[2] » أي حبا في قلوب عباده وثناء حسنا، فنبّه تعالى بقوله : « وَٱجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ » على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل . الليث بن سليمان : إذ هي الحياة الثانية . قيل :

* قد مات قومٌ وهُمْ في النّاس أحْيَاءُ *

قال ابن العربي : قال المحققون من شيوخ الزهد في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث " [الحديث] وفي رواية إنه كذلك في الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطا يكتب له عمله إلى يوم القيامة . وقد بيناه في آخر « آل عمران[3] » والحمد لله .

(١) في ك : معنى الآية . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩٦ وص ١٦٠ فما بعد . (٣) راجع جـ ٤ ص ٣٢٣ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها، وهو يرد قول بعضهم : لا أسأل جنة ولا نارا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ كان أبوه وعده فى الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا ، فلما بان أنه لا يفى بما قال تبرأ منه . وقد تقدّم هذا المعنى[1] . « إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » أى المشركين . « وكان » زائدة . ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى لا تفضحنى على رءوس الأشهاد ، أو لا تعذبنى يوم القيامة . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة " والغبرة هى القترة . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يلقى إبراهيم أباه فيقول يارب إنك وعدتنى ألا تخزنى يوم يبعثون فيقول الله تعالى إنى حرمت الجنة على الكافرين " آنفرد بهما البخارى رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ « يَوْمَ » بدل من « يوم » الأوّل . أى يوم لا ينفع مال ولا بنون أحدا . والمراد بقوله : « وَلَا بَنُونَ » الأعوان؛ لأن الآبن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع؟ وقيل : ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم ، أى لم ينفعه إبراهيم . ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ هو آستثناء من الكافرين ؛ أى لا ينفعه ماله ولا بنوه . وقيل : هو آستثناء من غير الجنس ، أى لكن « مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » ينفعه لسلامة قلبه . وخص القلب بالذكر ؛ لأنه الذى إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح . وقد تقدّم فى أوّل « البقرة »[2] . وآختلف فى القلب السليم فقيل : من الشك والشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ؛ قاله قتادة وآبن زيد وأكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيّب : القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ؛ قال الله تعالى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »[2] وقال أبو عثمان السيّارى : هو القلب الخالى عن البدعة المطمئن إلى السنة . وقال الحسن : سليم من آفة المال والبنين . وقال الجنيد : السليم فى اللغة اللديغ ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله . وقال الضحاك : السليم الخالص .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٤ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٨٧ فما بعد وص ١٩٧ .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن ، أى الخالص من الأوصاف الذميمة ، والمتصف بالأوصاف الجميلة ، والله أعلم . وقد روى عن عروة أنه قال : يا بنيّ لا تكونوا لعّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، قال الله تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . وقال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير" يريد — والله أعلم — أنها مثلها فى أنها خالية من كل ذنب ، سليمة من كل عيب ، لا خبرة لهم بأمور الدنيا ؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أكثر أهل الجنة البُلْهُ" وهو حديث صحيح . أى البُلْه عن معاصى الله . قال الأزهرى : الأبله هنا هو الذى طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه . وقال القتبى : البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس .

قوله تعالى : وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى قربت وأدنيت ليدخلوها . وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها . ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ أى أظهرت ﴿ ٱلْجَحِيمُ ﴾ يعنى جهنم . ﴿ لِلْغَاوِينَ ﴾

أى الكافرين الذين ضلوا عن الهدى . أى تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن ، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ ﴾ من عذاب الله ﴿ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ لأنفسهم . وهذا كله توبيخ . ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا ﴾ أى قلبوا على رءوسهم . وقيل : دهوروا وألقى بعضهم على بعض . وقيل : جمعوا . مأخوذ من الكَبْكَبَة وهى الجماعة ؛ قاله الهروىّ . وقال النحاس : هو مشتق من كَوْكَبِ الشيءِ أى معظمه . والجماعة من الخيل كَوْكَبٌ وكَبْكَبة . وقال ٱبن عباس : جمعوا فطرحوا فى النار . وقال مجاهد : دهوروا . وقال مقاتل : قذفوا . والمعنى واحد . تقول : دهورت الشيء إذا جمعته ثم قذفتــه فى مَهْوَاة . يقال : هو يدهور اللقم إذا كبرها . ويقــال : فى الدعاء كَبَّ الله عدوّ المســلمين ولا يقال أكبه . وكبكبه ، أى كبه وقلبه . ومنه قوله تعالى : « فَكُبْكِبُوا فِيهَا » والأصل كُبِّبوا فأبدل من الباء الوسطى كاف ٱستثقالا لاجتماع الباءات . قال الســدى : الضمير فى « كُبْكِبوا » لمشركى العرب ﴿ وَالْغَاوُونَ ﴾ الآلهــة . ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ من كان من ذريته . وقيــل : كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فٱتبعه . وقال قتادة والكلبى ومقاتل : « الْغَاوُونَ » هم الشياطين . وقيل : إنمــا تلقى الأصنام فى النار وهى حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم . ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ يعــنى الإنس والشياطين والغــاوين والمعبودين ٱختصموا حينئــذ . ﴿ تَاللهِ ﴾ حلفــوا بالله ﴿ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَــلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا ٱتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد ؛ وهــذا معنى قوله : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَــالَمِينَ ﴾ أى فى العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم . ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ يعنى الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام . وقيل : أسلافنا الذين قلدناهم . قال أبو العالية وعكرمة : « الْمُجْرِمُونَ » إبليس وٱبن آدم القاتل هما أول من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصى . ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ أى شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين . ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أى صديق مشفق ؛ وكان علىّ رضى الله عنــه يقول : عليكم بالإخوان فإنهم عدّة الدنيا وعدّة الآخرة ؛

ألا تسمع إلى قول أهل النار: « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » . الزمخشري : و جمع الشافع لكثرة الشافعين ووحد الصديق لقلته ؛ ألا ترى أن الرجل إذا آمتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته ، رحمة له وحسبة و إن لم تسبق له بأكثرهم معرفة ؛ وأما الصديق فهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما يهمك فأعز من بيض الأُنُوق ؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : آسم لا معنى له . و يجوز أن يريد بالصديق الجمع والحميم القريب والخاص ؛ ومنه حامّة الرجل أي أقرباؤه . وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار ، ومنه الحَمّام والحُمّى ؛ فحامّة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه ؛ يقال : وهم حُزانته أي يحزنهم ما يحزنه . و يقال : حُمّ الشيء وأُحِمّ إذا قرب ، ومنه الحُمّى ؛ لأنها تقرب من الأجل . وقال علي بن عيسى : إنما سمي القريب حميما ؛ لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه ، فجعله مأخوذا من الحمية . وقال قتادة : يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودّة الصديق ورقة الحميم . ويجوز : « وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ » بالرفع على موضع « مِن شَافِعِينَ » ؛ لأن « مِن شَافِعِينَ » في موضع رفع . وجمع صديق أصدقاء وصُدَقاء وصِداق . ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره . وحكى الكوفيون : أنه يقال في جمعه صُدْقان . النحاس : وهذا بعيد ؛ لأن هذا جمع ماليس بنعت نحو رغيف ورُغفان . وحكوا أيضا صديق وأصادق . وأفاعل إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتا نحو أشجع وأشاجع . و يقال : صديق للواحد والجماعة وللمرأة ؛ قال الشاعر[1] :

نَصَبْنَ الهوَى ثم آرتَمين قلوبَنا * بأعْيُنِ أعْدَاءٍ وهُنّ صَدِيق

و يقال : فلان صُدَيِّقِي أي أخص أصدقائي ، و إنما يُصَغّر على جهة المدح ؛ كقول حُباب آبن المنذر : (أنا جُذَيْلُها[2] المحكّك ، وعُذَيْقُها المرجّب) ذكره الجوهري . النحاس : وجمع حميم أحِمّاء وأَحِمّة وكرهوا أفعِلاء للتضعيف . ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ « أنّ » في موضع رفع ، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء . تمنوا حين لا ينفعهم التمني .

---

(١) هو جرير . (٢) عنى بجذيلها المحكك الأصل من الشجرة — أو عود ينصب — تحتك به الإبل فتشتفى به ؛ أي قد جربتني الأمور ولي علم ورأي يشتفى بهما كما تشتفى هذه الإبل الجربى بهذا الجذيل . والترجيب هنا إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط ؛ أي إن لي عشيرة تعضدني وتمنعني . والعذيق تصغير عذق (بالفتح) وهي النخلة بحملها .

وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون . قال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليقول فى الجنة ما فعل فلان وصديقه فى الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون : « مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » ". وقال الحسن : ما آجتمع ملأ على ذكر الله ، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم ، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم فى بعض وهم عند الله شافعون مشفَّعون . وقال كعب : إن الرجلين كانا صديقين فى الدنيا ، فيمرّ أحدهما بصاحبه وهو يُجر إلى النار ، فيقول له أخوه : والله ما بقى لى إلا حسنة واحدة أنجو بها ، خذها أنت يا أخى فتنجو بها مما أرى ، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف . قال : فيأمر الله بهما جميعا فيدخلان الجنة . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم والحمد لله .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال « كَذَّبَتْ » والقوم مذكر؛لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال: «الْمُرْسَلِينَ» لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل؛لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسـل . وقيل : كذبوا نوحا فى النبوّة وفيما أخبرهم به من مجىء المرسلين بعده.وقيل : ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام . وقد مضى هذا فى «الفرقان»[1] .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أى آبن أبيهم وهى أخوة نسب لا أخوة دين . وقيل : هى أخوة المجانسة . قال الله تعـالى : « وَمَا أَرْسَلْنَـا مِنْ رَسُـولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ »[2] وقد مضى هـذا فى « الأعراف »[3] . وقيل : هو من قول العرب يا أخا بنى تميم . يريدون يا واحدا منهم . الزمخشرى : ومنه بيت الحماسة :

لا يَسْألون أخاهم حِينَ يَنْدُبهم * فى النَّائبـاتِ على ما قال بُرْهَانَا

﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى ألا تتقون الله فى عبادة الأصنام . ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى . وقيل : « أَمِينٌ » فيما بينكم ؛ فإنهـم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل؛ كمحمد صلى الله عليه وسلم فى قريش . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى فآستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من الإيمان . ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى لا طمع لى فى مالكم . ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ أى ما جزائى ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرر تأكيدا .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ » أى نصدق قولك . «وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» الواو للحال وفيه إضمار قد، أى وقد آتبعك . « الْأَرْذَلُونَ » جمع الأرذل ، المكسر الأراذل والأنثى الرُّذْلَى والجمع الرُّذَّل . قال النحاس : ولا يجوز حذف الألف واللام فى شىء من هذا عند أحد من النحويين علمنـاه . وقرأ آبن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمى وغيرهم ،

---

(١) راجع ص ٣١ من هذا الجزء .	(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٤٠ .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٣٥ .

« وَأَتْبَاعُكَ الأَرْذَلُون » . النحاس : وهي قراءة حسنة؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بقد . وأتباع جمع تبع وتبيع يكون للواحد والجمع . قال الشاعر :

له تَبَعٌ قد يعلمُ الناسُ أنّه ... على من يُدانِي صَيِّفٌ ورَبِيعُ

آرتفاع « أَتْبَاعُكَ » يجوز أن يكون بالابتداء و « الْأَرْذَلُونَ » الخبر؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير في قوله : « أَنُؤْمِنُ لَكَ » والتقدير: أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرذلون فنعدّ منهم؛ وحسن ذلك الفصل بقوله : «لَكَ» وقد مضى القول في الأراذل في سورة « هود » مستوفًى[1] . ونزيده هنا بيانا وهي المسئلة :

الثانيـــة — فقيل: إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكنّاته وبنو بنيه. وآختلف هل كان معهم غيرهم أم لا . وعلى أن الوجهين كان فالكل صالحون؛ وقد قال نوح : « وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » والذين معه هم الذين آتبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذمّ بل الأرذلون هم المكذبون لهم . قال السهيلي : وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية : هم الحاكة والحجّامون . ولو كانوا حاكة كما زعموا لكان إيمانهم بنبيّ الله وآتباعهم له مشرِّفا كما تشرَّف بلالٌ وسَلْمَان بسبقهما للإسلام؛ فهما من وجوه أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن أكابرهم، فلا ذرية[2] نوح كانوا حاكة ولا حجّامين، ولا قول الكفرة في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذمّا ولا نقصا؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقالتهم أصلا؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « كان » زائدة؛ والمعنى : وما علمي بما يعملون؛ أي لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالحِرَف والصّنائع؛ وكأنهم قالوا : إنما آتبعك هؤلاء الضعفاء طمعا في العزة والمال . فقال : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم . وقيل : المعنى إني

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٣ فما بعد .
(٢) في ك فلا زدلة .

لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويرشدهم ويغويكم ويوفقهم ويخذلكم . ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ أى فى أعمالهم وإيمانهم ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ وجواب « لو » محذوف؛ أى لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم . وقراءة العامة : « تَشْعُرُونَ » بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر . وقرأ ابن أبي عَبْلَة ومحمد بن السَّمَيْقَع : « لو يشعرون » بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم؛ نحو قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »[1] . وروى أن رجلا سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهى مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال : « إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ » . ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لخساسة أحوالهم وأشغالهم . وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش . ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ يعنى : إن الله ما أرسلنى أخص ذوى الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيرا .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ﴾ أى عن سب آلهتنا وعيب ديننا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى بالحجارة؛ قاله قتادة . وقال ابن عباس ومقاتل : من المقتولين . قال الثمالي[2] : كل مرجومين فى القرآن فهو القتل إلا فى مريم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » أى لأسبنك . وقيل : « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » من المشتومين؛ قاله السدى . ومنه قول أبى دؤاد[3] . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ذلك لما يئس من إيمانهم . والفتح الحكم وقد تقدم . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها . والمشحون المملوء، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم . ولم يؤنث الفلك ها هنا؛ لأن الفلك ها هنا واحد لا جمع ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ أى بعد إنجائنا نوحا ومن آمن . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ .		(٢) راجع جـ ١١ ص ١١٠ .

(٣) كذا فى جميع نسخ الأصل . وهنا سقط لعله بيت من الشعر أورده المؤلف شاهدا على أن الرجم معناه الشتم؛ كما أورد بيت الجعدى شاهدا على ذلك عند تفسير قوله تعالى : « ولولا رهطك لرجمناك » . راجع جـ ٩ ص ٩١ .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة . وتكذيبهم المرسلين كما تقدّم . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بيّن المعنى وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ الرّيع ما آرتفع من الأرض فى قول آبن عباس وغيره، جمع رِيعة . وكم رِيع أرضك أى كم آرتفاعها . وقال قتادة : الرّيع الطريق . وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدى . وقاله آبن عباس أيضا . ومنه قول المسيّب[(1)] آبن عَلَس :

فى الآلِ يَخفِضُها ويرفَعُها * رِيعٌ يَلُوحُ كأنّه سَحْــلُ

(١) مسيب بشد اللام مع فتح . قاموس .

شبّه الطريق بثوب أبيض . النحاس : ومعروف فى اللغة أن يقال لما آرتفع من الأرض ريعٌ وللطريق ريعٌ . قال الشاعر[1] :

طِرَاقُ الخَوَافِي مشرق فَوْقَ رِيعَةٍ * نَدَى لَيلِهِ فى ريشه يَتَرَقرقُ

وقال عمارة : الريع الجبل الواحد رِيعة والجمع رِياع . وقال مجاهد : هو الفجّ بين الجبلين . وعنه : الثنية الصغيرة . وعنه : المنظرة . وقال عكرمة ومقاتل : كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا ، فبنوا على الطريق أمثالا طوالا ليهتدوا بها ؛ يدل عليه قوله تعالى : «آيَةً» أى علامة . وعن مجاهد : الريع بنيان الحَمَام دليله « تَعْبَثُونَ » أى تلعبون ؛ أى تبنون بكل مكان مرتفع آية علَما تلعبون بها على معنى أبنية الحمام و بروجها . وقيل : تعبثون بمن يمرّ فى الطريق . أى تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة فتسخروا منهم . وقال الكلبي : إنه عبث العشّارين بأموال من يمر بهم ؛ ذكره الماوردى . وقال آبن الأعرابى : الريع الصومعة ، والرِّيع البرج من الحمام يكون فى الصحراء . والرِّيع التلُّ العالى . وفى الرِّيع لغتان : كسر الراء وفتحها و جمعها أرياع ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أى منازل ؛ قاله الكلبي . وقيل : حُصُونا مشيدة ؛ قاله آبن عباس ومجاهد . ومنه قول الشاعر :

تَرَكْنا ديارَهُم مِنهم قِفَارًا * وهدَّمْنا المصانعَ وَالْبُرُوجا

وقيل : قصورا مشيدة ؛ وقاله مجاهد أيضا . وعنه : بروج الحمام ؛ وقاله السدى .

قلت : وفيه بعدٌ عن مجاهد ؛ لأنه تقدّم عنه فى الريع أنه بنيان الحمام فيكون تكرارا فى الكلام . وقال قتادة : مآجل للماء تحت الأرض . وكذا قال الزجاج : إنها مصانع الماء ، واحدتها مُصْنَعَةٌ ومَصْنَعٌ . ومنه قول لَبيد :

بَلِينا وما تَبلَى النجومُ الطوالعُ * وتبقَى الجبالُ بَعْدَنا والمصانعُ

(١) هو ذو الرمة يصف بازيا . وفى ديوانه — طبع أوربا — « واقع » بدل « مشرق » .

الجوهري : المصنَعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنُعة بضم النون . والمصانع الحصون . وقال أبو عبيدة : يقال لكل بناء مصنعة . حكاه المهدوى . وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أى كى تخلدوا . وقيل : لعل آستفهام بمعنى التوبيخ أى فهل « تَخْلُدُونَ » كقولك : لعلك تشتمني أى هــل تشتمنى . روى معناه عن آبن زيد . وقال الفراء : كيما تخلدون لا تتفكرون فى الموت . وقال ابن عباس وقتادة : كأنكم خالدون باقون فيهــا . وفى بعض القراءات « كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدُونَ »(١) ذكره النحاس . وحكى قتادة : أنهــا كانت فى بعض القراءات « كأنكم خالدون » .

قوله تعــالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّـارِينَ ﴾ البطش السـطوة والأخذ بالعنف . وقــد بطَش به يبطش ويبطِش بطشا . وباطشــه مباطشة . وقال آبن عبــاس ومجاهد : البطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط . ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلمــا . وقال مجاهد أيضا : هو ضرب بالسياط ؛ ورواه مالك بن أنس عن نافع عن آبن عمر فيما ذكر آبن العربى . وقيــل : هو القتل بالسيف فى غير حق . حكاه يحيى بن سَــلّام . وقال الكلبي والحسن : هو القتل على الغضب من غير تثبت . وكله يرجع إلى قول آبن عباس . وقيل : إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء . قال آبن العربى : ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ »(٢) وذلك أن موسى عليه السلام لم يسل عليه سيفا ولا طعنه برمح، وإنما وكزه وكانت منيّته فى وكزته . والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكل مذموم إلا بحق . والآية نزلت خبرا عمن تقدّم من الأمم ، ووعظا من الله عز وجل لنا فى مجانبة ذلك الفعــل الذى ذمهم به وأنكره عليهم .

قلت : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت فى كثير من هــذه الأمة ، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية(٣) ؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا فى غير حق . وقد أخبر صلى

(١) مبنى للفعول مخففا ومشددا. (٢) راجع جـ ٩٢٥ من هذا الجزء فما بعد .

(٣) البحرية : هم من المماليك الأتراك الذين آستخدمهم الملك الصالح الأيوبى، وأسكنهم جزيرة الروضــة . وأول ملوكهم عز الدين أيبك . وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ .

الله عليه وسلم أن ذلك يكون . كما في صحيح مسـلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صِنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سِياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسـيات عاريات مميلاتٌ مائلاتٌ رءوسهنّ كأسْنِمة البُخْت المـائلة لايدخلن الجنة ولا يجدن ريحَها وإنّ ريحها ليُوجَد من مسيرة كذا وكذا". وخرج أبو دواد من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول : " إذا تبايعتم بالعِينة[1] وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلّا لاينزِعه حتى ترجعـوا إلى دينكم " . « جَبَّارِينَ » قتّالين . والجبار القتال في غير حق . وكذلك قوله تعـالى : « إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » قاله الهروي . وقيل : الجبار المتسلّط العاتي ؛ ومنـه قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ[2] » أي بمسلّط . وقال الشاعر :

سَلَبْنَا من الجَبَّار بالسّيف مُلْكَهُ　＊　عَشِيًّا وأطرافُ الرِّمَاح شَـوَارِعُ

قوله تعـالى ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ تقدّم . ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَـا تَعْلَمُونَ ﴾ أي من الخـيرات ؛ ثم فسرها بقوله : ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم ، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر . ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْـكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن كفرتم به وأصررتم على ذلك . ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوي على ما تقوله . وروى العباس عن أبي عمرو وبِشر عن الكسائي : « أَوَعَظتّ » مدغمة الظاء في التاء وهو بعيد ؛ لأن الظاء حرف إطباق إنمـا يدغم فيما قرب منه جدا وكان مثلَه ومخرجَه . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي دينهم ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الفرّاء : عادة الأوّلين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي : « خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » . الباقون « خُلُقُ » . قال الهروي : وقوله عز وجل : « إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » أي اختلاقهم وكذبهم ، ومن قرأ : « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » فمعناه عادتهم ، والعرب تقول : حدّثنا فلان بأحاديث الخَلْق أي بالخرافات والأحاديث المفتعلة . وقال ابن الأعرابي :

(١) العينة أن تبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم تشتريها منه بأقل من الثمن الذي بعتها به .
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٨ .

الخـلُق الدين والخلُق الطبع والخلُق المروءة . قال النحاس : «خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» عنـد الفراء يعني عادة الأولين . وحكى لنـا محمد بن الوليد عن محمـد بن يزيد قال : « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » مذهبهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر : والقولان متقاربان، ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم "أكمل المؤمنين إيمـانا أحسنهم خلقا" أى أحسنهم مذهبا وعادة وما يجرى عليه الأمر فى طاعة الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجرا فاضـلا، ولا أن يكون أكمل إيمـانا من السيّء الخـلق الذى ليس بفاجر . قال أبو جعفر : حكى لنا عن محمد بن يزيد أن معنى « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » تكذيبهم وتخرصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى ؛ لأن فيها مدح آبائهم ، وأكثر ما جاء القرآن فى صفتهم مدحهم لآبائهم ، وقولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ »(1) . وعن أبى قِلابَةَ : أنه قرأ: « خُلْق » بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف « خُلُق » . ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع . وقد قيل: إن معنى « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » دين الأولين . ومنه قوله تعالى : « فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ »(2) أى دين الله . و« خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » عادة الأولين : حياة ثم موت ولابعث . وقيل : ما هـذا الذى أنكرت علينا من البنيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتـدى بهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نفعل . وقيل المعنى خلق أجسام الأولين؛ أى ما خلقنا إلا كخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرنا به من العذاب. ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أى بريح صرصر عاتية على ما يأتى فى « الحاقة »(3) . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قال بعضهم : أسلم معه ثلثمائة ألف ومئون وهلك باقيهم . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

(1) راجع جـ ١٦ ص ٧٤ فما بعد (2) راجع جـ ٥ ص ٣٨٩ (3) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٦ .

طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود ؛ وكانوا يسكنون الحِجْر كما تقدّم فى « الحجر »[1] وهى ذوات نخل و زروع ومياه . ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ يعنى فى الدنيا آمنين من الموت والعذاب . قال ابن عباس : كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم . ودلّ على هذا قوله : « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا »[2] فقرّعهم صالح ووبّخهم وقال : أتظنون أنكم باقون فى الدنيا بلا موت ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ .

الزمخشرى : فإن قلت لم قال : « وَنَخْلٍ » بعد قوله : « وَجَنَّاتٍ » والجنات تتناول النخل أول شىء كما يتناول النَّعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل كما يذكرون النَّعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير :

كَأَنَّ عَيْنَيَّ فى غَرْبَىْ مُقَتَّلَةٍ * من النَّوَاضِحِ تَسْقِى جَنَّةً سُحُقَا

يعنى النخل ؛ والنخلة السُّحُوق البعيدة الطول .

قلت : فيه وجهان ؛ أحدهما — أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على انفراده عنها بفضله عنها . والثانى — أن يريد بالجنات غيرها من الشجر ؛ لأن اللفظ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ٥٥ فما بعد .

يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل. والطلعة هى التى تطلع من النخلة كنصل السيف؛ فى جوفه شماريخ القِنو، والقِنو آسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه . و « هَضِيمٌ » قال آبن عباس: لطيف مادام فى كُفُرّاه. والهضيم اللطيف الدقيق؛ ومنه قول آمرئ القيس:

* عَلَىَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[1] *

الجوهرى: ويقال للطلع هَضيم ما لم يخرج من كُفُرّاه؛ لدخول بعضه فى بعض. والهضيم من النساء اللطيفة الكشحين. ونحوه حكى الهروى؛ قال: هو المنضم فى وعائه قبل أن يظهر؛ ومنه رجل هضيم الجنبين أى منضمهما؛ هذا قول أهل اللغة. وحكى الماوردى وغيره فى ذلك آثنى عشر قولا: أحدها — أنه الرطب اللين؛ قاله عكرمة. الثانى — هو المذنِّب من الرطب؛ قاله سعيد بن جبير. قال النحاس: وروى أبو إسحق عن يزيد — هو آبن أبى زياد كوفى ويزيد بن أبى مريم شامى — « وَنَخْلٌ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » قال: منه ما قد أرطب ومنه مذنِّب. الثالث — أنه الذى ليس فيه نوى؛ قاله الحسن. الرابع — أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتت؛ قاله مجاهد. وقال أبو العالية: يتهشم فى الفم. الخامس — هو الذى قد ضمر بركوب بعضه بعضا؛ قاله الضحاك ومقاتل. السادس — أنه المتلاصق بعضه ببعض؛ قاله أبو صخر. السابع — أنه الطلع حين يتفرق ويخضر؛ قاله الضحاك أيضا. الثامن — أنه اليانع النضيج؛ قاله آبن عباس. التاسع — أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر؛ حكاه آبن شجرة؛ قال:

كأنّ حَمولةً تُجْلَى عليه * هَضِيمٌ ما يُحَسُّ له شُقُوقُ

العاشر — أنه الرخو؛ قاله الحسن. الحادى عشر — أنه الرخص اللطيف أوّل ما يخرج وهو الطلع النَّضِيدُ؛ قاله الهروى. الثانى عشر — أنه البَرْنِىّ[2]؛ قاله آبن الأعرابى؛ فعيل بمعنى فاعل أى هنئ مرئ من آنهضام الطعام. والطلع آسم مشتق من الطلوع وهو الظهور؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات.

---

(١) صدر البيت . * هصرت بفودى رأسها فتمايلت *

(٢) البرنى: ضرب من التمر وهو أجوده؛ واحدته برنية .

قوله تعالى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ » النَّحت النَّجر والبَرْى ؛ نحته يَنحِته (بالكسر) نحتا إذا براه والنُّحاتة البُرَاية . والمِنْحَت ما يُنحت به . وفى « وَالصَّافَّاتِ » قال : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ »[(١)] . وكانوا ينحتونها من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدّم بناؤهم من المدر. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع : «فَرِهِينَ» بغير ألف . الباقون : « فَارِهِينَ » بألف وهما بمعنى واحد فى قول أبى عبيدة وغيره ؛ مثل : «عِظَامًا نَخِرَةً»[(٢)] و « نَاخِرَة » . وحكاه قطرب . وحكى فَرُهَ يفرُه فهو فاره وفَرِهَ يفرَه فهو فرِهٌ وفاره إذا كان نشيطا . وهو نصب على الحال . وفرق بينهما قوم فقالوا : «فَارِهِينَ» حاذقين بنحتها ؛ قاله أبو عبيدة ؛ وروى عن ابن عباس وأبى صالح وغيرهما . وقال عبد الله بن شدّاد : « فَارِهِينَ » متجبرين . وروى عن ابن عباس أيضا أن معنى: «فَرِهِينَ» بغير ألف أشرين بطرين؛ وقاله مجاهد . وروى عنه شرهين . الضحاك : كيِّسين . قتادة : معجبين ؛ قاله الكلبى ؛ وعنه : ناعمين . وعنه أيضا آمنين ؛ وهو قول الحسن . وقيل : متخيرين ؛ قاله الكلبى والسدى . ومنه قول الشاعر :

إلى فَرِهٍ يماجد كلَّ أمرٍ * قصدتُ له لأختبر الطِّباعا

وقيل : متعجبين ؛ قاله خُصيف . وقال ابن زيد : أقوياء . وقيل : فرهين فرحين ؛ قاله الأخفش . والعرب تعاقب بين الهاء والحاء ؛ تقول : مدهته ومدحته ؛ فالفرِه الأشِر الفرِح ثم الفرح بمعنى المَرَح مذموم ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا »[(٣)] وقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ »[(٤)] . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ قيل : المراد الذين عقروا الناقة . وقيل : التسعة الرهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قال السّدى وغيره : أوحى الله تعالى إلى صالح : إن قومك سيعقرون ناقتك ؛ فقال لهم ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل . فقال لهم صالح : إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه ؛ فقالوا : لا يولد فى هذا الشهر ذكر إلا قتلناه . فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك . وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا ؛ وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا . وغضب

(١) راجع ج ١٥ ص ٩٤ فما بعد .
(٢) راجع ج ١٩ ص ١٩٥ .
(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٦٠ .
(٤) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء .

التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله . قالوا : نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون فى غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله و إنا لصادقون ؛ فيصدّقوننا ويعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر . وكان صالح لا ينام معهم فى [القرية وكان يأوى إلى](١) مسجده ، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم ، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم ، فرأى ذلك ناس ممن كان قد اطلع على ذلك، فصاحوا فى القرية : يا عباد الله ! أما رضى صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم ؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة . وقال ابن إسحق : إنما اجتمع التسعة على سبّ صالح بعد عقرهم الناقة و إنذارهم بالعذاب على ما يأتى بيانه فى سورة « النمل »(٢) إن شاء الله تعالى . ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ هو من السحر فى قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوى . أى أصبت بالسحر فبطل عقلك ؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدّع الرسالة دوننا . وقيل : من المعلّلين بالطعام والشراب ؛ قاله ابن عباس والكلبى وقتادة ومجاهد أيضا فيما ذكر الثعلبى . وهو على هـذا القول من السَّحر وهو الرئة أى بشر لك سَحْر أى رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال [لبيد](٣) :

فإن تسألينا فِيمَ نحن فإنّنا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

وقال [امرؤ القيس] :

* ونُسْحَرُ بالطّعام و بالشّرابِ(٤) *

﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك . ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ قال ابن عباس : قالوا إن كنت صادقا فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء(٥) فتضع ونحن ننظر ، وترد هذا المـاء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبنـا . فدعا الله

---

(١) الزيادة من « قصص الأنبياء » للثعلبى . (٢) راجع ص ٢١٥ من هذا الجزء .

(٣) فى نسخ الأصل : امرؤ القيس ؛ والتصويب من ديوان لبيد . (٤) صدر البيت :

* أرانا موضعين لأمر غيب *

موضعين : مسرعين . وأمر غيب يريد الموت وأنه قد غيب عنا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب .

(٥) ناقة عشراء : مضى لحملها عشرة أشهر .

وفعل الله ذلك فـ « قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ » أي حظ [من المـاء][(١)] ؛ أي لكم شرب يوم ولها شرب يوم ؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهـار ، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئا ، ولا لهـا أن تشرب في يومهم من مائهم شيئا . قال الفـراء : الشِّرب الحظ من المـاء . قال النحاس : فأما المصدر فيقال فيه شرِب شَرْباً وشُربا وشِربا وأكثرها المضمومة ؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشـتركان مع شيء آخر فيكون الشِّرْب الحظ من المـاء ، ويكون الشَّرْب جمع شارب كما قال[(٢)] :

* فقلتُ للشَّرْب في دُرْنَا وقد ثَمِلُوا *

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرب بالفتح في المصدر ، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنها أيام أكل وشَرْب " . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا ؛ لأنهما حرفان متحرّكان من جنس واحد . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهي ، ولا يجوز حذف الفاء منه ، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئا روي عن الكسائي أنه يجيزه . ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ أي على عقرها لمـا أيقنوا بالعـذاب . وذلك أنه أنظرهم ثلاثا فظهرت عليهم العلامة في كل يوم ، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب . وقيـل : لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا ، بل طلبوا صالحا عليه السلام ليقتلوه لمـا أيقنوا بالعذاب . وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها . وهو بعيد . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ إلى آخره تقدّم . ويقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمـانمـائة رجل وامرأة . وقيل : كانوا أربعة آلاف . وقال كعب : كان قوم صالح اثني عشر ألف قبيل كل قبيل نحو اثني عشر ألفا من سوى النساء والذرّية ، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات .

---

(١) زيادة يقتضيها المعنى .　　(٢) هو الأعشى وتمـامه :

* شيموا فكيف يشيم الشارب الثمـل *

ودرنا (بضم الدال والفتح) موضع زعموا أنه بناحية اليمـامة . اللسان .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ مضى معناه وقصته في « الأعراف »[1] و « هود »[2] مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم « في الأعراف »[1] . ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ يعني فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح . قال إبراهيم بن مهاجر : قال لي مجاهد كيف يقرأ عبد الله : « وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » قلت : « وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم » قال : الفرج؛ كما قال : « فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ »[3] . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أي متجاوزون لحدود الله . ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ ﴾ عن قولك هذا . ﴿ لَتَكُونَنَّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ فما بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٣ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٣ ص ٨٠

مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى من بلدنا وقريتنا . ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ ﴾ يعني اللواط ﴿ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أى المبغضين والقلى البغض؛ قليته أقليه قِلًى وقَلَاء . قال[1] :

* فلستُ بمقليّ الخلالِ ولا قالي *

وقال آخر[2] :

عليك السلامُ لا مُلِلتِ قريبةً * ومالكِ عندي إن نأيتِ قَلاءُ

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أى من عذاب عملهم . دعا الله لما أيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم .

قال تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدم في « هود »[3] . ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ روى سعيد عن قتادة قال : غبرت في عذاب الله عز وجل أى بقيت . وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقين في الهَرَم أى بقيت حتى هَرِمت . قال النحاس : يقال للذاهب غابر والباقي غابر كما قال[4] :

لا تكسع الشَّوْل بأغبارها * إنك لا تدري مَنِ الناتجُ

وكما قال[2] :

فما وَنَى محمدٌ مذ انْ غَفَرْ * له الإلهُ ما مَضَى وما غَبَرْ

أى ما بقي . والأغبار بقيات الألبان . ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى أهلكناهم بالخسف والحصب؛ قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجا من القرية . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ يعني الحجارة ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ . وقيل : إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها الله بالحجارة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه .

---

(١) هو امرؤ القيس؛ وصدر البيت : * صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

(٢) هو الحرث بن حلزة؛ وكسع الناقة بغبرها ترك في ضرعها بقية من اللبن .
وبعده : وأحلب لأضيافك ألبانها * فإن شر اللبن الوالج
يقول : لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها ، واحلبها لأضيافك ، فلعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك .

(٣) راجع جـ ٩ ص ٧٣ فما بعد .   (٤) هو العجاج .

قوله تعالى : كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيكة . ومن قرأ: «أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ» فهى الغيضة . ومن قرأ: « لَيْكَةَ » فهو آسم القرية . ويقال : هما مثل بكة ومكة ؛ قاله الجوهرى . وقال النحاس : وقرأ أبو جعفر ونافع: « كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ » وكذا قرأ: فى « صۤ »(١) . وأجمع القراء على الخفض فى التى فى سورة « الحِجرِ »(٢) والتى فى سورة « قۤ »(٣) فيجب أن يرد ما آختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحدا . وأما ما حكاه أبو عبيد من أن « ليكة » هى آسم القرية التى كانوا فيها وأن « الأيكة » آسم البلد فشىء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه ، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر؛لأن أهل العلم جميعا من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه .

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٤٤ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤٥ (٣) راجع جـ ١٧ ص ٨ .

وروى عبـد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال : أرسل شعيبٌ عليـه السلام إلى أمتين : إلى قومه من أهـل مدين، و إلى أصحاب الأيكة؛ قال : والأيكة غيضـة من شجر ملتف . وروى سعيد عن قتادة قال : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجـر وكانت عامة شجرهم الدوم وهو شجر المُقل. وروى ابن جبير عن الضحاك قال : خرج أصحاب الأيكة — يعني حين أصابهم الحر — فانضموا إلى الغيضة والشجر ، فأرسـل الله عليهم سحابة فاستظلوا تحتها ، فلمـا تكاملوا تحتها أُحرقوا . ولو لم يكن هـذا إلا ما روى عن ابن عباس قال: و« الأيكة » الشجر . ولا نعلم بين أهل اللغة اختلافا أن الأيكة الشجر الملتف ، فأما احتجاج بعض من احتج بقراءة من قرأ في هـذين الموضعين بالفتح أنه في السواد « ليكة » فلا حجة له؛ والقول فيه: إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقيت حركتها على اللام فسقطت واستغنت عن ألف الوصل؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض؛ كما تقول بالأحمـر تحقق الهمزة ثم تخففها بِلَحْمرِ ؛ فإن شئت كتبته في الخـط على ما كتبته أولا ، وإن شئت كتبته بالحـذف ؛ ولم يجز إلا الخفض ؛ قال سيبويه : واعلم أن مالا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف انصرف ؛ ولا نعلم أحدا خالف سيبويه في هذا . وقال الخليل : « الأيكة » غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقـل أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب، فلمـا ذكر مدين قال : « أَخَاهُمْ شُعَيْباً »[1] ؛ لأنه كان منهم . وقد مضى في « الأعراف » القول في نسبه . قال ابن زيد : أرسل الله شعيبا رسولا إلى قومه أهل مدين ، و إلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة؛ وقاله قتادة . وقد ذكرناه . ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ تخافون الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ الآية . وإنمـا كان جواب هؤلاء الرسـل واحدا على صيغة واحدة؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى ، والطاعة والإخلاص في العبادة ، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة . ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ الناقصـين للكيل

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ فما بعد .

والوزن . ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى أعطوا الحق . وقد مضى فى « سبحان »(١) وغيرها ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم فى « هود »(٢) وغيرها. ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال مجاهد : الجِبِلّة هى الخليقة . وجُبِل فلان على كذا أى خُلق ؛ فالخُلُق جِبِلّة وجُبُلّة وجِبْلَة وجُبْلَة وجَبْلَة ذكره النحاس فى «معانى القرآن» . « والجِبِلّة » عطف على الكاف والميم . قال الهروى : الجِبِلّة والجُبْلَة والجِبِلّ والجُبُلّ والجَبْلُ لغات ؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ؛ ومنه قوله تعالى : « جِبِلًّا كَثِيرًا »(٣) . قال النحاس فى كتاب « إعراب القرآن » له : ويقال جُبُلّة والجمع فيهما جِبالٌ ، وتحذف الضمة والكسرة من الباء ، وكذلك التشديد من اللام ؛ فيقال : جُبْلَةٌ وجُبَلٌ ، ويقال : جِبْلَةٌ وجِبالٌ ؛ وتحذف الهاء من هذا كله . وقرأ الحسن باختلاف عنه : «والجُبُلَّةَ الْأَوَّلِينَ» بضم الجيم والباء ؛ وروى عن شيبة والأعرج . الباقون بالكسر . قال :

والموتُ أعظمُ حادثٍ * فيما يمرُّ على الجِبِلَّه

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدّم . ﴿ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى ما نظنك إلا من الكاذبين فى أنك رسول الله تعالى. ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا(٤) مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى جانبا من السماء وقطعة منه ، فننظر إليه ؛ كما قال : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ »(٥) . وقيل : أرادوا أنزل علينا العذاب . وهو مبالغة فى التكذيب. قال أبو عبيدة : الكِسْف جمع كِسْفة مثل سِدْر وسِدْرة . وقرأ السلمى وحفص: « كِسَفًا » جمع كِسْفَة أيضا وهى القطعة والجانب تقديره كِسْرة وكِسَر . قال الجوهرى : الكِسْفة القِطعة من الشيء؛ يقال أعطنى كِسْفة من ثوبك والجمع كِسَفٌ وكِسْفٌ . ويقال: الكِسْف والكِسْفَة واحد . وقال الأخفش : من قرأ : « كِسْفًا » جعله واحدا ومن قرأ: « كِسَفًا » جعله جمعا . وقد مضى هذا فى سورة « سبحان »(١) . وقال الهروى : ومن قرأ: « كِسْفًا » على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف ؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقا واحدا ،

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٦ وص ٣٣ (٢) جـ ٩ ص ٨٦ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٤٧
(٤) « كسفا » بإسكان السين قراءة نافع (٥) راجع جـ ١٧ ص ٧٧

وهو من كسفت الشيء كسفا إذا غطيته . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهـديد ؛ أى إنمـا علىّ التبليغ وليس العـذاب الذى سألتم إلىّ وهـو يجازيكم . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ قال ابن عباس : أصابهم حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلّوا بهـا ، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا . وقيـل : أقامها الله فوق رءوسهم، وألهبها حرّا حتى ماتوا من الرَّمْدِ . وكان من أعظم يوم فى الدنيا عذابا . وقيل : بعث الله عليهم سَموما فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمها الله عليهم نارا فاحترقوا . وعن ابن عباس أيضا وغيره : إن الله تعـالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم، وأرسل عليهم هَدَّة وحرًّا شديدا فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماء فأنضجهم الحر، فخرجوا هربا إلى البرية ، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم فوجدوا لها بردا وروحا وريحا طيبة ، فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله تعالى عليهم نارا ، ورجفت بهم الأرض ، فاحترقوا كما يحترق الجـراد فى المقلى ، فصاروا رمادا؛ فذلك قوله : « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا[1] » وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقيل : إن الله تعـالى حبس عنهم الريح سـبعة أيام، وسلّط عليهم الحر حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظلّ ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب، ليتبردوا فيها فيجدوها أشد حرّا من الظاهر . فهربوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة وهى الظّلّة ، فوجدوا لها بردا ونسيما ، فأمطرت عليهـم نارا فاحترقوا . وقال يزيد الجُـرَيْرىّ : سـلّط الله عليهم الحر سـبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيـد » فأتاه رجل فإذا تحته أنهـار وعيون وشجـر وماء بارد ، فاجتمعوا كلهم تحته ، فوقع عليهم الجبـل وهو الظّلة . وقال قتـادة : بعث الله شعيبا إلى أمتين : أصحاب مدين وأصحـاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظـلّة ، وأما أصحاب مدين فصاح بهـم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٥٩

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عاد إلى ما تقدّم بيانه فى أوّل السورة من إعراض المشركين عن القرآن . ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ « نَزَلَ » مخففا قرأ نافع وٱبن كثير وأبو عمرو . الباقون : « نَزَّلَ » مشدّدا « بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ » نصبا وهو ٱختيار أبى حاتم وأبى عبيد لقوله : « وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ » وهو مصدر نزل . والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدّر ؛ لأن المعنى و إن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك ؛ كما قال تعالى : « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ »(1) أى يتلوه عليك فيعيه قلبك . وقيل : ليثبت قلبك . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ أى لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول . ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى و إن ذكر نزوله لفى كتب الأوّلين يعنى الأنبياء . وقيل : أى إن ذكر محمد عليه السلام فى كتب الأوّلين ؛ كما قال تعالى : « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »(2) والزُّبُر الكتب الواحد زَبُور كرسول و رسل ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال مجاهد : يعنى عبدالله ٱبن سَلَام وسلمان وغيرهما ممن أسلم . وقال ٱبن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٦ . (2) راجع جـ ٧ ص ٢٩٩ .

يسألونهم عن محمد عليه السلام، فقالوا : إن هذا لزمانه، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته . فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هـذا القول . وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب ؛ لأنهم مظنون بهم علمٌ . وقرأ ابن عامر : « أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ » . الباقون « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً » بالنصب على الخبر واسم يكن « أَنْ يَعْلَمَهُ » والتقدير أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة . وعلى القراءة الأولى اسم كان « آيةٌ » والخبر « أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وقرأ عاصم الجحدري : « أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ أي على رجل ليس بعربي اللسان ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نفقه . نظيره : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا »[1] الآية . وقيل : معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة وكبرا . يقال : رجل أعجم وأعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربيا، ورجل عجمي وإن كان فصيحا ينسب إلى أصله ؛ إلا أن الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي بمعنى أعجمي . وقرأ الحسن : « عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِيِّينَ » مشددة بياءين جعله نسبة . ومن قرأ : « الْأَعْجَمِينَ » فقيل : إنه جمع أعجم . وفيه بعد ؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون ، ولا بالألف والتاء ؛ لا يقال أحمرون ولا حمراوات . وقيل : إن أصله الأعجمين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب ، وجعل جمعه بالياء والنون دليلا عليها . قاله أبو الفتح عثمان بن جِنّي . وهو مذهب سيبويه .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ يعني القرآن أي الكفر به ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . وقيل : سلكنا التكذيب في قلوبهم ؛ فذلك الذي منعهم من الإيمان ؛ قاله[3] يحيى بن سلّام . وقال عكرمة : القسوة . والمعنى متقارب وقد مضى في « الحجر »[2] . وأجاز الفراء الجزم في « لَا يُؤْمِنُونَ » ؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة . وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت ؛ فتقول : ربطت

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٦٨ .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٧ .　　(٣) في ك : اختار .

الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم؛ لأن معناه إن لم أربطه ينفلت، والرفع بمعنى كيلا ينفلت . وأنشد لبعض بنى عُقيل :

وحتى رأينا أحسنَ الفعلِ بيننا * مُسَاكَنَةً لا يقرِفُ الشرَّ قارِفُ

بالرفع لما حذف كى . ومن الجزم قول الآخر :

لَطَالَمَا حَلَأْتُمَاها لا تَرِدْ * فخلّياها والسِّجالَ تَبْتَرِدْ[1]

قال النحاس : وهذا كله فى « يُؤْمِنُونَ » خطأ عند البصريين ، ولا يجوز الجزم بلا جازم ، ولا يكون شىء يعمل عملا فإذا حذف عمل عملا أقوى من عمله وهو موجود؛ فهذا احتجاج بيّن . ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى العذاب . وقرأ الحسن : « فَتَأْتِيَهُمْ » بالتاء؛ والمعنى : فتأتيهم الساعة بغتة فأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها، ولكثرة ما فى القرآن من ذكرها . وقال رجل للحسن وقد قرأ : « فَتَأْتِيَهُمْ » : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة . فانتهره وقال : إنما هى الساعة تأتيهم بغتة أى فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها . ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ أى مؤخرون وممهلون . يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون إليها . قال القشيرى : وقوله : « فَيَأْتِيَهُمْ » ليس عطفا على قوله : « حَتَّى يَرَوُا » بل هو جواب قوله : « لَا يُؤْمِنُونَ » فلما كان جوابا للنفى انتصب؛ وكذلك قوله : « فَيَقُولُوا » .

قوله تعالى : أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قال مقاتل : قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتى به ! فنزلت : « أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » . ﴿ أَفَرَأَيْتَ

(١) حلأها : منعها من ورود الماء . والسجال (جمع سجل) وهى الدلو الضخمة المملوءة ماء . وتبترد : تشرب الماء لتبرد به كبدها . والبيت قاله بعض السوقة لبعض الملوك زمن امرأة قد تزوجت من رجل كان عاشقا لها .

إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) يعنى فى الدنيـا والمراد أهل مكة فى قول الضحاك وغيره . (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) من العذاب والهلاك (مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) . « مَا » الأولى ٱستفهام معناه التقرير، وهو فى موضع نصب بـ « أَغْنَى » و « ما » الثـانية فى موضع رفع، ويجـوز أن تكون الثانية نفيا لا موضع لهـا . وقيل : « ما » الأولى حرف نفى، و « ما » الثانية فى موضع رفع بـ « أغنى » والهاء العائدة محذوفة . والتقدير: ما أغنى عنهم الزمان الذى كانوا يمتعونه . وعن الزهرى : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » ثم يبكى ويقول :

نهـارُك يامغـرورُ سهوٌ وغفلةٌ * وليـلُك نومٌ والرَّدَى لك لازمُ
فلا أنتَ فى الأيقاظ يقظانُ حازمٌ * ولا أنتَ فى النُّـوَّام ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بمـا يَفْنَى وتفرحُ بالمـنى * كما سُرَّ باللذات فى النوم حالمُ
وتَسعى إلى ماسوف تكره غِبَّـهُ * كذلك فى الدنيـا تعيشُ البهائمُ

قوله تعـالى : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ) « مِن » صـلة ؛ المعنى : وَمَا أَهْلَكْنَا قرية . (إِلَّا لَهَـا مُنْذِرُونَ) أى رسل . (ذِكْرَى) . قال الكسائى : « ذِكْرَى » فى موضع نصب على الحال . النحاس : وهـذا لا يحصل ، والقول فيه قول الفراء وأبى إسحق أنها فى موضع نصب على المصدر ؛ قال الفراء : أى يذكّرون ذِكْرَى ؛ وهذا قول صحيح ؛ لأن معنى « إِلَّا لَهَـا مُنْذِرُونَ » إلا لها مذكّرون . و « ذِكْرَى » لا يتبين فيه الإعراب؛ لأن فيها ألفا مقصورة . ويجـوز « ذِكْرًى » بالتنوين، ويجوز أن يكون « ذِكرى » فى موضع رفع على إضمار مبتدإ . قال أبو إسحق : أى إنذارنا ذكرى . وقال الفراء : أى ذلك ذكرى ، وتلك ذكرى . وقال ٱبن الأنبارى قال بعض المفسرين : ليس فى « الشعراء » وقف تام إلا قوله « إِلَّا لَهَـا مُنْذِرُونَ » وهذا عندنا وقف حسن؛ ثم يبتدئ « ذِكْرَى » على معنى هى ذكرى أى يذكرهم ذكرى ، والوقف على « ذِكْرَى » أجـود . (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) فى تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم :

قوله تعالى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ يعنى القرآن بل ينزل به الروح الأمين . ﴿ وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ أى برمى الشهب كما مضى فى سورة « الحجر » بيانه (١) . وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْقَع : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ » قال المهدوى : وهو غير جائز فى العربية ومخالف للخط . وقال النحاس : وهذا غلط عند جميع النحويين ؛ وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا غلط عند العلماء ، إنما يكون بدخول شبهة ؛ لما رأى الحسن فى آخره ياء ونونا وهو فى موضع رفع اشتبه عليه بالجمع المسلّم فغلط ، وفى الحديث "احذروا زلّة العالم" وقد قرأ هو مع الناس : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ » (٢) ولو كان هذا بالواو فى موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة . وقال الثعلبى : قال الفراء : غلط الشيخ — يعنى الحسن — فقيل ذلك للنضر بن شُمَيل فقال : إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما ، جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه ، مع أنا نعلم أنهما لم يقرأا بذلك إلا وقد سمعا فى ذلك شيئا ؛ وقال المؤرِّج : إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه . وقال يونس بن حبيب : سمعت أعرابيا يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون ؛ فقلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ قيل : المعنى قل لمن كفر هذا . وقيل : هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا ؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره . ودلّ على هذا قوله : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أى لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ فما بعد . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٠٦ .

قوله تعالى : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » خصّ عشيرته الأقربين بالإنذار؛ لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب فى مفارقته إياهم على الشِّرك . وعشيرته الأقربون قريش . وقيل : بنو عبد مناف . ووقع فى صحيح مسلم : "وأنذِر عشِيرتك الأقربِين ورهطك منهم المخلَصين " . وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ؛ إذ لم يثبت نقله فى المصحف ولا تواتر . ويلزم على ثبوته إشكال؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألّا ينذر إلّا من آمن من عشيرته؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص فى دين الإسلام وفى حبّ النبي صلى الله عليه وسلم لا المشركون؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتى بعدهم صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يثبت ذلك نقلا ولا معنى . وروى مسلم من حديث أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فآجتمعوا فعمّ وخصّ فقال : " يابنى كعب بن لؤىّ أنقذوا أنفسكم من النار يابنى مرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأَبُلُّها بِبَلالها[1] " .

(١) " سأبلها ببلالها " : أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا .

الثانيـــة ــ فى هذا الحديث والآية دليل على أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته ؛ لقوله : " إن لكم رحمًا سأبلّها ببلالها " وقوله عز وجل : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ »[1] الآية ، على ما يأتى بيانه هناك [إن شاء الله][2] .

قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم فى سورة « الحجر »[3] و « سبحان »[3] يقال : خفض جناحه إذا لان . ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أى خالفوا أمرك . ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى برىء من معصيتكم إياى ؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل ، لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بما يرضاه ، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه .

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذى لا يغالب ، الرحيم الذى لا يخذل أولياءه . وقرأ العامة : « وَتَوَكَّلْ » بالواو وكذلك هو فى مصاحفهم .

وقرأ نافع وابن عامر : « فَتَوَكَّلْ » بالفاء وكذلك هو فى مصاحف المدينة والشام . ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى حين تقوم إلى الصلاة فى قول أكثر المفسرين : ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : يعنى حين تقوم حيثما كنت . ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : فى المصلّين . وقال ابن عباس : أى فى أصلاب الآباء، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيًّا . وقال عكرمة : يراك قائمـا وراكعا وساجدا ؛ وقاله ابن عباس أيضا . وقيل : المعنى ؛ إنك ترى بقلبك فى صلاتك من خلفك كما ترى بعينك من قدامك . وروى عن مجاهد ؛ ذكره الماوردى والثعلبى . وكان عليه السلام يرى من خلفه كما يرى من بين يديه ، وذلك ثابت فى الصحيح وفى تأويل الآية بعيد ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

(١) راجع جـ ١٨ ص ٥٨ . (٢) من ك . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٥٦ وص ٢٤٢ .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ إنما قال : «تَنَزَّلُ» لأنها أكثر ما تكون فى الهواء، وأنها تمر فى الريح . ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ تقدم فى « الحجر »(١) . فـ « يُلْقُونَ السَّمْعَ » صفة الشياطين « وَأَكْثَرُهُمْ » يرجع إلى الكهنة . وقيل : إلى الشياطين .

قوله تعالى : وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ » جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء ؛ قال ابن عباس : هم الكفار « يَتَّبِعُهُمْ » ضلال الجن والإنس . وقيل : « الْغَاوُونَ » الزائلون عن الحق ، ودلّ بهذا أن الشعراء أيضا غاوون ؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك . وقد قدمنا فى سورة « النور »(٢) أن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ويكره ، ويحرم . روى مسلم من حديث عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال : ردِفت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوما](٣) فقال : " هل معك من شعر أمية بن أبى الصَّلْت شىء " قلت : نعم . قال "هيه" فأنشدته بيتا . فقال "هيه" ثم أنشدته بيتا . فقال "هيه" حتى أنشدته مائة بيت . هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته . وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم : عن عمرو بن الشَّريد عن الشَّريد أبيه ؛ وهو وَهَم ؛ لأن الشريد هو الذى أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم . واسم أبى الشَّريد سُوَيْد . وفى هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحِكَم والمعانى المستحسنة شرعا وطبعا ، وإنما استكثر النبى صلى الله عليه وسلم من شعر أمية ؛ لأنه

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٧١ . (٣) الزيادة من صحيح مسلم .

كان حكيما، ألا ترى قوله عليه السلام: "وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم" فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه، كقول القائل:

الحمد لله العلىّ المنان * صار الثريد فى رءوس العيدان[1]

أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مدحه كقول العباس:

مِن قبلها طِبْتَ فى الظِّلال وفى مُسْ * تودعٍ حيث يُخصَفُ الورقُ

ثم هبطت البلاد لا بشرٌ أنـ * ـتَ ولا مُضغةٌ ولا عَلَقُ

بل نطفة تركب السَّفِينَ وقد ألْـ * ـجَمَ نَسْرًا وأهلَهُ الغَرَقُ

تنقلُ مِن صَالبٍ إلى رَحِمٍ * إذا مَضَى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ[2]

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يَفْضُضِ الله فاك". أو الذبّ عنه كقول حسان:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه * وعند الله فى ذاك الجزاءُ

وهى أبيات ذكرها مسلم فى صحيحه وهى فى السير أتم. أو الصلاة عليه، كما روى زيد بن أسلم، خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحا فى بيت، وإذا عجوز تنفش صوفا وتقول:

على محمدٍ صلاةُ الأبرار * صلى عليه الطيّبون الأخيارْ

قد كنتَ قوّامًا بُكًا بالأسحارْ * ياليتَ شِعْرى والمنايا أطوارْ

* هل يجمعنّى وحبيبى الدارْ *

يعنى النبي صلى الله عليه وسلم، فجلس عمر يبكى. وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضى الله عنهم؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال:

إنى رضيتُ عليا للهُدَى عَلَمًا * كما رضيتُ عَتِيقًا صاحبَ الغارِ

وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعتَهُ * وما رضيتُ بقتل الشيخ فى الدارِ

كلُّ الصحابة عندى قُدوةٌ عَلَمٌ * فهل علىّ بهذا القول من عارِ

إن كنتَ تعلم أنّى لا أحبّهمُ * إلا من أجلك فأعتقنى من النارِ

---

(١) كذا فى الأصول. (٢) طبق: قرن. أراد إذا مضى قرن ظهر قرن آخر.

وقال آخر فأحسن :

حُبُّ النبيِّ رسول الله مُفْتَرَضٌ * وحُبُّ أصحابه نورٌ ببرهانِ

من كان يعلم أن الله خالقه * لا يَرمينَّ أبا بكرٍ ببهتانِ

ولا أبا حفص الفاروقَ صاحبَه * ولا الخليفة عثمان بن عفانِ

أمّا عليٌّ فمشهورٌ فضائلُه * والبيت لا يَستوِى إلا بأركانِ

قال ابن العربي : أما الاستعارات فى التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد ؛ فبذلك يضرب المَلَك الموكَّل بالرؤيا المثَلَ ، وقد أنشد كعب بن زهير النبي صلى الله عليه وسلم :

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبُولُ * مُتَيَّمٌ إِثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ

وما سُعادُ غداةَ البَيْنِ إذ رَحَلُوا * إلا أَغَنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مكحولُ

تَجلُو عَوارِضَ ذِى ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ * كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلولُ

فجاء فى هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع ، والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر فى تشبيهه ريقها بالراح . وأنشد أبو بكر رضى الله عنه (١) :

فَقَدْنا الوحىَ إذ وَلَّيتَ عنّا * وودَّعَنا من الله الكلامُ

سوى ما قد تركتَ لنا رهيناً * توارثَه القَراطيسُ الكرامُ

فقد أورثتنا ميراثَ صدقٍ * عليك به التحيةُ والسلامُ

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعه وأبو بكر ينشده ، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا . قال أبو عمر : ولا ينكر الحسنَ من الشعر أحدٌ من أهل العلم ولا من أولى النُّهى ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر ، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا ، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى ، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحلّ سماعه ولا قوله ؛ وروى أبو هريرة قال

---

(١) قال ذلك فى رثاء النبي صلى الله عليه وسلم .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : " أصدق كلمة — أو أشعر كلمة — قالتها العرب قول لبيد : * ألَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ * "

أخرجه مسلم وزاد " وكاد أمية بن أبي الصَّلْت أن يُسلِم " وروى عن ٱبن سيرين أنه أنشد شعرا فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر . فقال : ويلك يا لُكَع ! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح ! قال : وقد كانوا يتذاكرون الشعر . قال : وسمعت ٱبن عمر ينشد :

يُحِبُّ الخمرَ من مال النَّدامَى * ويَكرهُ أن يفارقَهُ الفَلُوسُ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعرا مجيدا مقدَّما فيه . وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب ، وكانت له زوجة حسنة تسمى عَثْمة فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ؛ منها قوله :

تَغلغَل حُبُّ عَثْمةَ(1) في فؤادي * فباديه مع الخافي يسيرُ

تَغلغَل حيث لم يبلغ شَرابٌ * ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ

أكاد إذا ذكرتُ العهد منها * أطير لو آن إنسانا يَطيرُ

وقال ٱبن شهاب : قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك ! فقال : إن المصدور إذا نفث برأ .

الثانيـة — وأما الشعر المذموم الذي لا يحلّ سماعه وصاحبه ملوم ، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحّهم على حاتم ، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقيّ ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء ، رغبة في تسلية النفس وتحسين القول ؛ كما روى عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فبِتْنَ بجانبيّ مُصَرَّعاتٍ(2) * وبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الختامِ

---

(1) في ك : حشمة (2) مصرعات : سكارى .

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : ياأمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحد بقوله : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ » . وروى أن النعمان بن عدى بن نضلة كان عاملا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ(١) أنّ حليلَها * بميْسانَ يُسقَى فى زُجاجٍ وحَنْتَمِ
إذا شئتُ غنّتنى دهاقينُ قريةٍ * ورقّاصةٌ تَجْذُو(٢) على كلّ مَنْسِمِ
فإن كنت نَدْمانِى فبالأكبرِ اسقِنِى * ولا تَسْقِنِى بالأصغرِ المتثلِّمِ
لعلّ أميرَ المؤمنين يَسوءُه * تَنادُمنا بالجَوْسَقِ(٣) المتهدِّمِ

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه ، وقال : إى والله إنى ليسوءنى ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين مافعلت شيئا مما قلت ؛ وإنما كانت فضلة من القول ، وقد قال الله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » فقال له عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ؛ ولكن لاتعمل لى عملا أبدا وقد قلتَ ماقلتَ . وذكر الزبير بن بكار قال : حدثنى مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبى ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة : إنى قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابى هذا فاشدد عليهما وآحملهما إلىّ . فلما أتاه الكتاب حملهما إليه ، فأقبل على عمر ؛ فقال : هيه !

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظرَ ناظرٍ * ولا كليالى الحج أفْلَتْنَ ذا هوى
وكم مالئٍ عينيه من شيءِ غيرِه * إذا راح نحو الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أما والله لو آهتممت بحجك لم تنظر إلى شىء غيرك ؛ فإذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فمتى يفلتون ! ثم أمر بنفيه . فقال : يا أمير المؤمنين ! أوخير من ذلك ؟ فقال : ماهو ؟ قال : أعاهد الله أنى لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء فى شعر أبدا ، وأجدّد توبة ؛ فقال : أو تفعل ؟ قال : نعم ؛ فعاهد الله على توبته وخلاه ؛ ثم دعا بالأحوص ، فقال هيه !

الله بينى وبينَ قيِّمها * يفِرّ منّى بها وأتْبَعُ

(١) فى ك : الاهل أنى الحسناء ... وفى أسد الغابة : فمن مبلغ . وفى ب : الخنساء .
(٢) تجذو : تقوم على أطراف الأصابع . (٣) الجوسق : القصر ؛ فارسى معرب .

بل الله بين فيها وبينك ! ثم أمر بنفيه ؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى ، وقال : والله لأردّه ما كان لى سلطان ، فإنه فاسق مجاهر . فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه ، فلا يحلّ سماعه ولا إنشاده فى مسجد ولا غيره ، كمنثور الكلام القبيح ونحوه . وروى إسمعيل بن عيّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حَسَنُ الشعر كحَسَن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام " رواه إسمعيل عن عبد الله الشامى وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره . وروى عبد الله ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام " .

الثالثة — روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحا حتى يَرِيَه خيرٌ من أن يمتلىء شعرا" وفى الصحيح أيضا عن أبى سعيد الخدرى قال : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عرض شاعر يُنشد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذوا الشيطان — أو أمسكوا الشيطان — لَأَنْ يمتلئَ جوفُ رجلٍ قيحا خيرٌ له من أن يمتلئَ شعرا " قال علماؤنا : وإنما فعل النبى صلى الله عليه وسلم هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله ؛ فلعلّ هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقا للتكسب ، فيفرط فى المدح إذا أُعطى ، وفى الهجو والذم إذا مُنع ، فيؤذى الناس فى أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف فى أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام . وكل مايقوله من ذلك حرام عليه ، ولا يحل الإصغاء إليه ، بل يجب الإنكار عليه ؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعا تعيّن عليه أن يداريه بما استطاع ، ويدافعه بما أمكن ، ولا يحلّ له أن يعطى شيئا ابتداء ، لأن ذلك عون على المعصية ؛ فإن لم يجد من ذلك بدًّا أعطاه بنية وقاية العرض ؛ فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتب له به صدقة . قلت : [قوله :](١) "لَأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحا حتى يَرِيَه" القيح المِدّة يخالطها دم . يقال منه : قاح الجُرح يَقيح وتَقَيّح وقَيّح . و " يَرِيه " قال الأصمعى : هو من الوَرْى على

(١) من ك .

مثال الرمي وهو أن يَدْوَى جوفُه، يقال منه : رجل مَوْرِيّ مشدّد غير مهموز . وفي الصحاح : ورى القيح جوفه يرِيه و ريا إذا أكله . وأنشد اليزيدي :

* قالت له وَرْيًا إذا تَنحنحا *

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله : إنه الذي قد غلب عليه الشعر، وامتلأ صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل ، ويسلك به مسالك لا تحمد له ، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول . ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية ، لحكم العادة الأدبية . وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لما بوّب على هذا الحديث « باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر » . وقد قيل في تأويله : إن المراد بذلك الشعر الذي هُجِيَ به النبيّ صلى الله عليه وسلم أو غيره . وهذا ليس بشيء ؛ لأن القليل من هجو النبيّ صلى الله عليه وسلم وكثيره سواء في أنه كفر ومذموم ، وكذلك هجو غير النبيّ صلى الله عليه وسلم من المسلمين محرّم قليله وكثيره ، وحينئذ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى .

الرابعة — قال الشافعي : الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام ، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته، وقد كان عند العرب عظيم الموقع . قال الأوّل منهم

* وجُرح اللسانِ كجُرْح اليدِ *

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم في الشعر الذي يردبه حسان على المشركين : " إنه لأسرع فيهم من رشق النَّبْل " أخرجه مسلم . وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عُمرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحة يمشي بين يديه ويقول :

خَلُّوابني الكفّار عن سبيله * اليومَ نَضربْكُمْ على تنزيله

ضربًا يزيلُ الهامَ عن مَقيلِه * ويُذهِلُ الخليلَ عن خليله

فقال عمر: يابن رَوَاحة ! في حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خل عنه يا عمر فلهو أسرعُ فيهم من نَضح النَّبْل " .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ لم يختلف القراء فى رفع « وَالشُّعَرَاءُ » فيما علمت . ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره « يَتَّبِعُهُمْ » وبه قرأ عيسى آبن عمر ؛ قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حب النصب ؛ قرأ : «وَالسَّارِقَ والسَّارِقَةَ»(١) و «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»(٢) و « سُورَةً أَنْزَلْنَاهَا »(٣) . وقرأ نافع وشيبة والحسن والسُّلَمِىّ : « يَتْبَعُهُمْ » مخففا . الباقون «يَتَّبِعُهُمْ» . وقال الضحاك : تهاجى رجلان أحدهما أنصارىّ والآخر مهاجرىّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل واحد غواةُ قومه وهم السفهاء فنزلت ؛ وقاله آبن عباس. وعنه هم الرواة للشعر . وروى عنه علىّ بن أبى طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضُلَّال الجن والإنس ؛ وقد ذكرناه . وروى غُضَيْف(٤) عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " من أحدث هجاء فى الإسلام فاقطعوا لسانه " وعن آبن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما آفتتح مكة رنّ(٥) إبليس رنة وجمع إليه ذريته ؛ فقال آيئسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ولكن أفشوا فيهما — يعنى مكة والمدينة — الشِّعْر .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ يقول : فى كل لغو يخوضون ، ولا يتبعون سنَنَ الحق ؛ لأن من آتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت ، ولم يكن هائما(٦) يذهب على وجهه لا يبالى ما قال . نزلت فى عبد الله بن الزِّبَعْرَى ومُسافِع بن عبد مناف وأمية بن أبى الصلت . ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ يقول : أكثرهم يكذبون ؛ أى يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه . وقيل : إنها نزلت فى أبى عزة الجُمَحِىّ حيث قال :

ألا أبلغا عنّى النبىّ محمدًا * بأنّكَ حقٌّ والمليكُ حميدُ
ولكنْ إذا ذُكِّرتُ بدرًا وأهلَهُ * تأوّهَ منّى أعظمٌ وجلودُ

ثم آستثنى شعر المؤمنين : حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق ؛ فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ فى كلامهم ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق ،

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٥٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٩ (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٥٨
(٤) فى أ : غصيف . (٥) رن : صاح صيحة حزينة . (٦) كذا فى ز و ب و ط و ك وفى ا و حـ : هاهنا .

وبمـا حدّه الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك فقد ٱنتصر بالبـاطل . وقال أبو الحسن المبرد . لمـا نزلت : « وَالشُّعَرَاءُ » جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يانبي الله ! أنزل الله تعالى هذه الآية ، وهو تعالى يعلم أنا شعراء ؟ فقال : "ٱقرءوا ما بعدها « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » — الآية — أنتم « وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْـدِ مَا ظُلِمُوا » أنتم" أي بالرد على المشركين . قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ٱنتصِروا ولا تقولوا إلا حقا ولا تذكروا الآباء والأمهات" فقال حسان لأبي سفيان :

هجوتَ محمـدًا فأجبتُ عنـه　＊　وعنـدَ الله في ذاك الجـزاءُ
وإنّ أبي ووالدتي وعِرْضي　＊　لِعِـرضِ محمـد منكم وِقاءُ
أتشتمـه ولستَ له بكفءٍ　＊　فشرّكما لخـيركما الفِـداءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيـهِ　＊　وبحـري لا تُكدِّره الدِّلاءُ

وقال كعب يا رسول الله ! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه؟ فقال النبي صلى الله عليـه وسلم : " إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيـده لكأنّ ما ترمونهم به نَضْح النّبل " . وقال كعب :

جاءت سَخِينَـةُ[1] كي تُغالبَ ربَّهَا　＊　وَلَيُغْلَبَنّ مُغَالِبُ الغَـلَّابِ

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا". وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعـالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُـمُ الْغَاوُونَ » منسوخ بقـوله : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » . قال المهـدوي : وفي الصحيح عن ٱبن عباس أنه ٱستثناء . ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ في هذا تهديد لمن ٱنتصر بظلم[2] [قال شريح] سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل ؛ فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصرة.وقرأ ٱبن عباس : «أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ» بالفاء والتاء ومعناهما واحد[2] [ذكره] الثعلبي. ومعنى : « أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى

---

(١) السخينة : طعام حار يتخذ من دقيق وسمن — وقيل من دقيق وتمر — أغلظ من الحساء، وأرق من العصيدة ، وكانت قريش تكثر من أكلها فعيرت بها حتى سموا سخينة .　　(٢) من جـ وز و ك .

النار ، وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع . والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضدّ ما هو فيه ، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلبا ، وليس كل منقلب مرجعا ؛ والله أعلم ؛ ذكره الماوردي . و « أيّ » منصوب بـ « ينقلبون » وهو بمعنى المصدر ، ولا يجوز أن يكون منصوبا بـ « سيعلم » لأن أيا وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكر النحويون ؛ قال النحاس : وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض .

سورة النمل

مكية كلها في قول الجميع ، وهي ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ مضى الكلام في الحروف المقطعة في « البقرة »[1] وغيرها . و « تِلْكَ » بمعنى هذه ؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين . وذكر القرآن بلفظ المعرفة ، وقال : « وَكِتَابٍ مُبِينٍ » بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة ؛ كما تقول : فلان رجل عاقل وفلان الرجل العاقل . والكتاب هو القرآن ، فجمع له بين الصفتين : بأنه قرآن وأنه كتاب ؛ لأنه ما يظهر بالكتابة ، ويظهر بالقراءة . وقد مضى

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ فما بعد .

اشتقاقهما فى « البقــرة » . وقال فى سورة الحجـر : « الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ »[1] فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة ؛ وذلك لأن القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة ، وأن يجعل صفة . ووصفه بالمبين لأنه بيّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده ؛ وقد تقدّم .

قــوله تعــالى : ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « هُــدًى » فى موضع نصب على الحال من الكتاب ؛ أى تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة . ويجوز فيه الرفع على الابتداء ؛ أى هو هــدى . وإن شئت على حذف حرف الصفة ؛ أى فيــه هدى . ويجوز أن يكون الخبر « لِلْمُؤْمِنِينَ » ثم وصفهم فقــال : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وقد مضى فى أوّل « البقرة »[2] بيان هذا .

قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى لا يصدّقون بالبعث . ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قيــل : أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : زينـا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها . وقال الزجاج : جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ماهم فيه . ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يترددون فى أعمالهم الخبيثة ، وفى ضـلالتهم . عن ابن عباس . أبو العالية : يتمـادون . قتادة : يلعبون . الحسن : يتحيرون ؛ قال الراجز :

وَمَهْمَهٍ أطــرافُه فى مَهْمَهِ * أَعْمَى الهُدَى بالحائرين العُمَّهِ[3]

قوله تعــالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ وهو جهنم . ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ . « فِي الْآخِرَةِ » تبيين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ أى يلقى عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه . ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ « لَدُنْ » بمعنى عنــد إلا أنها مبنية غير معربة ؛ لأنها لا تتمكن ، وفيهـا لغات ذكرت فى « الكهف »[1] . وهــذه الآية بساط وتمهيد لمـا يريد أن يسوق من الأقاصيص ، وما فى ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١ و ص ٣٥٢ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٦٢ .
(٣) البيت لرؤبة ، ويروى : بالجاهلين العمه .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ﴾ «إذ» منصوب بمضمر وهو آذكر ؛ كأنه قال على أثر قوله : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » : خذ يا محمد من آثار حكمته وعلمه قصة موسى إذ قال لأهله . ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ أى أبصرتها من بعد . قال الحرث بن حلّزة :

آنَسَتْ نَبْأَةً(١) وأَفْزَعَها القُنَّاصُ عصرًا وقد دَنا الإمساءُ

﴿ سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى : « بِشِهَابٍ قَبَسٍ » بتنوين « شِهابٍ » . والباقون بغير تنوين على الإضافة ؛ أى بشعلة نار ؛ وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وزعم الفرّاء فى ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم : ولدار الآخرة ، ومسجد الجامع ، وصلاة الأولى ؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا آختلفت أسماؤه . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين ، لأن معنى الإضافة فى اللغة ضم شيء إلى شيء

---

(١) آنست : أحست . والنبأة : الصوت الخفى .

فمحال أن يضم الشيء إلى نفسه، و إنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى الملك أو النوع، فمحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها . و « بِشِهَابٍ قَبَسٍ » إضافة النوع والجنس ، كما تقول : هذا ثوبُ خزٍّ، وخاتمُ حديدٍ وشبهه . والشهاب كل ذى نُور؛ نحو الكوكب والعُود الموقَد . والقبَس اسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه ؛ فالمعنى بشهاب من قبس . يقال . أقبست قبسا ؛ والاسم قبس . كما تقول : قبضت قبضا . والاسم القبض . ومن قرأ : « بِشِهَابٍ قَبَسٍ » جعله بدلا منه . المهدوى : أو صفة له ؛ لأن القبس يجوز أن يكون اسما غير صفة، و يجوز أن يكون صفة ؛ فأما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أقبسه قبسا والقبس المقبوس ؛ و إذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتا . والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن . وهى إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه . ولو قرئ بنصب قبس على البيان أو الحال كان أحسن . ويجوز فى غير القرآن بشهابٍ قبسًا على أنه مصدر أو بيان أو حال . «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أصل الطاء تاء فأبدل منها هنا طاء ؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسنا ، ومعناه يستدفئون من البرد . يقال : اصطلى يصطلى إذا استدفأ . قال الشاعر :

النـارُ فاكهةُ الشـتاءِ فمن يُرِدْ * أكلَ الفـواكهِ شاتياً فليصطلِ

الزجاج : كل أبيض ذى نُور فهو شهاب . أبو عبيدة : الشهاب النار . قال أبو النَّجم :

كأنمـا كان شهاباً واقـدَا * أضاء ضوءاً ثم صار خامدَا

أحمد بن يحيى : أصل الشهاب عود فى أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيـه ؛ وقول النحاس فيه حسن : والشهاب الشعاع المضيء ومنه الكوكب الذى يمد ضوءه فى السماء . وقال الشاعر :

فى كفِّـه صَـعْدَةٌ[1] مثقَّفـةٌ * فيهـا سِـنانٌ كشُعلة القبَس

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ أى فلما جاء موسى الذى ظن أنه نار وهى نور ؛ قاله وهب بن منبِّه . فلما رأى موسى النـار وقف قريبا منهـا ، فرآها تخـرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العُلَّيق ، لا تزداد النار إلا عظما وتضرما ، ولا تزداد الشجرة

(١) الصعدة : القناة التى تنبت مستقيمة .

إلا خضرة وحسنا ؛ فعجب منها وأهوى إليها بضغث فى يده ليقتبس منها ؛ فمالت إليه ؛ فخافها فتأخر عنها؛ ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضح أمرها على أنها مأمورة لا يدرى من أمرها، إلى أن « نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » . وقد مضى هذا المعنى فى « طه »[1] . ﴿ نُودِىَ ﴾ أى ناداه الله، كما قال : « وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ »[1] . ﴿ أَنْ بُورِكَ ﴾ قال الزجاج : « أَنْ » فى موضع نصب؛ أى بأنه . قال : ويجوز أن تكون فى موضع رفع جعلها اسم ما لم يسم فاعله . وحكى أبو حاتم أن فى قراءة أُبَىّ وابن عباس ومجاهد « أن بوركت النار ومن حولها » . قال النحاس : ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ، ولو صح لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى . وحكى الكسائىّ عن العرب : باركك الله، وبارك فيك . الثعلبى : العرب تقول باركك الله، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربع لغات . قال الشاعر :

فبوركتَ مولودًا وبوركتَ ناشِئًا * وبوركت عند الشَّيبِ إذ أنتَ أشيبُ

الطبرى : قال « بورِكَ منْ فِي الن[ار] » و[لم] يقل بورك [فى من فى][2] النار على لغة من يقول باركك الله . ويقال باركه الله، وبارك[ه] ، وبارك عليه، وبارك فيه بمعنًى ؛ أى بورك على من فى النار وهو موسى، أو على من فى قرب النار، لا أنه كان فى وسطها. وقال السّدى : كان فى النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة؛ أى بورك فيك ياموسى وفى الملائكة الذين هم حولها. وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال : « رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ »[3] . وقول ثالث قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير : قُدِّس من فى النار وهو الله سبحانه وتعالى ، عنى به نفسه تقدّس وتعالى . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : النار نور الله عز وجل ؛ نادى الله موسى وهو فى النور؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نورا عظيما فظنه نارا ؛ وهذا لأن الله تعالى ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز فى جهة « وَهُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ »[4]

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٧٢ فما بعد وص ١١٣ .
(٢) الزيادة من تفسير الطبرى . وفى ط و ك : ولم يقل بورك على النار
(٣) راجع جـ ٩ ص ٧٠ .
(٤) راجع جـ ١٦ ص ١٢١

لا أنه يتحيز فيهما، ولكن يظهر فى كل فعل فيعلَم به وجود الفاعل. وقيل على هذا: أى بورك من فى النار سلطانه وقدرته. وقيل: أى بورك ما فى النار من أمر الله تعالى الذى جعله علامة.

قلت : ومما يدلّ على صحة قول ٱبن عباس ما خرّجه مسلم فى صحيحه ، وٱبن ماجه فى سننه واللفظ له عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط و يرفعه حجابه النور لو كشفها[1] لأحرقت سُبُحات وجهه كل شىء أدركه بصره " ثم قرأ أبو عبيدة : " أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " أخرجه البيهقى أيضا . ولفظ مسلم عن أبى موسى قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات؛ فقال : " إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط و يرفعه يُرفَع إليه عمُل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور — وفى رواية أبى بكر النار — لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما ٱنتهى إليه بصرُه من خلقه " قال أبو عبيد : يقال السُّبحات إنها جلال وجهه ، ومنها قيل : سبحان الله إنما هو تعظيم له وتنزيه . وقوله : " لو كشفها " يعنى لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبّتهم لرؤيته لاحترقوا وما ٱستطاعوا لها . قال ٱبن جُريج : النار حجاب من الحجب وهى سبعة حجب؛ حجاب العزّة، وحجاب الملك، وحجاب السلطان، وحجاب النار، وحجاب النور، وحجاب الغمام ، وحجاب الماء . و بالحقيقة فالمخلوق المحجوب والله لا يحجبه شىء ؛ فكانت النار نورا وإنما ذكره بلفظ النار ؛ لأن موسى حسبه نارا ، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر . وقال سعيد بن جبير : كانت النار بعينها فأسمعه تعالى كلامه من ناحيتها، وأظهر له ربو بيته من جهتها . وهو كما روى أنه مكتوب فى التوراة : « جاء الله من سيناء وأشرف[2] من ساعير وٱستعلى من جبال فاران » . فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها ، وإشرافه[2] من ساعير بعثه المسيح منها ، وٱستعلاؤه من فاران بعثه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وفاران مكة . وسيأتى فى « القصص[3] » بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

---

(١) لعل تأنيث الضمير بتأويل النور بالأنوار . (هامش ٱبن ماجه) .

(٢) فى ك : وأشرق و إشراقه . وهو الأشبه (٣) راجع ص ٢٨١ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تنزيها وتقديسا لله رب العالمين . وقد تقدّم في غير موضع ، والمعنى : أي ويقول من حولها : « وَسُبْحَانَ اللَّهِ » فحذف . وقيل : إن موسى عليه السلام قاله حين فرغ من سماع النداء ، استعانة بالله تعالى وتنزيها له ؛ قاله السدى . وقيل : هو من قول الله تعالى . ومعناه : وبورك فيمن سبح الله تعالى رب العالمين ؛ حكاه ابن شجرة .

قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الهاء عماد وليست بكناية في قول الكوفيين . والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن . « أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ » الغالب الذى ليس كمثله شيء « الْحَكِيمُ » في أمره وفعله . وقيل : قال موسى يا رب من الذى نادى ؟ فقال له : « إِنَّهُ » أي أنى أنا المنادى لك « أَنَا اللَّهُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ قال وهب بن منبّه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها . وقيل : إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلّم له هو الله ، وأن موسى رسوله ؛ وكل نبيّ لابدّ له من آية في نفسه يعلم بها نبوّته . وفي الآية حذف : أي وألق عصاك فألقاها من يده فصارت حيّة تهتز كأنها جانّ ، وهي الحيّة الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال الكلبي : لاصغيرة ولا كبيرة . وقيل : إنها قلبت له أولا حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة . وقيل : انقلبت مرة حية صغيرة ، ومرة حية تسعى وهي الأنثى ، ومرة ثعبانا وهو الذكر الكبير من الحيات . وقيل : المعنى انقلبت ثعبانا تهتز كأنها جانّ لها عظم الثعبان وخفة الجانّ واهتزازه وهي حية تسعى . وجمع الجانّ جِنّان ؛ ومنه الحديث " نهى عن قتل الجنّان التي في البيوت " . ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ خائفا على عادة البشر ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يرجع ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : لم يلتفت . ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ﴾ أي من الحية وضررها . ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وتم الكلام ثم استثنى استثناء منقطعا فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ . وقيل : إنه استثناء من محذوف ؛ والمعنى : إني لا يخاف لديّ المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ ﴾ فإنه لا يخاف ؛ قاله الفراء .

قال النحاس : آستثناء من محذوف محال ؛ لأنه آستثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز إنى لأضرب القوم إلا زيدا بمعنى إنى لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيدا ؛ وهذا ضــدّ البيان ، والمجيء بما لا يعرف معناه . وزعم الفــرّاء أيضا : أن بعض النحويين يجعل إلا بمعنى الواو أى ولا من ظلم ؛ قال :

وكلُّ أخٍ مفــارِقُه أخوهُ * لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدانِ

قال النحاس : وكون « إلّا » بمعنى الواو لا وجه له ولا يجــوز فى شيء من الكلام ، ومعنى « إلّا » خلاف الواو ؛ لأنك إذا قلت : جاءنى إخوتك إلا زيدا أخرجت زيدا ممــا دخل فيــه الإخوة فلا نســبة بينهما ولا تقارب . وفى الآية قول آخر : وهــو أن يكون الآستثناء متصلا ؛ والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التى لا يسلم منها أحد ، سوى ما روى عن يحيي بن زكريا عليه السلام ، وما ذكره الله تعالى فى نبينا عليه السلام فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[1] ذكره المهــدوى وآختاره النحاس ؛ وقال : علِم الله من عصى منهم [يُسِرّ الخيفة][2] فآستثناه فقال : « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ » فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له . الضحاك : يعنى آدم وداود عليهما السلام . الزمخشرى : كالذى فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى عليه السلام بوكزه القبطى . فإن قال قائل : فمــا معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة ؟ قيل له : هــذه سبيل العلماء بالله عزوجلّ أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين ، وهم أيضا لا يأمنون أن يكون قد بقى من أشراط التوبة شيء لم يأتوا به ، فهــم يخافون من المطالبة به . وقال الحسن وآبن جريج : قال الله لموسى إنى أخفتك لقتلك النفس . قال الحسن : وكانت الأنبيــاء تذنب فتعاقَب . قال الثعلبي والقشيرى والمــاوردى وغيرهم : فالآستثناء على هذا صحيح ؛ أى إلا من ظلم نفسه من النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة . وكان موسى خاف من قتل القبطى وتاب منه . وقد قيل : إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر . وقد مضى هذا فى « البقرة »[3] .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٦١ فما بعد . (٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ فما بعد .

قلت : والأول أصح لتنصلهم من ذلك فى القيامة كما فى حديث الشفاعة ، و إذا أحدث المقرَّب حدثا فهو و إن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة ، والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدّر عليه صفاء الثقة . وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث فى ذلك الفرعونى ، ثم آستغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له ، ثم قال بعد المغفرة : « رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ »(١) ثم آبتلى من الغد بالفرعونى الآخر وأراد أن يبطش به ، فصار حدثا آخر بهذه الإرادة . و إنما آبتلى من الغد لقوله : « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » وتلك كلمة آقتدار من قوله لن أفعل ، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل ، فسلط عليه الإسرائيلى حتى أفشى سره ؛ لأن الإسرائيلى لما رآه تشمر للبطش ظن أنه يريده ، فأفشى عليه فـ « قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فهرب الفرعونى وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلى على موسى ، وكان القتيل بالأمس مكتوما أمره لا يدرى من قتله ، فلما علم فرعون بذلك ، وجّه فى طلب موسى ليقتله ، وآشتد الطلب وأخذوا مجامع الطرق ؛ جاء رجل يسعى فـ « قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » الآية . فخرج كما أخبر الله . فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث ؛ فهو و إن قربه ربه وأكرمه وآصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولّت به ولم يعقّب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾(٢) تقدم فى « طه » القول فيه . ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة فى تسع آيات . المهدوى : المعنى : « أَلْقِ عَصَاكَ » « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » فهما آيتان من تسع آيات . وقال القشيرى معناه : كما تقول خرجت فى عشرة نفر وأنت أحدهم . أى خرجت عاشر عشرة . فـ « فى » بمعنى « من » لقربها منها كما تقول خذ لى عشرا من الإبل فيها فلان أى منها . وقال الأصمعى فى قول آمرئ القيس :

وهل يَنْعَمَنْ(٣) من كان آخرُ عهده * ثلاثين شهرًا فى ثلاثة أحوالِ

(١) راجع ص ٢٦٢ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩١ . (٣) وفى رواية : « وهل يعمن » .

فى بمعنى من . وقيل : فى بمعنى مع ؛ فالآيات عشرة منها اليد، والتسع : الفلق والعصا والجراد والقمّل والطوفان والدم والضفادع والسنين والطّمس[1] . وقد تقدّم بيان جميعه .

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ قال الفرّاء : فى الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه ، أى إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله ؛ وقد تقدّم :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى واضحة بينة . قال الأخفش : ويجوز مَبصرة وهو مصدر كما يقال : الولد مَجْبنة . ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ جروا على عادتهم فى التكذيب فلهذا قال : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحرا، ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى . وهذا يدلّ على أنهم كانوا معاندين . و « ظُلْمًا » و « عُلُوًّا » منصوبان على نعت مصدر محذوف، أى وجحدوا بها جحودا ظلما وعلوا . والباء زائدة أى وجحدوها ؛ قاله أبو عبيدة . ﴿ فَانْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى آخر أمر الكافرين الطاغين، انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه . الخطاب له والمراد غيره .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ أى فهما ؛ قاله قتادة . وقيل : علما بالدين والحكم وغيرهما كما قال : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »[2] . وقيل : صنعة الكيمياء . وهو شاذ . وإنما الذى آتاهما الله النبوّة والخلافة فى الأرض والزبور . « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) الطمس : طمس الشيء إذهابه عن صورته . وقد صير الله أموالهم ودراهمهم حجارة . راجع جـ ٨ ص ٣٧٤ .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٨٠ .

الذى فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين » وفى الآية دليل على شرف العلم و إنافة محله وتقدّم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم وأجزل القِسم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين . « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[1] . وقد تقدّم هذا فى غير موضع .

قوله تعالى : ﴿وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء﴾ قال الكلبي : كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولدا فورث سليمان من بينهم نبوّته وملكه ، ولو كان وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء ؛ وقاله ابن العربي ؛ قال : فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد ؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوّة ، وزاده من فضله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . قال ابن عطية : داود من بنى إسرائيل وكان ملكا وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوّة ، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمى ميراثا تجوزا ؛ وهذا نحو قوله : " العلماء ورثة الأنبياء " ويحتمل قوله عليه السلام : " إنا معشر الأنبياء لا نورث " أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم ، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه ؛ وهذا كما تقول : إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة ، والمراد أن ذلك فعل الأكثر . ومنه ما حكى سيبويه : إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف .

قلت : قد تقدّم هذا المعنى فى « مريم »[2] وأن الصحيح القول الأوّل لقوله عليه السلام : " إنا معشر الأنبياء لا نورث " فهو عام ولا يخرج منه شىء إلا بدليل . قال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبدا من سليمان . قال غيره : ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه ؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخّر له الإنس والجن والطير والوحش ، وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين ، وورث أباه فى الملك والنبوّة ، وقام بعده بشريعته ، وكل نبى جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى ، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها . وبينه وبين الهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة . واليهود تقول ألف

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٩٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ١١ ص ٨١ فما بعد .

وثلاثمائة واثنتان وستون سنة . وقيل : إن بين موته وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من ألف وسبعمائة ، واليهود تنقص منها ثلثمائة سنة ، وعاش نيفا وخمسين سنة .

قوله تعالى : « وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ » أى قال سليمان لبنى إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله « عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » أى تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوّة والخلافة فى الأرض فى أن فهمنا من أصوات الطير المعانى التى فى نفوسها . قال مقاتل فى الآية : كان سليمان جالسا ذات يوم إذ مرّ به طائر يطوف ، فقال لجلسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لى : السلام عليك أيها الملك المسلّط والنبى لبنى إسرائيل ! أعطاك الله الكرامة ، وأظهرك على عدوّك ، إنى منطلق إلى أفراخى ثم أمرّ بك الثانية ؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع؛ فقال إنه يقول : السلام عليك أيها الملك المسلّط ، إن شئت أن تأذن لى كيما أكتسب على أفراخى حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بى ما شئت . فأخبرهم سليمان بما قال؛ وأذن له فانطلق . وقال فرقد السَّبَخيّ : مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا لا يا نبى الله . قال إنه يقول : أكلتُ نصف ثمرة فعلى الدنيا العفَاء . ومرّ بهدهد فوق شجرة وقد نصب له صبىّ فخا فقال له سليمان : احذر يا هدهد ! فقال : يا نبى الله ! هذا صبىّ لا عقل له فأنا أسخر به . ثم رجع سليمان فوجده قد وقع فى حِبالة الصبىّ وهو فى يده ، فقال : هدهد ما هذا ؟ قال : ما رأيتها حتى وقعت فيها يا نبى الله . قال : ويحك ! فأنت ترى الماء تحت الأرض أما ترى الفخ! قال : يا نبى الله إذا نزل القضاء عمِىَ البصر . وقال كعب . صاح وَرَشان عند سليمان ابن داود، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : لِدُوا للموت وابنوا للخراب. وصاحت فاختة، فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : ليت هذا الخلق لم يُخلقوا وليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا . وصاح عنده طاوس، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : كما تدين تدان . وصاح عنده هدهد، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا . قال فإنه يقول : من لا يَرحم لا يُرحم . وصاح صُرَد عنده، فقال : أتدرون ما يقول؟

قالوا : لا . قال إنه يقول : استغفروا الله يا مذنبين ؛ فمن ثمّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وقيل : إن الصُّرَد هو الذى دلّ آدم على مكان البيت . وهو أول من صام ؛ ولذلك يقال للصُّرَد الصوّام؛ روى عن أبى هريرة . وصاحت عنده طِيطَوى فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : كل حىّ ميّت وكل جديد بال . وصاحت خُطَّافة عنده، فقال : أتدرون ما تقول : ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : قدّموا خيرا تجدوه ؛ فمن ثمّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها . وقيل : إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة ، فآنسه الله تعالى بالخُطَّاف وألزمها البيوت ، فهى لا تفارق بنى آدم أنسًا لهم . قال : ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ »[1] إلى آخرها وتمدّ صوتها بقوله « الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . وهدرت حمامة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : سبحان ربى الأعلى عدد ما فى سمواته وأرضه . وصاح قُمْرى عند سليمان، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : سبحان ربى العظيم المهيمن . وقال كعب : وحدثهم سليمان، فقال الغراب يقول : اللهم ٱلعن العشّار ؛ والحِدأة تقول : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » . والقطاة تقول : من سكت سلِم . والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والضفدع يقول : سبحان ربى القدّوس . والبازى يقول : سبحان ربى وبحمده . والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان فى كل مكان .

وقال مكحول : صاح دُرّاج عند سليمان ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » . وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : "الديك إذا صاح قال ٱذكروا الله يا غافلين" . وقال الحسن بن على بن أبى طالب قال النبي صلى الله عليه وسلم : "النسر إذا صاح قال يا بن آدم عش ما شئت فآخرك الموت وإذا صاح العُقاب قال فى البعد من الناس الراحة وإذا صاح القُنْبر قال إلهى ٱلعن مبغضى آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » إلى آخرها فيقول : « وَلَا الضَّالِّينَ » ويمد بها صوته كما يمد القارئ" . قال قتادة والشعبي : إنما هذا الأمر فى الطير خاصة ، لقوله : « عُلِّمْنَا

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٤٤

«مَنطِقَ الطَّيْرِ» والنملة طائر إذ قد يوجد له أجنحة . قال الشعبي : وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين . وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان ، وإنما ذكر الطير لأنه كان جندا من جند سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردّد ترداد أمر الطير . وقال أبو جعفر النحاس : والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام ، والله جل وعز أعلم بما أراد . قال ابن العربي : من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم ، وقد ٱتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات ، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا ، أنفع من كذا وأضر من كذا؛ فما ظنك بالحيوان .

قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ ﴾ «حُشِرَ» جُمِع والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل : «وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» [١] واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام؛ فيقال : كان معسكره مائة فرسخ في مائة : خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرّيّة . ٱبن عطية : وٱختلف في معسكره ومقدار جنده ٱختلافا شديدا غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيما ملأ الأرض ، وٱنقادت له المعمورة كلها . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ معناه يُرَدّ أولهم إلى آخرهم ويُكفّون . قال قتادة : كان لكل صنف وَزَعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيها . يقال : وزعته أوزعه وَزَعا أي كففته . والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم . روى محمد بن إسحق عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى — تعني

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤١٦ .

يوم الفتح — قال أبو قحافة وقد كُفَّ بصرُه يومئذ لابنتـه : أظهرى بى على أبى قُبَيْس . قالت : فأشرفت به عليه فقال : ما ترين ؟ قالت : أرى سوادا مجتمعا . قال تلك الخيل . قالت وأرى رجلا من السواد مقبلا ومدبرا . قال : ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر . وذكر تمام الخبر . ومن هـذا قوله عليه السلام : " ما رؤى الشيطان يوما هو فيـه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لمـا رأى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر " قيل : وما رأى يا رسول الله ؟ قال : " أما أنه رأى جبريل يزع الملائكة " خرّجه الموطأ . ومن هذا المعنى قول النابغة :

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبَا * وقلت أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

آخـر :

ولمـا تلاقَينا جرت من جُفوننـا * دموعٌ وَزَعْنا غَرْبَهـا بالأَصابع

آخـر :

ولا يَزَعُ النفس اللَّجوجَ عن الهوى * من النـاس إلا وافرُ العقل كامله

وقيل : هو من التوزيع بمعنى التفـريق . والقوم أوزاع أى طوائف . وفى القصـة : إن الشياطين نسجت له بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى إبريسم، وكان يوضع له كرسىّ من ذهب وحوله ثلاثة آلاف كرسى من ذهب وفضة فيقعد الأنبيـاء على كراسى الذهب، والعلماء على كراسى الفضة .

الثانيـة — فى الآية دليـل على آتخاذ الإمام والحكام وَزَعَة يكفّون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض ؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم . وقال آبن عون : سمعت الحسن يقول وهو فى مجلس قضائه لمـا رأى ما يصنع الناس قال : والله ما يُصلح هؤلاء الناسَ إلا وَزَعةٌ . وقال الحسن أيضا : لا بدّ للنـاس من وازع ؛ أى من سلطان يكفهم . وذكر آبن القاسم قال حدّثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يَزَعُ الإمام أكثر مما يَزَعُ القرآن ؛ أى من الناس . قال آبن القاسم : قلت لمـالك ما يزع ؟ قال : يكف . قال القاضى أبو بكر ابن العربى : وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع

الناس أكثر ممـا تردعهم حدود القرآن وهـذا جهل بالله وحكمته . قال : فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق، لا زيادة عليها، ولا نقصان معها، ولا يصلح سواها، ولكن الظلمة خاسوا بهـا، وقصروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصدوا وجه الله فى القضاء بها، فلم يرتدع الخلق بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النيـة، لاستقامت الأمور، وصلح الجمهور .

قوله تعـالى : حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنه واد بأرض الشام . وقال كعب : هو بالطائف . ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ﴾ قال الشعبي : كان للنملة جناحان فصارت من الطير، فلذلك علم منطقها ولولا ذلك لمـا علمه . وقد مضى هذا ويأتى . وقرأ سليمان التيمى بمكة : «نَمُلَةٌ» و «النَّمُلُ» بفتح النون وضم الميم . وعنه أيضا ضمهما جميعا . وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها . قال كعب : مرّ سليمان عليه السلام بوادى السَّدير من أودية الطائف، فأتى على وادى النمل، فقامت نملة تمشى وهى عرجاء تتكاوس مثل الذئب فى العظم؛ فنادت : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ » الآية . الزمخشرى : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال ، وكانت تمشى وهى عرجاء تتكاوس؛ وقيل : كان آسمها طاخية . وقال السهيلي : ذكروا آسم النملة المكلِّمة لسليمان عليه السلام، وقالوا آسمها حرميا، ولا أدرى كيف يتصـور للنملة آسم عَلَم والنمـل لا يسمى بعضهم بعضا، ولا الآدميون يمكنهم تسمية

واحدة منهم باسم عَلَم، لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض، ولا هم أيضا واقعون تحت ملكة بنى آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإن العلمية فيما كان كذلك موجودة عند العرب . فإن قلت : إن العلمية موجودة فى الأجناس كثُعَالة وأَسَامة وجَعَارِ وقَثَامِ فى الضّبع ونحو هذا كثير؛ فليس آسم النملة من هذا؛ لأنهم زعموا أنه اسم عَلَم لنملة واحدة معينة من بين سائر النمل، وثعالة ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأيته من ذلك الجنس فهو ثُعالة، وكذلك أُسامة وآبن آوى وآبن عرس وما أشبه ذلك . فإن صح ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملة الناطقة قد سميت بهـذا الاسم فى التوراة أو فى الزبور أو فى بعض الصحف سماها الله تعالى بهـذا الاسم ، وعرفها به الأنبياء قبـل سليمان أو بعضهم . وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها فهذا وجه . ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فقولها : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » التفاتة مؤمن . أى من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لايحطمون نملة فما فوقها إلا بألّا يشعروا. وقد قيل : إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقوله : « ضَاحِكًا » إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا ، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزئين . وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يُسرّ نبيّ بأمر دنيا؛ وإنما سُرّ بما كان من أمر الآخرة والدين . وقولها : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إشارة إلى الدين والعدل والرأفة. ونظير قول النملة فى جند سليمان : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » قول الله تعالى فى جند محمد صلى الله عليه وسلم : «فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ»[1] . التفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن . إلا أن المثنى على جنـد سليمان هى النملة بإذن الله تعالى، والمثنى على جند محمد صلى الله عليه وسلم هو الله عز وجل بنفسه ؛ لمـا لجنود محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل على جند غيره من الأنبياء ؛ كما لمحمد صلى الله عليـه وسلم فضل على جميع النبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين . وقـرأ شهر بن حوشب : « مَسْكَنَكُمْ » بسكون السين على الإفراد . وفى مصحف أبىّ « مَسَـاكِنَكُنَّ لَا يَحْطِمَنْكُمْ » . وقرأ سليمان التّيمى : « مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنْكُنَّ » ذكره النحاس؛ أى لا يكسرنكم بوطئهم عليكم وهم لا يعلمون بكم

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٨ .

قال المهدوى : وأفهم الله تعالى النملة هـذا لتكون معجزة لسليمان . وقال وهب : أمر الله تعالى الريح الا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته فى سمـع سليمان ؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده . وقد قيل : إن هذا الوادى كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد قاله الكلبى . وقال نَوْف الشامى وشَقيق بن سَلَمة : كان نمـل ذلك الوادى كهيئة الذئاب فى العظم . وقال بُرَيْدَة الأسلمى : كهيئة النعاج . قال محمـد بن على الترمذى : فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت ، وإنمـا افتقد صوت النمل لصغر خلقها ، وإلا فالأصوات فى الطيور والبهائم كائنة ، وذلك منطقهم ، وفى تلك المناطق معانى التسبيح وغير ذلك ، وهو قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »(١) .

قلت : وقـوله « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ » يدل على صحة قول الكلبى ؛ إذ لو كانت كهيئة الذئاب والنعاج لمـا حطمت بالوطء ؛ والله أعلم . وقال : « ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » فجاء على خطاب الآدميين لأن النمل هاهنا أجرى مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون . قال أبو إسحق الثعلبى : ورأيت فى بعض الكتب أن سليمان قال لهـا لِمَ حذّرتِ النمـل ؟ أخفت ظلمى ؟ أما علمتِ أنى نبىّ عدل ؟ فلم قلت « يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ » فقالت النملة : أما سمعت قولى : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » مع أنى لم أرد حطم النفوس ، وإنمـا أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثـل ما أعطيت ، أو يفتتن بالدنيـا ، ويشـتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر . فقال لها سليمان : عظينى . فقالت النملة : أما علمت لِمَ سُمِّى أبوك داود؟ قال : لا . قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده ؛ هل علمت لِمَ سُمِّيت سليمان ؟ قال : لا . قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، وإن لك أن تلحق بأبيك(٢) . ثم قالت : أتدرى لِمَ سخر الله لك الريح ؟ قال : لا . قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح . ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ﴾ متعجبا ثم مضت مسرعة إلى قومها ، فقالت : هل عندكم من شيء نهـديه إلى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ فما بعد .

(٢) العبارة فى « قصص الأنبياء » للثعلبى : « قالت لأنك سليم ركنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك ، وحق لك أن تلحق بأبيك داود .

نبيّ الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدى له ! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة . قالت : حسنة ؛ آيتونى بها . فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها ، فأمر الله الريح فحملتها ، وأقبلت تشق الأنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة من فيها فى كفّه ، وأنشأت تقول :

ألم تَرَنا نُهـدِى إلى الله مَالَهُ * وإن كان عنه ذاغنى فهو قابلُهْ
ولو كان يُهـدَى للجليل بقدره * لقصّر عنه البحرُ يوما وساحلُهْ
ولكننا نُهـدى إلى من نُحبُّـه * فيرضى به عنا ويشـكر فاعلُهْ
وما ذاك إلا من كريمٍ فعـالُه * وإلا فمـا فى ملكنا ما يشاكلُهْ

فقال لها : بارك الله فيكم ؛ فهـم بتلك الدعوة أشـكر خلق الله وأكثر خلق الله . وقال ابن عباس : نهى النبي صلى الله عليـه وسلم عن قتل أربع من الدواب : الهدهد والصُّرَد والنّملة والنحلة ؛ خرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبـد الحق وروى من حديث أبى هريرة . وقد مضى فى « الأعراف »[1] . فالنمـلة أثنت على سـليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليـه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم ، ولا يفعلون ذلك عن عمـد منهم ، فنفت عنهم الجـور ؛ ولذلك نهى عن قتلها ، وعن قتل الهدهد؛ لأنه كان دليل سليمان على المـاء ورسـوله إلى بلقيس . وقال عكرمة : إنمـا صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارًّا بوالديه . والصُّرَد يقال له الصوّام . وروى عن أبى هريرة قال : أوّل من صام الصُّرد ولمـا خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم فى بناء البيت كانت السكينة[2] معه والصُّرَد ، فكان الصّرد دليله على الموضع والسكينة مقداره، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضـع البيت ونادت وقالت : آبن يا إبراهيم على مقدار ظلّى . وقد تقدّم فى « الأعراف »[1] سبب النهى عن قتل الضفدع وفى « النحل »[3] النهى عن قتل النحل ، والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٠ .

(٢) السكينة : سحابة كما فى القصة . وفى حديث على رضى الله عنه إن السكينة ريح سريعة المر . وليس بواضح .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٣٤ .

الثانيـة — قرأ الحسن : « لَا يَحَطِّمَنَّكُمْ » وعنه أيضا « لَا يِحِطِّمَنَّكُمْ » وعنه أيضا وعن أبى رجاء : « لَا يُحَطِّمَنَّكُمْ » والحَطْم الكسر . حطمته حَطْما أى كسرته وتحطَّم ؛ والتحطيم التكسير ، « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » يجوز أن يكون حالا من سليمان وجنوده ، والعامل فى الحال « يَحْطِمَنَّكُمْ » . أو حالا من النملة والعامل « قَالَتْ » : أى قالت ذلك فى حال غفلة الجنود ؛ كقولك : قمت والناس غافلون . أو حالا من النمل أيضا والعامل « قَالَتْ » على أن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها . وفيه بعدٌ وسيأتى .

الثالثـة — روى مسلم من حديث أبى هريرة عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم " أن نمـلة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمـل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفى أن قرصتك نمـلة أهلكت أمة من الأمم تسبِّح " وفى طريق آخر : " فهلا نملة واحدة " . قال علماؤنا : يقال إن هذا النبيّ هو موسى عليه السلام ، وإنه قال : يا رب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع . فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده ، فسلّط عليه الحر حتى آلتجأ إلى شجرة مستروحا إلى ظلّها ، وعندها قرية النمل ، فغلبه النوم ، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرته ، فدلكهنّ بقدمه فأهلكهنّ ، وأحرق تلك الشجرة التى عندها مساكنهم ، فأراه الله العبرة فى ذلك آية : لما لدغتك نملة فكيف أصبت الباقين بعقوبتها ! يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة ، وشرا ونقمة على العاصى . وعلى هذا فليس فى الحديث ما يدلّ على كراهةٍ ولا حظرٍ فى قتل النمل ؛ فإن من آذاك حلّ لك دفعه عن نفسك ، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن ، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار ، فكيف بالهوام والدواب التى قد سخرت لك وسلطت عليها ، فإذا آذاك أبيح لك قتله . وروى عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله . وقوله : " ألا نملة واحدة " دليل على أن الذى يؤذِى يؤذَى ويقتـل ، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عنـد العلماء . وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التى لدغت من غيرها ؛ لأنه ليس المراد القصاص ؛ لأنه لو أراده لقـال ألا نملتك التى لدغتك ، ولكن قال : ألا نمـلة مكان نملة ؛ فعم البرىء

والجانى بذلك، ليعلم أنه أراد أن ينبهه لمسئلته ربّه فى عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والعاصى. وقد قيـل : إن هذا النبيّ كانت العقوبة للحيـوان بالتحريق جائزة فى شرعه ؛ فلذلك إنمـا عاتبه الله تعالى فى إحراق الكثير من النمل لا فى أصل الإحراق . ألا ترى قوله : "فهلا نملة واحدة" أى هلا حرقت نمـلة واحدة . وهذا بخلاف شرعنا ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التعذيب بالنار . وقال : "لا يعذب بالنار إلا الله" وكذلك أيضا كان قتل النمل مباحا فى شريعة ذلك النبيّ ؛ فإن الله لم يعتبه على أصل قتل النمل . وأما شرعنا فقد جاء من حديث ابن عبـاس وأبى هريرة النهى عن ذلك . وقـد كره مالك قتل النمـل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل . وقد قيل : إن هذا النبيّ إنمـا عاتبه الله حيث انتقم لنفسه بإهلاك جمع آذاه واحد ، وكان الأولى الصبر والصفح ؛ لكن وقع للنبيّ أن هذا النوع مؤذ لبنى آدم ، وحرمة بنى آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق ؛ فلو انفرد له هذا النظر ولم ينضم إليه التشفى الطبعى لم يعاتب . والله أعلم . لكن لمـا انضاف إليه التشفى الذى دلّ عليه سياق الحديث عوتب عليه .

الرابعـــة — قوله : "أن قرصتك نمـلة أهلكت أمة من الأمم تسـبح" مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق ، كما أخبر الله عن النمل أن لهـا منطقا وفَهِمه سليمان عليه السلام — وهذا معجزة له — وتبسم من قولها . وهـذا يدلّ دلالة واضحة أن للنمل نطقا وقولا ، لكن لا يسمعه كل أحد، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبيّ أو ولىّ . ولا ننكر هـذا من حيث أنا لا نسمع ذلك ؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المـدرك فى نفسه . ثم إن الإنسان يجد فى نفسه قولا وكلاما ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه . وقد خرق الله العادة لنبينا محمد صلى الله عليه وسـلم فأسمعه كلام النفس من قوم تحدّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بمـا فى نفوسهم، كما قد نقل منه الكثير من أئمتنا فى كتب معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وكذلك وقع لكثير ممن أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك فى غير ما قضية . وإياه عنى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : "إن فى أمتى محدّثين وإن عمر منهم" . وقد مضى هذا المعنى

فى [تسبيح][1] الجمـاد فى « سبحان »[2] وأنه تسبيح لسان ومقـال لا تسبيح دلالة حال .
والحمــد لله .

الخامســة — قوله تعالى : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا » وقرأ آبن السميقع : « ضحكا » بغير ألف، وهو منصوب على المصدر بفعل محذوف يدلّ عليه تبسم ، كأنه قال ضحك ضحكا ، هذا مذهب سيبويه . وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس « تَبَسَّمَ » لأنه فى معنى ضحك . ومن قــرأ : « ضَاحِكًا » فهو منصوب على الحـال من الضمير فى « تَبَسَّمَ » . والمعنى تبسم مقدار الضحك؛ لأن الضحك يستغرق التبسم ، والتبسم دون الضحك وهو أوّله . يقـال : بَسَمَ (بالفتح) يَبْسِم بَسْمًا فهو باسم وآبتسم وتبسم ، والمَبْسِم الثغر مثل المجلس من جلس يجلس ورجل مِبسام و بَسّـام كثير التبسم ، فالتبسم آبتــداء الضحك . والضحك عبارة عن الآبتداء والآنتهاء ، إلا أن الضحك يقتضى مزيدا على التبسم ، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قيل قهقه . والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام فى غالب أمرهم . وفى الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له : أكنت تجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم؟ قال : نعم كثيرا ؛ كان لا يقوم من مصلّاه الذى يصلّى فيه الصبح — أو الغداة — حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدّثون ويأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم . وفيه عن سعد قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين[3] ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آرم فِداك أبى وأمّى" قال فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه . فكان عليه السلام فى أكثر أحواله يتبسم . وكان أيضا يضحك فى أحوال أُخَر ضحكا أعلى من التبسم وأقل من الاستغراق الذى تبدو فيه اللَّهَوات . وكان فى النادر عند إفراط تعجبه ربمـا ضحك حتى بدت نواجذه . وقد كره العلماء منه الكثرة؛ كما قال لقمان لآبنه : يا بنيّ إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب . وقــد روى مرفوعا من

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ فما بعد .
(٣) "أحرق المسلمين" أى أثخن فيهم ، وعمل فيهم نحو عمل النار . « هامش مسلم » .

حديث أبي ذر وغيره . وضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين رمى سعدا الرجل فأصابه ، إنما كان سرورا بإصابته لا بانكشاف عورته ؛ فإنه المنزّه عن ذلك صلى الله عليه وسلم .

السادسة — لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول . وقد قال الشافعي : الحمام أعقل الطير . قال ابن عطية : والنمل حيوان فطن قوى شمام جدا يدّخر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت ، ويشق الكزبرة بأربع قطع ؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقتين ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره عدّة . قال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها ؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنور الإسفرايني : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات ، ووحدانية الإله ، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا ، أما أنّا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ فـ « أن » مصدرية . و « أَوْزِعْنِي » أي ألهمني ذلك . وأصله من وزع فكأنه قال : كفّني عما يسخط . وقال محمد بن إسحق : يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي امرأة أوريا التي امتحن الله بها داود ، أو أنه بعد موت زوجها تزوّجها داود فولدت له سليمان عليه السلام . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة « ص »[1] إن شاء الله تعالى .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي مع عبادك ، عن ابن زيد . وقيل : المعنى في جملة عبادك الصالحين .

قوله تعالى : وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٦٥ .

مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

فيه ثمانية عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ ذكر شيئا آخر مما جرى له في مسيره الذي كان فيه من النمل ما تقدّم . والتفقد تطلّب ما غاب عنك من شيء . والطير اسم جامع والواحد طائر ، والمراد بالطير هنا جنس الطير و جماعتها . وكانت تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها . وآختلف الناس في معنى تفقده للطير ؛ فقالت فرقة : ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك ، والتَّهمّم بكل جزء منها ؛ وهذا ظاهر الآية . وقالت فرقة : بل تفقد الطير لأن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب ؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير ؛ ليتبيّن من أين دخلت الشمس . وقال عبد الله بن سَلَام : إنما طلب الهدهد لأنه آحتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض ؛ لأنه كان نزل في مفازة عُدِم فيها الماء ، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها ؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء ، ثم كانت الجنّ تخرجه في ساعة يسيرة ؛ تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة ؛ قاله آبن عباس فيما روى عن آبن سَلَام . قال أبو مِجْلَز قال آبن عباس لعبد الله بن سَلَام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل . قال : أتسألني وأنت تقرأ القرآن ؟ قال . نعم ثلاث مرات . قال : لم تفقد سليمان الهدهد دون

سائر الطير ؟ قال : احتاج إلى المـاء ولم يعرف عمقه — لو قال مسافته — وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقده . وقال فى كتاب النقاش : كان الهدهد مهندسا . وروى أن نافع بن الأزرق سمع ابن عبـاس يذكر شأن الهدهد فقال له : قف يا وقاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفـخ حين يقع فيه ؟ ! فقـال له ابن عباس : إذا جاء القدر عَمِى البصر . وقال مجاهد : قيل لابن عباس كيف تفقّد الهدهد من الطير ؟ فقـال : نزل منزلا ولم يدر ما بُعْد المـاء ، وكان الهدهد مهتديا إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت كيف يهتدى والصبيّ يضع له الحِبَالة فيصيده ؟ ! فقال : إذا جاء القدر عَمِيَ البصر . قال ابن العربى : ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن .

قلت : هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان كما تقدّم . وأنشدوا :

إذا أراد الله أمرًا بامرئٍ * وكان ذا عقـلٍ ورأيٍ ونَظَرْ
وحيـلةٍ يعملها فى دفـع ما * يأتى بِهِ مكروهُ أسبابِ القَدَرْ
غَطّى عليــه سمعَه وعقـلَه * وسَلَّه من ذهنه سـلَّ الشَّعَرْ
حتى إذا أنفذ فيـــه حكمه * ردّ عليــه عقـــلَه ليعتـبرْ

قال الكلبي : لم يكن له فى مسيره إلا هدهد واحد . والله أعلم .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم . فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام المُلْك . ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ؛ قال : لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل[1] عنها عمر . فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان . وفى الصحيح عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بِسَرْغ[2] لقيــه أمراء الأجناد : أبوعبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . الحديث ؛ قال علماؤنا : كان هذا الخروج من عمر بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط .

---

(١) فى ك : لسئل . (٢) سرغ (بسكون الراء وفتحها) : قرية بوادى تبوك من طريق الشام .

وكان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه بنفسه، فقد دلّ القرآن والسنة و بيّنا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيتـه ، ومباشرة ذلك بنفسه ، والسفر إلى ذلك و إن طال . و رحم الله ٱبن المبارك حيث يقول :

وهل أفسدَ الدينَ إلّا الملوكُ　＊　وأحبـارُ ســوءٍ ورهبانُهـا[1]

الثالثــة — قوله تعـالى : « مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ » أي ما للهدهد لا أراه؛ فهو من القلب الذي لا يعرف معناه . وهو كقولك : ما لى أراك كئيبا . أى مالك . والهدهد طير معروف وهدهدته صوته . قال ٱبن عطية : إنمـا مقصد الكلام الهدهد غاب لكنه أخذ اللازم عن مغيبه وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهــة التوقيف على اللازم وهــذا ضرب من الإيجاز . والاستفهام الذى فى قوله : « مَالِيَ » ناب مناب الألف التى تحتاجها أم . وقيل : إنما قال : « مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ » ؛ لأنه ٱعتبر حال نفسه، إذ علم أنه أوتى الملك العظيم، وسخر له الخلق ، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة و إدامة العدل ، فلمـا فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصّر فى حق الشكر، فلأجله سُلِبهَا بجعل يتفقد نفسه؛ فقال : « مَالِيَ » . قال ٱبن العربى : وهذا يفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا مالهم، تفقدوا أعمالَهم؛[2] هذا فى الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصّر فى الفرائض ! . وقرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن وعاصم والكسائى وهشام وأيوب : « مَالِيَ » بفتح الياء وكذلك فى « يس »[3] « وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى » . وأسكنها حمزة و يعقوب . وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو : بفتح التى فى « يسٓ » و إسكان هــذه . قال أبو عمرو : لأن هذه التى فى « النمــل » ٱستفهام ، والأخرى ٱنتفاء . وٱختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان « فَقَـالَ مَالِيَ » . وقال أبو جعفر النحاس : زعم قوم أنهــم أرادوا أن يفرّقوا بين ما كان مبتدأ ، و بين ما كان معطوفا على ما قبله ، وهذا ليس بشىء ؛ وإنمـا هى ياء النفس ، من العرب من يفتحها ومنهم من يسكنها ، فقرءوا باللغتين ؛ واللغة الفصيحة فى ياء النفس أن تكون مفتوحة ؛ لأنها ٱسم وهى على حرف واحد، وكان الٱختيار ألا تسكن فيجحف الٱسم . ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ بمعنى بل .

---

(١) فى ك : « ورهبانا » .　　(٢) فى أحكام القرآن لابن العربى : «إذا فقدوا آمالهم ... الخ» .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ١٧ فما بعد .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ دليل على أن الحدّ على قدر الذنب لا على قدر الجسد، أما أنه يرفق بالمحدود في الزمان والصفة . روى عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه . قال ابن جريج : ريشه أجمع . وقال يزيد بن رومان : جناحاه . فعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظا على العاصين، وعقابا على إخلاله بنَوْبته ورتبته؛ وكأن الله أباح له ذلك، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع . والله أعلم . وفي « نوادر الأصول » قال : حدّثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي، قال حدّثنا عون بن عمارة، عن الحسين الجعفي، عن الزبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة، قال : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه[(١)] . وسيأتي . وقيل : تعذيبه أن يجعل مع أضداده . وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد . وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه . وقيل : إيداعه القفص . وقيل : بأن يجعله للشمس بعد نتفه . وقيل : بتبعيده عن خدمتي، والملوك يؤدّبون بالهجران الجسد[(٢)] بتفريق إلفه . وهو مؤكد بالنون الثقيلة، وهي لازمة هي أو الخفيفة . قال أبو حاتم : ولو قرئت « لَأُعَذِّبَنْهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنْهُ » جاز . ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة بينة . وليست اللام في « لَيَأْتِيَنِّي » لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد؛ ولكن لما جاء في أثر قوله : « لَأُعَذِّبَنَّهُ » وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه . وقرأ ابن كثير وحده : « لَيَأْتِيَنَّنِي » بنونين .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي الهدهد . والجمهور من القراء على ضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها . ومعناه في القراءتين أقام . قال سيبويه : مَكَث يمكث مُكُونا كما قالوا قعد يقعد قعودا . قال : ومَكُث مثل ظَرُف . قال غيره : والفتح أحسن لقوله تعالى : « مَاكِثِينَ »[(٣)] إذ هو من مكث؛ يقال : مَكَث يمكُث فهو ماكث؛ ومَكُث يمكُث مثل عَظُم يعظُم فهو مكيث؛ مثل عظيم . ومَكُث يمكث فهو ماكث؛ مثل حَمُض يحمُض فهو حامض . والضمير في « مَكَثَ » يحتمل أن يكون لسليمان؛ والمعنى : بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل . ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر . فجاء : ﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ وهي :

---

(١) في ك : بأبويه . (٢) في ك : الجنيد : بتفريق إلفه . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦ .

السادســة — أى علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان فى هــذا ردّ على من قال : إن الأنبياء تعلم الغيب . وحكى الفراء « أَحَطُّ » يدغم التــاء فى الطاء . وحكى « أَحَتُّ » بقلب الطاء تاء وتدغم .

السابعــة — قوله تعــالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه، ودفع عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح . وقرأ الجمهور : « سبإٍ » بالصرف . وابن كثير وأبو عمرو : « سَبَأَ » بفتح الهمزة وترك الصرف؛ فالأوّل على أنه اسم رجل نسب إليه قوم ، وعليه قول الشــاعر :

الواردونــ وتيم فى ذُرَى سبإٍ * قد عَضّ أعناقَهُمْ جلدُ الجواميس

وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل،وقال : «سبأ» اسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام .

قلت : [وقع فى عيون المعانى للغزنوى ثلاثة أميال. قتادة والسدى بعث إليه اثنا عشر نبيا](١) .

وأنشد للنابغة الجعْدى :

من سَبَأَ الحــاضِرين مَأرِبَ إذْ * يبْنُون مرــ دون سَيْلِهِ العَرِمَا

قال : فمن لم يصرف قال إنه اسم مدينــة ، ومن صرف وهو الأكثر فلأنه اسم البلد فيكون مذكرا سمى به مذكر . وقيــل : اسم امرأة سميت بها المدينة . والصحيح أنه اسم رجل ، كذلك فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مُسَيْك المرادى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : وسيأتى إن شاء الله تعالى . قال ابن عطية : وخفى هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواء . وزعم الفــرّاء أن الرُّؤاسيّ سأل أبا عمرو بن العــلاء عن سبإ فقال : ما أدرى ما هو . قال النحاس : وتأوّل الفرّاء على أبى عمرو أنه منعه من الصرف لأنه مجهول ، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم ينصرف. وقال النحاس : وأبو عمرو أجلّ من أن يقول مثل هذا ،وليس فى حكاية الرُّؤاسي عنه دليل أنه إنمــا منعه من الصرف لأنه لم يعرفه، وإنما قال لا أعرفه، ولو سئل نحويّ عن اسم فقال لا أعرفه لم يكن فى هذا دليل على أنه يمنعه من الصرف، بل الحق على غير هذا؛ والواجب إذا لم يعرفه أن يصرفه؛ لأن أصل الأسماء الصرف ؛ وإنمــا يمنع الشيء

(١) فى ب .

من الصرف لعلة داخلة عليه؛ فالأصل ثابت بيقين فلا يزول بما لا يعرف . وذكر كلاما كثيرا عن النحاة وقال فى آخره : والقول فى «سبإ» ما جاء التوقيف فيه أنه فى الأصل آسم رجل، فإن صرفته فلأنه قد صار آسما للحى، وإن لم تصرفه جعلته آسما للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف وحجته فى ذلك قاطعة؛ لأن هذا الآسم لما كان يقع له التذكير والتأنيث كان التذكير أولى؛ لأنه الأصل والأخف .

الثامنة — وفى الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندى ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه . هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضى الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان . وكان علم التيمم عند عمار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا : لا يتيمم الجنب . وكان حكم الإذن فى أن تنفر الحائض عند آبن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت . وكان غسل رأس المحرم معلوما عند آبن عباس وخفى عن المِسْوَر بن مَخْرَمة . ومثله كثير فلا يطول به .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿إِنِّى وَجَدْتُ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ لما قال الهدهد : «جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ» قال سليمان : وما ذلك الخبر ؟ قال : «إِنِّى وَجَدْتُ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ» يعنى بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبإ . ويقال : كيف خفى على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطّه وبين بلدها قريبة، وهى من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف . ويروى أن أحد أبويها كان من الجن . قال ابن العربى : وهذا أمر تنكره الملحدة[1]، ويقولون : الجن لا يأكلون ولا يلدون؛ كذبوا لعنهم الله أجمعين؛ ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلا فإن صح نقلا فبها ونعمت .

قلت : خرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال : قدم وفد من الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : يا محمد آنْهَ أمتك أن يستنجوا بعظم أو روثة أو جمجمة فإن الله جاعل لنا فيها رزقا . وفى صحيح مسلم : فقال "لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم" فقال رسول الله صلى الله

(١) قال محققه : أنكره جمع من فحول العلماء كالماوردى، وهو الحق لأنه لا يمكن التزاوج بين جنسين متباينين .

عليه وسلم : " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن " وفى البخارى من حديث أبى هريرة قال فقلت : ما بال العَظْم والرَّوثة ؟ فقال : " هما من طعام الجن وإنه أتانى وفدُ جن نَصيبين ونِعْم الجنُّ فسألونى الزاد فدعوت الله تعالى ألا يمروا بعظم ولا رَوْثة إلا وجدوا عليها طعاما " وهذا كله نص فى أنهم يطعمون . وأما نكاحهم فقد تقدّمت الإشارة إليه فى « سبحان » عند قوله : « وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » (١) . وروى وهيب بن جرير ابن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم بلقيس من الجنّ يقال لها بلعمة بنت شيصان . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

العاشرة — روى البخارى من حديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال : " لن يُفلح قوم ولّوا أمرَهم امرأة " قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا نص فى أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه ؛ ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه ، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبى حنيفة أنها إنما تقضى فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدّمة على الحكم ، وإنما سبيل ذلك التحكيم (٢) والاستنابة فى القضية الواحدة ، وهذا هو الظن بأبى حنيفة وابن جرير . وقد روى عن عمر أنه قدّم امرأة على حِسبة السوق . ولم يصح فلا تلتفتوا إليه ، فإنما هو من دسائس (٣) المبتدعة فى الأحاديث . وقد تناظر فى هذه المسئلة القاضى أبو بكر بن الطيب المالكى الأشعرى مع أبى الفرج بن طَرَار شيخ الشافعية ، فقال أبو الفرج : الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضى لها ، وسماع البينة عليها ، والفصل بين الخصوم فيها ، وذلك ممكن من المرأة كإمكانه من الرجل . فاعترض عليه القاضى أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى ؛ فإن الغرض منه حفظ الثغور ، وتدبير الأمور وحماية البَيْضة ، وقبض الخراج ورده على مستحقه ، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل . قال ابن العربى : وليس

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٩ . (٢) فى ب و ك : كسبيل التحكيم . (٣) فى ك : من وساوس .

كلام الشيخين فى هذه المسئلة بشىء؛ فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت بَرْزَة(١) لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم؛ ولن يفلح قطّ من تصور هذا ولا من اعتقده .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مبالغة ؛ أى مما تحتاجه المملكة . وقيل : المعنى أوتيت من كل شىء فى زمانها شيئا فحذف المفعول؛ لأن الكلام دلّ عليه . ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أى سرير؛ ووصفه بالعظم فى الهيئة ورتبة السلطان . قيل : كان من ذهب تجلس عليه . وقيل : العرش هنا الملك؛ والأوّل أصح؛ لقوله تعالى : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » . الزمخشرى : فإن قلت كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله فى الوصف بالعظيم ؟ قلت : بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض . قال ابن عباس : كان طول عرشها ثمانين ذراعا ، وعرضه أربعين ذراعا، وارتفاعه فى السماء ثلاثين ذراعا ، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر. قتادة : وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مُسترًا بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق . مقاتل : كان ثمانين ذراعا [فى ثمانين(٢) ذراعا] ، وارتفاعه من الأرض ثمانون ذراعا، وهو مكلل بالجواهر . ابن إسحق : وكان يخدمها النساء، وكان معها لخدمتها ستمائة امرأة . قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها امرأة ملكت على مدائن اليمن ، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قيل : كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى . وقيل : كانوا مجوسا يعبدون الأنوار . وروى عن نافع أن الوقف على « عرش » . قال المهدوى :

---

(١) البرزة هنا : الكهلة التى تحتجب احتجاب الشواب؛ وهى مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم .

(٢) من ب و ك .

فعظيم على هذا متعلق بمـا بعده ، وكان ينبغى على هذا أن يكون عظيم أن وجدتها ؛ أى[1] وجودى إياها كافرة . وقال ابن الأنبارى : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » وقف حسن ، ولا يجوز أن يقف على « عرش » ويبتدئ « عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا » إلا على من فتح ؛ لأن عظيما نعت لعرش فلو كان متعلقا بوجدتها لقلت عظيمة وجدتها ؛ وهذا محال من كل وجه . وقد حدثنى أبو بكر محمد بن الحسين بن شهريار ، قال : حدثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العِجلىّ ، عن بعض أهل العلم أنه قال : الوقف على « عرش » والابتداء « عظيم » على معنى عظيم عبادتهم الشمس والقمر . قال : وقد سمعت من يؤيد هذا المذهب ، ويحتج بأن عرشها أحقر وأدق شأنا من أن يصفه الله بالعظيم . قال ابن الأنبارى : والاختيار عندى ما ذكرته أولا ؛ لأنه ليس على إضمار عبادة الشمس والقمر دليـل . وغير منكر أن يصف الهدهد عرشها بالعظيم إذ رآه متناهى الطول والعرض ، وجريه على إعراب « عرش » دليل على أنه نعته . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ما هم فيه من الكفر . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى عن طريق التوحيد . وبين بهـذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق . ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الله وتوحيده .

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة : « أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ » بتشديد « أَلَّا » قال ابن الأنبارى : « فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ » غير تام لمن شدد « أَلَّا » لأن المعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا . قال النحاس : هى « أن » دخلت عليها « لا » و « أن » فى موضع نصب ؛ قال الأخفش : بـ « ـزين » أى وزين لهم لئلا يسجدوا لله . وقال الكسائى : بـ « ـفصدهم » أى فصدهم ألا يسجدوا . وهو فى الوجهين مفعول له . وقال اليزيدى وعلى بن سليمان : « أن » بدل من « أعمالهم » فى موضع نصب . وقال أبو عمرو : و « أن » فى موضع خفض على البدل من السبيل . وقيل : العامل فيها « لَا يَهْتَدُونَ » أى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ؛ أى لا يعلمون أن ذلك واجب عليهم . وعلى هذا القول « لا » زائدة ، كقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »[2] أى ما منعك أن تسجد . وعلى هذه القراءة

(١) فى ب وك : أى عظيم وجودى أنها كابرة .
(٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٩ فما بعد .

فليس بموضع سجدة ؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالتزيين، أو بالصد، أو بمنع الاهتداء . وقرأ الزهرى والكسائى وغيرهما : « أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ »[1] بمعنى ألا ياهؤلاء اسجدوا ؛ لأن « يا » ينادى بها الأسماء دون الأفعال . وأنشد سيبويه :

يا لعنةُ اللهِ والأقوامِ كلِّهمُ * والصَّالحين على سِمْعَانَ من جَارِ

قال سيبويه : (يا) لغير اللعنة ، لأنه لو كان للعنة لنصبها ، لأنه كان يصير منادى مضافا ، ولكن تقديره ياهؤلاء لعنة الله والأقوام على سمعان . وحكى بعضهم سماعا عن العرب : ألا يا ارحموا ألا يا اصدُقوا . يريدون ألا ياقوم ارحموا اصدُقوا ، فعلى هذه القراءة « اسْجُدُوا » فى موضع جزم بالأمر والوقف على « أَلَا يَا » ثم تبتدئ فتقول : « اسْجُدُوا » . قال الكسائى : ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر . وفى قراءة عبد الله : « أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » بالتاء والنون . وفى قراءة أبىّ « أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » فهاتان القراءتان حجة لمن خفف . الزجاج : وقراءة التخفيف تقتضى[2] وجوب السجود دون التشديد . واختار أبو حاتم وأبو عبيدة قراءة التشديد . وقال : التخفيف وجه حسن إلا أن فيه انقطاع الخبر من أمر سبأ . ثم رجع بعد إلى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع فى وسطه . ونحوه قال النحاس . قال : قراءة التخفيف بعيدة ؛ لأن الكلام يكون معترضا ، وقراءة التشديد يكون الكلام بها متسقا ، وأيضا فإن السواد على غير هذه القراءة ؛ لأنه قد حذف منها ألفان ، وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو ياعيسى بن مريم . ابن الأنبارى : وسقطت ألف « اسجدوا » كما تسقط مع هؤلاء إذا ظهر ، ولما سقطت ألف « يا » واتصلت بها ألف « اسْجُدُوا » سقطت ، فعد سقوطها دلالة على الاختصار وإيثارا لما يخف وتقل ألفاظه . وقال الجوهرى فى آخر كتابه : قال بعضهم : إن « يا » فى هذا الموضع إنما هو للتنبيه كأنه قال : ألا اسجدوا لله ، فلما أدخل عليه « يا » للتنبيه سقطت الألف التى فى « اسْجُدُوا » لأنها

(١) الألوسى : « ألا » بالتخفيف على أنها للاستفتاح و « يا » حرف نداء ، والمنادى محذوف ؛ أى ألا ياقوم اسجدوا وسقطت ألف الوصل فى « اسجدوا » وكتبت الياء متصلة بالسين على خلاف القياس .

(٢) وفى ب : تعطى .

ألف وصــل، وذهبت الألف التي في « يا » لاجتماع الساكنين؛ لأنها والسين ساكنتان .
قال ذو الرُّمة :

أَلَا يا اسْلَمِي يا دارَمَيَّ على البِلَى　＊　وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

وقال الجرجاني : هو كلام معترض من الهدهد أو سليمان أو من الله . أي ألا ليسجدوا؛ كقوله تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ »(١) قيل : إنه أمر أي ليغفروا، وتنتظم على هذا كتابة المصحف ؛ أي ليس هاهنا نداء . قال ابن عطية : قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله « العظِيمِ » وهو قول ابن زيد وابن إسحق؛ ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في معنى شرع . ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم . ويحتمل أن يكون من [قول](٢) الله تعالى فهو اعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل، وقراءة التشديد في « ألّا » تعطى أن الكلام للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه، والتخفيف يقتضي الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر على ما بيناه . وقال الزمخشري : فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا أم في إحداهما ؟ قلت هي واجبة فيهما جميعا؛ لأن مواضع السجدة إما أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذم [لمن](٢) تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك .

قلت : وقد أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما في « الانشقاق »(٣) وسجد النبي صلى الله عليه وسلم فيها، كما ثبت في البخاري وغيره فكذلك « النمل » . والله أعلم . الزمخشري : وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه .

﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ خَبْء السماء قطرها، وخَبْء الأرض كنوزها ونباتها . وقال قتادة : الخَبْء السر . النحاس : وهذا أولى . أي ما غاب في السموات والأرض، ويدلّ عليه « مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » . وقرأ عكرمة ومالك بن دينار : « الخبَ » بفتح الباء من غير همز . قال المهدوي : وهو التخفيف القياسي؛ وذكر من يترك الهمز في الوقف . وقال النحاس :

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠ فما بعد .　(٢) من ك .　(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٧٢ فما بعد .

وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ : «الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبَا» بألف غير مهموزة، وزعم أن هذا لا يجوز في العربية، واعتلّ بأنه إن خفّف الهمزة ألقى حركتها على الباء فقال : « الْخَبَ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » وأنه إن حوّل الهمزة قال : الْخَبْيَ بإسكان الباء و بعدها ياء . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلده لم يلق أعلم منه . وحكى سيبويه عن العرب أنها تبدل من الهمزة ألفا إذا كان قبلها ساكن وكانت مفتوحة، وتبدل منها واوا إذا كان قبلها ساكن وكانت مضمومة، وتبدل منها ياء إذا كان قبلها ساكن وكانت مكسورة؛ فتقول : هذا الْوَثْوُ وعجبت من الْوَثْيِ[(١)] ورأيت الْوَثَا؛ وهذا من وَثِئَت يدُه؛ وكذلك هذا الْخَبْوُ وعجبت من الْخَبْيِ، ورأيت الخَبَا؛ و إنما فعل هذا لأن الهمزة خفيفة فأبدل منها هذه الحروف . وحكى سيبويه عن قوم من بنى تميم و بنى أسد أنهم يقولون : هـذا الخبُؤُ؛ يضمون الساكن إذا كانت الهمزة مضمومة ، ويثبتون الهمزة و يكسرون الساكن إذا كانت الهمزة مكسورة ، و يفتحون الساكن إذا كانت الهمزة مفتوحة . وحكى سيبويه أيضا أنهم يكسرون و إن كانت الهمزة مضمومة، إلا أن هـذا عن بنى تميم؛ فيقولون : الرِّدِئُ[(٢)]؛ وزعم أنهم لم يضموا الدال لأنهم كرهوا ضمة قبلها كسرة؛ لأنه ليس فى الكلام فِعُلٌ . وهذه كلّها لغات داخلة على اللغة التى قرأ بها الجماعة؛ وفى قراءة عبد الله « الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّمٰوَاتِ » و « من » و « فى » يتعاقبان؛ تقول العرب : لأستخرجنّ العلم فيكم يريد منكم؛ قاله الفراء . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قراءة العامة فيهما بياء [الغائب][(٣)]، وهذه القراءة تعطى أن الآية من كلام الهدهد، وأن الله تعالى خصّه من المعرفة بتوحيده و وجوب السجود له ، و إنكار سجودهم للشمس، و إضافته للشيطان ، وتزيينه لهم ، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان ؛ من المعارف اللطيفة التى لا تكاد العقول الراجحة تهتدى لها . وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وحفص والكسائى : «تُخْفُونَ» و « تُعْلِنُونَ » بالتاء على الخطاب؛ وهذه القراءة تعطى أن الآية

(١) فى اللسان : الوثي : الضرب حتى يرهص اللحم و يصل الضرب إلى العظم من غير كسر .

(٢) الردء بمعنى الصاحب . (٣) فى ب و ك .

من خطاب الله عز وجل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ قرأ ابن محيصن «العظيمُ» : رفعا نعتا لله . الباقون بالخفض نعتا للعرش . وخص بالذكر لأنه أعظم المخلوقات وما عداه فى ضمنه وقبضته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ من النظر الذى هو التأمل والتصفح . ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى مقالتك . و « كنت » بمعنى أنت . وقال : « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ » ولم يقل سننظر فى أمرك ؛ لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم فى قوله : « أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ » صرح له سليمان بقوله : سننظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك [كفاء][1] لما قاله .

الخامسة عشرة — فى قوله : « أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه . وإنما صار صدق الهدهد عذرا لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد ، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد . وفى الصحيح : "ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله من أجل ذلك أنزل الكتابَ وأرسل الرسل" . وقد قبل عمر عذر النعمان بن عدى ولم يعاقبه . ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة . كما فعل سليمان ؛ فإنه لما قال الهدهد : « إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » لم يستفزه الطمع ، ولا استجزه حبّ الزيادة فى الملك إلى أن يعرض له حتى قال : « وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ » فغاظه حينئذ ما سمع ، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر ، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك ، فقال : « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » ونحو منه ما رواه الصحيح عن المسور بن مخرمة ، حين استشار عمر الناس فى إملاص المرأة وهى التى يضرب بطنها فتلقى جنينها ؛ فقال المغيرة ابن شعبة : شهدت النبى صلى الله عليه وسلم قضى فيه بغرة[2] عبد أو أمة . قال فقال عمر : ائتنى بمن يشهد معك ؛ قال : فشهد له محمد بن مسلمة وفى رواية فقال : لا تبرح حتى تأتى بالمخرج

(١) فى ب . وفى ك : حقا كما قاله . (٢) فى ز : وليدة .

من ذلك ؛ فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فخثت به فشهد . ونحوه حديث أبى موسى فى الأستئذان وغيره .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَب بِكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ قال الزجاج : فيها خمسة أوجه « فَأَلْقِهِي إِلَيْهِمْ » بإثبات الياء فى اللفظ . وبحذف الياء و إثبات الكسرة دالّة عليها « فَأَلْقِهِ إِلَيْهِم » . و بضم الهاء و إثبات الواو على الأصل « فَأَلْقِهُو إِلَيْهِمْ » . و بحذف الواو و إثبات الضمة « فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ » . واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء « فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ » . قال النحاس : وهذا عند النحويين لا يجوز إلا على حيلة بعيدة تكون : يقدّر الوقف ؛ وسمعت على بن سليمان يقول : لا تلتفت إلى هذه العلة ، ولو جاز أن يصل وهو ينوى الوقف لجاز أن يحذف الإعراب من الأسماء . وقال : « إليهم » على لفظ الجمع ولم يقل إليها ؛ لأنه قال : « وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ » فكأنه قال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ؛ آهتماما منه بأمر الدِّين ، وآشتغالا به عن غيره ، و بنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك . وروى فى قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألفى دون هذه الملكة حُجُبَ جدران ؛ فعمد إلى كُوّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إياها ، فدخل منها و رمى الكتاب على بلقيس وهى — فيما يروى — نائمة ؛ فلما آنتبهت وجدته فراعها ، وظنت أنه قد دخل عليها أحد ، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدت ، فنظرت إلى الكُوّة تهمُّما بأمر الشمس ، فرأت الهدهد فعلمت . وقال وهب وآبن زيد : كانت لها كُوّة مستقبلة مطلع الشمس ، فإذا طلعت سجدت ، فسدها الهدهد بجناحه ، فآرتفعت الشمس ولم تعلم ، فلما آستبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها ، فلما رأت الخاتم آرتعدت وخضعت ، لأن مُلك سليمان عليه السلام كان فى خاتمه ؛ فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتى بعد . وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره ، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر ، فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه ، فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب فى حجرها .

السابعة عشرة — فى هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام . وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبّار؛ كما تقدم فى « آل عمران »(١) :

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أمره بالتولّى حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك . بمعنى : وكن قريبا حتى ترى مراجعتهم ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال ابن زيد : أمره بالتولّى بمعنى الرجوع إليه ؛ أى ألقه وارجع . قال وقوله : «فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ» فى معنى التقديم على قوله : « ثُمَّ تَوَلَّ » واتساق رتبة الكلام أظهر؛ أى ألقه ثم تول، وفى خلال ذلك فانظر أى انتظر . وقيل : فاعلم؛ كقوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ »(٢) أى اعلم ماذا يرجعون أى يجيبون وماذا يردّون من القول . وقيل : « فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ » [يتراجعون](٣) بينهم من الكلام .

قوله تعالى : قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ ﴾ فى الكلام حذف ؛ والمعنى : فذهب فألقاه إليهم فسمعها وهى تقول : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ » ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم فى نفسها ونفوسهم فعظمته إجلالا لسليمان عليه السلام ؛ وهذا قول ابن زيد . وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم ، فكرامة الكتاب ختمه ؛ وروى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : لأنه بدأ فيه بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وقد قال صلى الله عليه وسلم : "كل كلام لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم" . وقيل : لأنه بدأ

(١) راجع جـ ٤ ص ١٠٥ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٨٦ (٣) فى ك .

فيه بنفسه ، ولا يفعل ذلك إلا الجلّة . وفى حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه . من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ؛ إنى أقرّ لك بالسمع والطاعة ما استطعت ، وإن بَنِيّ قد أقرّوا لك بذلك . وقيل : توهمت أنه كتاب جاء من السماء إذ كان الموصِّل طيرا . وقيل : « كَرِيمٌ » حسن ؛ كقوله : « وَمَقَامٍ كَرِيمٍ »(1) أى مجلس حسن . وقيل : وصفته بذلك ؛ لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبًّا ولا لعنا ، ولا ما يغيّر النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ؛ على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله عز وجل ؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : « ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ »(2) وقوله لموسى وهرون : « فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ »(3) . وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها . وقد روى أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان . وفى قراءة [عبد الله] « وَإِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَانَ »(4) بزيادة واو .

الثانية — الوصف بالكريم فى الكتاب غاية الوصف ؛ ألا ترى قوله تعالى : « إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ »(5) وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأثير وبالمبرور ؛ فإن كان لملك قالوا : العزيز وأسقطوا الكريم غفلة ، وهو أفضلها خصلة . فأما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن فى قوله تعالى : « وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ »(5) فهذه عزته وليست لأحد إلا له ؛ فاجتنبوها فى كتبكم ، واجعلوا بدلها العالى ؛ توفية لحق الولاية ، وحياطة للديانة ؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربى .

الثالثة — كان رسم المتقدّمين إذا كتبوا أن يبدءوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ، وبذلك جاءت الآثار . وروى الربيع عن أنس قال : ما كان أحد أعظم حرمة من النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدءوا بأنفسهم . وقال ابن سيرين قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن أهل فارس إذا كتبوا بدءوا بعظمائهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه "

---

(1) راجع جـ ١٦ ص ١٢٨ .   (2) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٠ .   (3) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ .

(4) فى الأصول : « وفى قراءة أبى » وهو مخالف لما عليه كتب التفسير ، فالمروى عن أبىّ أنه قرأ : « أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم » بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء .   (5) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٣ وص ٣٦٦ .

قال أبو الليث فى كتاب « البستان » له : ولو بدأ بالمكتوب إليه لجاز؛ لأن الأمة قد اجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوا فى ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسن فى زماننا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأن البداية بنفسه تعدّ منه استخفافا بالمكتوب [إليه](١) وتكبرا عليه؛ إلا أن يكتب إلى عبد من عبيده، أو غلام من غلمانه .

الرابعة — وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغى أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر . وروى عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام . والله أعلم .

الخامسة — اتفقوا على كتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فى أول الكتب والرسائل، وعلى ختمها؛ لأنه أبعد من الريبة، وعلى هذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : أيما كتاب لم يكن مختوما فهو أغلف . وفى الحديث : "كرم الكتاب خَتْمُه" . وقال بعض الأدباء، هو ابن المقفع : من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به؛ لأن الختم ختم . وقال أنس : لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم فقيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه ختم؛ فاصطنع خاتما ونقش على فصه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأنى أنظر إلى وبيصه(٢) وبياضه فى كفه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ « وَإِنَّهُ » بالكسر فيهما أى وإن الكلام، أو إن مبتدأ الكلام « بسم الله الرحمن الرحيم » . وأجاز الفراء « أَنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ » بفتحهما جميعا على أن يكونا فى موضع رفع بدل من الكتاب(٣)؛ بمعنى ألقى إلىّ أنه من سليمان . وأجاز أن يكونا فى موضع نصب على حذف الخافض؛ أى لأنه من سليمان ولأنه؛ كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله . وقرأ الأشهب العُقَيلىّ ومحمد بن السَّمَيْقع : « أَلَّا تَغْلُوا » بالغين المعجمة؛ وروى عن وهب بن منبّه؛ من غلا يغلوا إذا تجاوز وتكبّر . وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة . ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أى منقادين طائعين مؤمنين .

(١) من ك . (٢) الوبيص : البريق واللمعان . (٣) فى ك : بدل من الكلام .

قوله تعالى : قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ الملأ أشراف القوم وقد مضى فى سورة « البقرة »(١) القول فيه . قال ابن عباس : كان معها ألف قَيْل . وقيل : اثنا عشر ألف قيـل مع كل قَيْل مائة ألف . والقَيْل الملك دون الملك الأعظم . فأخذت فى حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها فى كل أمر يعرض ، بقولها : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ فكيف فى هـذه النازلة الكبرى . فراجعها الملا بمـا يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سلموا الأمر إلى نظرها ؛ وهذه محاورة حسنة من الجميع . قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا هم أهل مشورتها، كل رجل منهم على عشرة آلاف .

الثانيـة — فى هذه الآية دليل على صحة المشاورة . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ » فى « آل عمران »(٢) إما استعانة بالآراء، و إما مداراة للأولياء . وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ »(٣) . والمشاورة من الأمر القديم وخاصة فى الحرب ؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس : « قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، و إمضاءهم على الطاعة لها ، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، و إن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجِدّهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم، و إن لم تختبر ماعندهم ، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٣٦ فما بعد .

من أمرهم، وربما كان فى آستبدادها برأيها وهن فى طاعتها، ودخيلة فى تقدير أمرهم، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدّة مدافعتهم؛ ألا ترى الى قولهم فى جوابهم : ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ . قال آبن عباس : كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتدّ ضم فخذيه فحبسه بقوته .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ سلّموا الأمر الى نظرها مع ما أظهروا لها من القوة والبأس والشدّة، فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقُرى التى يتغلبون عليها . وفى هذا الكلام خوف على قومها، وحيطة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام . ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قيل : هو من قول بلقيس تأكيدا للمعنى الذى أرادته . وقال ابن عباس : هو من قول الله عز وجل معرِّفا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته بذلك ومخبرا به . وقال وهب : لما قرأت عليهم الكتاب لم تعرف اسم الله، فقالت : ما هذا ؟ ! فقال بعض القوم : ما نظن هذا إلا عفريتا عظيما من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريده ؛ فسكّتوه . وقال الآخر: أراهم ثلاثة من العفاريت ؛ فسكّتوه ؛ فقال شاب قد علم : يا سيدة الملوك ! إن سليمان ملِك قد أعطاه مَلِكُ السماء مُلْكا عظيما فهو لا يتكلم بكلمة إلا بدأ فيها بتسمية إلهه، والله اسم مليك السماء، والرحمن الرحيم نعوته ؛ فعندها قالت : «أَفْتُونِي فِي أَمْرِي» فقالوا : «نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ» فى القتال «وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ» [قوة][1] فى الحرب واللقاء « وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ » ردّوا أمرهم إليها لما جربوا على رأيها من البركة « فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » فـ « قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور، فصدق الله قولها . « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » قال ابن الأنبارى : « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » هذا وقف تام ؛ فقال الله عز وجل تحقيقا لقولها : « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » وشبيه به فى سورة « الأعراف »[2] « قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ » تم الكلام، فقال فرعون : « فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » . وقال ابن شجرة : هو قول بلقيس، فالوقف « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » أى وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا .

(١) من ك . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٦ فما بعد .

قوله تعالى : وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ هذا من حسن نظرها وتدبيرها ؛ أى إنى أجرب هذا الرجل بهدية، وأعطيه فيها نفائس من الأموال، وأغرب عليه بأمور المملكة : فإن كان ملكا دنياويا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبيا لم يرضه المال ولازمنا فى أمر الدين ، فينبغى لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه ، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس فى تفصيلها ، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أرسلت إليه بلَبِنة من ذهب ، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغُر عندهم ما جاءوا به . وقال مجاهد: أرسلت إليه بمائتى غلام ومائتى جارية . وروى عن ابن عباس : باثنتى عشرة وصيفة مذكّرين قد ألبستهم زىّ الغلمان ، وآثنى عشر غلاما مؤنثين قد ألبستهم زىّ النساء، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر، و باثنتى عشرة نجيبة تحمل لَبِن الذهب، وبخرزتين إحداهما غير مثقوبة ، والأخرى مثقوبة ثقبا معوجا، وبقدح لا شىء فيه، وبعصا كان يتوارثها ملوك حِمْيَر، وأنفذت الهدية مع جماعة من قومها . وقيل : كان الرسول واحدا ولكن كان فى صحبته أتباع وخدم . وقيل : أرسلت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو ، وضمت إليه رجالا ذوى رأى وعقل، والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة، قد خولف بينهم فى اللباس، وقالت للغلمان : إذا كلّمكم سليمان فكلّموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء، وقالت للجوارى : كلّمنه بكلام فيه غِلظ يشبه كلام الرجال ؛ فيقال : إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله . وقيل : إن الله أخبر سليمان بذلك ، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة، ثم قال : أىّ الدواب رأيتم أحسن فى البر والبحر ؟ قالوا : يا نبىّ الله رأينا فى بحر كذا دواب مُنقَّطة[1] مختلفة ألوانها، لها أجنحة وأعراف ونواصى؛ فأمر بها فجاءت فشدّت على يمين الميدان وعلى يساره ، وعلى لبنات الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفاتها؛ ثم قال : للجن علىّ بأولادكم ؛ فأقامهم ــ أحسن ما يكون من الشباب ــ عن يمين

(١) فى ز و ط و ك : منطقة .

الميدان ويساره . ثم قعد سليمان عليــه السلام على كرسيه في مجلسه ، ووضع له أربعة آلاف كرسيّ من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء ، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفا فراسخ ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطير فآصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله ، فلما دنا القوم من الميــدان ونظروا إلى مُلك سليمان، ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم أحسن منها تَروث على لبِنات الذهب والفضــة ، تقاصرت إليهم أنفسهم ، ورموا ما معهم من الهــدايا . وفي بعض الروايات : إن سليمان لـمـا أمرهم بفرش الميــدان بلَبِنات الذهب والفضــة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضــع بساط من الأرض غير مفروش ، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين رأوا منظرا هائلا فظيعا ففزعوا وخافوا ، فقالت لهم الشياطين : جُوزُوا لا بأس عليكم ؛ فكانوا يمرون على كُرْدُوس كُرْدُوس من الجنّ والإنس والبهائم والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان ، فنظر إليهــم سليمان نظرا حسنا بوجه طَلْق، وكانت قالت لرسولها : إن نظر إليك نظر مغضَب فآعلم أنه ملِك فلا يهولنّك منظره فأنا أعز منه ، وإن رأيت الرجل بشًّا لطيفا فآعلم أنه نبيّ مرسل فتفهم قوله وردّ الجواب ، فأخبر الهدهد سليمان بذلك على ما تقدّم . وكانت عمدت إلى حُقّة من ذهب فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة ، وخرزة معوجة الثّقب ، وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه : إن كنت نبيًّا فميّز بين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بما في الحُقّة ، وعرفني رأس العصا من أسفلها ، وآثقب الدرّة ثقْبا مستويا ، وأدخل خيط الخرزة ، وآملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء ؛ فلما وصل الرسول ووقف بين يدى سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه ، وقال : أين الحُقّة ؟ فأتى بها فحركها ، فأخبره جبريل بما فيها ، ثم أخبرهم سليمان . فقال له الرسول : صدقت ؛ فآثقب الدرّة ، وأدخل الخيط في الخَرَزة ؛ فسأل سليمان الجن والإنس عن ثَقْبها فعجزوا ؛ فقال للشياطين : ما الرأي فيهـا ؟ فقالوا : ترســل إلى الأَرَضة ، فجاءت الأرضة فأخذت شــعرة في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر؛ فقال لهـا سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تصير رزقي في الشجرة ؛

فقال لها : لكِ ذلك . ثم قال سليمان : من لهذه الخَرَزة يسلكها الخيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبيّ الله ؛ فأخذت الدودة الخيط فى فيهـا ودخلت الثُّقْب حتى خرجت من الجانب الآخر ؛ فقال لهـا سليمان : ما حاجتك ؟ قالت تجعل رزقى فى الفواكه ؛ قال : ذلك لكِ . ثم ميز بين الغلمان [والجوارى](1) . قال السدىّ : أمرهم بالوضوء ، فجعل الرجل يحدر المـاء على اليد والرجل حَدْرا ، وجعل الجوارى يصببن من اليد اليسرى على اليـد اليمنى ، ومن اليمنى على اليسرى ، فميّز بينهم بهذا . وقيل : كانت الجارية تأخذ المـاء من الآنية بإحدى يديها ، ثم تحمله على الأخرى ، ثم تضرب به على الوجه ؛ والغلام كان يأخذ المـاء من الآنية يضرب به فى الوجه ، والجـارية تصب على بطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، والجارية تصب المـاء صبا ، والغلام يحدر على يديه ؛ فميز بينهم بهذا . وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال : أرسلت بلقيس بمائتى وصيفة ووصيف ، وقالت : إن كان نبيا فسيعلم الذكور من الإناث ؛ فأمرهم فتوضئوا ؛ فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفّه قال هو من الإناث ، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور ؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال : أى الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها ، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها ، ثم رد سليمان الهدية ؛ فروى أنه لمـا صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد ؛ قالت لقومها : هذا أمر من السماء(2) .

الثانيـــة — كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثبت عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليـه السلام وسائر الأنبيـاء صلوات الله عليهم أجمعين . وإنمـا جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردّها علامة على ما فى نفسها ؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكا أو نبيا ؛ لأنه قال لهـا فى كتابه : « أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » وهذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وليس هـذا من الباب الذى تقرر فى الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وإنمـا هى رشوة وبيع الحق بالبـاطل ، وهى الرشوة التى لا تحـل . وأما الهـدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم يكن من مشرك .

(1) الزيادة من « قصص الأنبياء » للثعلبى . (2) فى ز : قال لها هذا أمر من السماء .

الثالثـــة — فإن كانت من مشرك ففى الحـديث " نُهِيت عن زَبْد المشركين " يعنى رِفدهم وعطاياهم. وروى عنه عليه السلام أنه قبلها كما فى حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيلىّ وغيره ، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما ، وقال آخرون : ليس فيهـا ناسخ ولا منسوخ، والمعنى فيها : أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله فى الإسلام ، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام ، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملا على الكفّ عنه؛ وهذا أحسن تأويل للعلماء فى هذا ؛ فإنه جمع بين الأحاديث . وقيل غير هذا .

الرابعـــة — الهدية مندوب إليها ، وهى مما تورث المودة وتذهب العداوة ؛ روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراسانى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تَصافحوا يَذهب الغِلّ وتَهادوا تحابُّوا وتذهب الشَّحناء ". وروى معاوية بن الحكم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " تهادوا فإنه يضعِّف الودّ ويذهب بغوائل الصَّدر " وقال الدَّارَقُطْنِيّ : تفرد به آبن بُجَير عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرضىّ، ولا يصح عن مالك ولا عن الزهرى . وعن آبن شهاب قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تهادوا بينكم فإن الهدية تُذهب السَّخِيمة " قال آبن وهب : سألت يونس عن السَّخِمية ما هى فقال : الغل . وهذا الحديث وصـله الوقّاصى عثمان عن الزهرى وهو ضعيف . وعلى الجملة : فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ، وفيه الأسوة الحسنة . ومن فضل الهدية مع آتباع السنة أنهـا تزيل حزازات النفوس، وتكسب المهدى والمهدَى إليه رنّة فى اللقاء والجلوس . ولقد أحسن من قال :

هدايا النـاس بعضهم لبعض * تُـولِّد فى قلوبهـمُ الوِصَـالَا
وتزرعُ فى الضمير هَوًى ووُدًّا * وتُكسبهـمْ إذا حضروا جَمـالَا

آخـــر :

إنّ الهـدايا لهـا حظٌّ إذا وَرَدتْ * أحظى من الابن عند الوالد الحدب

الخامســـة — روى عن النبي صـلى الله عليـه وسلم أنه قال : " جلساؤكم شركاؤكم فى الهـدية " واختلف فى معناه؛ فقيل : هو محمول على ظاهره . وقيل : يشاركهم على وجه

الكرم والمروءة ، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه . وقال أبو يوسف : ذلك فى الفواكه ونحوها . وقال بعضهم : هم شركاؤه فى السرور لا فى الهدية . والخبر محمول فى أمثال أصحاب الصُّفّة والخوانق والرباطات ؛ أما إذا كان فقيها من الفقهاء اختص بها فلا شركة فيها لأصحابه ، فإن أشركهم فذلك كرم وجود منه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَنَاظِرَةٌ ﴾ أى منتظرة ﴿ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال قتادة : يرحمها الله أن كانت لعاقلة فى إسلامها وشركها ؛ قد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس . وسقطت الألف فى « بم » للفرق بين « ما » الخبرية . وقد يجوز إثباتها ؛ قال[1] :

على ما قام يشتمنى لئيمٌ * كخنزير تمرَّغ فى رمادِ

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ﴾ أى جاء الرسول سليمان بالهدية قال : « أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ » . قرأ حمزة ويعقوب والأعمش : بنون واحدة مشددة وياء ثابتة بعدها .

---

(١) هو حسان بن المنذر يهجو بنى عائذ بن عمرو بن مخزوم وقبله :

وإن تصلح فإنك عائذىّ * وصلح العائذىّ إلى فساد

الباقون بنونين وهو آختيار أبي عبيد ؛ لأنهـا فى كل المصاحف بنونين . وقـد روى إسحق عن نافع أنه كان يقـرأ : « أَتُمِدُّونِ » بنون واحدة مخففة بعـدها ياء فى اللفظ . قال ابن الأنبارى : فهـذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عنـد الوقف ، ليصح لهـا موافقة هجاء المصحف . والأصـل فى النون التشديد، فخفف التشديد من ذا الموضـع كما خفف من : أشهد أنك عالم، وأصله : أنك عالم . وعلى هـذا المعنى بنى الذى قرأ : « يُشَاقُّونِ فِيهِم »[1] ، « أَتُحَاجُّونِ فِى اللهِ »[2] . وقد قالت العرب : الرجال يضربونِ ويقصدونِ ، وأصله يضربونّى ويقصدونّى : لأنه إدغام يضربوننى ويقصدوننى قال الشاعر :

تَرهبينِ والجِيدُ منكِ لِلَيْلَى　＊　والحَشَا والبُغَامُ[3] والعينَانِ

والأصل ترهبيني فخفف . ومعنى « أَتُمِدُّونَنِي » أتزيدوننى مالا إلى ما تشاهدونه من أموالى .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ أى فما أعطانى من الإسلام والملك والنبوّة خير ممـا أعطاكم، فلا أفرح بالمـال . و « آتَانِ » وقعت فى كل المصاحف بغير ياء . وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص : « آتَانِيَ اللهُ » بيـاء مفتوحة ؛ فإذا وقفوا حذفوا . وأما يعقوب فإنه يثبتها فى الوقف ويحذف فى الوصـل لالتقاء السـاكنين . الباقون بغير ياء فى الحالين . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة فى الدنيا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد ؛ آرجع إليهم بهديتهم . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لام قسم والنون لهـا لازمة . قال النحاس : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : هى لام توكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير؛ لام توكيد، ولام أمر، ولام خفض؛ وهذا قول الحذاق من النحويين؛ لأنهم يردّون الشيء إلى أصله : وهـذا لا يتهيأ إلا لمن درب فى العربية . ومعنى « لَا قِبَـلَ لَهُمْ بِهَـا » أى لا طاقة لهم عليهـا . ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَـا ﴾ أى من أرضهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . وقيل : « مِنْهَا » أى من قرية سبأ . وقد سبق ذكر القرية فى قوله : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٨ .　(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٨ فما بعد .　(٣) بغام الظبية : صوتها .

قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا » . « أَذِلَّةً » قد سُلبوا ملكهم وعزّهم . « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أى مهانون أذلاء من الصَّغر وهو الذل إن لم يسلموا ؛ فرجع إليها رسولها فأخبرها ؛ فقالت : قد عرفت أنه ليس بملك ولا طاقة لنا بقتال نبيّ من أنبياء الله . ثم أمرت بعرشها فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى جوف بعض؛ فى آخر قصر من سبعة قصور ؛ وغلقت الأبواب ، وجعلت الحرس عليه ، وتوجهت إليه فى آثنى عشر ألف قَيْل[1] من ملوك اليمن، تحت كل قَيْل مائة ألف . قال آبن عباس : وكان سليمان مهيبا لا يبتدأ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه ؛ فنظر ذات يوم رهجا[2] قريبا منه، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : بلقيس يا نبيّ الله . فقال سليمان لجنوده — وقال وهب وغيره للجن — ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ وقال عبد الله بن شداد : كانت بلقيس على فرسخ من سليمان لما قال : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » وكانت خلفت عرشها بسبأ، ووكّلت به حفظة . وقيل : إنها لما بعثت بالهدية بعثت رسلها فى جندها لتغافص[3] سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهب سليمان لها إن كان طالب ملك، فلما علم ذلك قال : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » . قال آبن عباس : كان أمره بالإتيان بالعرش قبل أن يكتب الكتاب إليها، ولم يكتب إليها حتى جاءه العرش . وقال آبن عطية : وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجىء هديتها وردّه إياها ، وبعثه الهدهد بالكتاب؛ وعلى هذا جمهور المتأولين . وآختلفوا فى فائدة آستدعاء عرشها ؛ فقال قتادة : ذكر له بعظَم وجَوْدة؛ فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمى أموالهم؛ والإسلام على هذا الدّين؛ وهو قول آبن جريج . وقال آبن زيد : آستدعاه ليريها القدرة التى هى من عند الله، ويجعله دليلا على نبوته؛ لأخذه من بيوتها[4] دون جيش ولا حرب؛ و « مسلمين » على هذا التأويل بمعنى مستسلمين؛ وهو قول آبن عباس . وقال آبن زيد أيضا : أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى ﴾ . وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان عليه السلام فيولد له منها [ولد][5] ، فلا يزالون فى السخرة والخدمة لنسل سليمان فقالت لسليمان

---

(١) فى ك : قائد، تحت كل قائد . (٢) الرهج : الغبار . (٣) المغافصة : الأخذ على غرة .
(٤) فى ب وك : على ثقافها : أى حذرها . (٥) من ك .

فى عقلها خلل ؛ فأراد أن يمتحنها بعرشها . وقيل : [أراد][1] أن يختبر صدق الهدهد فى قوله : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » قاله الطبرى . وعن قتادة : أحب أن يراه لما وصفه الهدهد . والقول الأول عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى : « قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » . ولأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها فلا يؤتى به إلا بإذنها . روى أنه كان من فضة وذهب مرصعا بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان فى جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفى : « عِفْرِيَةٌ » ورويت عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وفى الحديث ، " إن الله يُبغض العِفرِية النفرِية " . [النفرية][2] إتباع لعفرية . قال قتادة : هى الداهية قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عِفر وعِفرية وعِفريت وعُفارية . وقيل : «عفريت» أى رئيس . وقرأت فرقة : «قال عِفْرٌ» بكسر العين ؛ حكاه ابن عطية ؛ قال النحاس : من قال عفرية جمعه على عفارٍ، ومن قال : عفريت كان له فى الجمع ثلاثة أوجه ؛ إن شاء قال عفاريت، وإن شاء قال عَفارٍ؛ لأن التاء زائدة؛ كما يقال : طواغ فى جمع طاغوت، وإن شاء عوض من التاء ياء فقال عَفارِى . والعفريت من الشياطين القوى المارد . والتاء زائدة . وقد قالوا : تَعَفْرَتَ الرجل إذا تخلق بخلق الأذاية . وقال وهب بن منبّه : اسم هذا العفريت كودن؛ ذكره النحاس . وقيل : ذكوان؛ ذكره السُّهيلى . وقال شعيب الجُبّائى : اسمه دعوان . وروى عن ابن عباس أنه صخر الجنى . ومن هذا الاسم قول ذى الرُّمَّة :

كأنّه كوكبٌ فى إثْرِ عِفْـرِيةٍ * مُصَوَّبٌ[3] فى سوادِ الليل مُنْقَضِبُ

وأنشد الكسائى[4] :

إذ قال شيطانُهُم العِفريتُ * ليس لكُمْ مُلكٌ ولا تثبيتُ

---

(١) من ب . (٢) من ك . (٣) وفى ديوانه طبع أوربا « مسوم » بدل « مصوب » وهو بمعنى معلم منقضب والبيت فى وصف ثور وحشى ؛ كأن الثور كوكب مصوب منقضب فى إثر عفرية فى سواد الليل .

(٤) البيت لرؤبة من قصيدة يمدح بها مسلمة بن عبد الملك .

وفى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عفريتا من الجن جعل يفتك[1] علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاة و إن الله أمكنني منه فذعته[2] " وذكر الحديث . وفى البخارى " تفلّت[3] علىّ البارحة " مكان " جعل يفتك " . وفى " الموطأ " عن يحيي ابن سعيد أنه قال : أُسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار ، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه ؛ فقال جبريل : أفلا أعلّمك كلماتٍ تقولهنّ إذا قلتهنّ طُفئت شعلته وخرّ لفيه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بلى " فقال : " أعوذ بالله الكريم[4] و بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من شرّ ما ينزل من السماء وشرّ ما يعرُج فيها [وشرّ ما ذرأ فى الأرض ، وشر ما يخرج منها][5] ومن فِتَن الليل والنهار ومن طوارقِ الليل والنهار إلا طارقا يطرُق بخيرٍ يا رحمن " .

قوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ يعنى فى مجلسه الذى يحكم فيه . ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أى قوىّ على حمله . « أمينٌ » على ما فيه . ابن عباس : أمين على فرج المرأة ؛ ذكره المهدوى . فقال سليمان أريد أسرع من ذلك ؛ فـ ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أكثر المفسرين على أن الذى عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بنى إسرائيل ، وكان صدّيقا يحفظ اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، و إذا دعى به أجاب . وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن اسم الله الأعظم الذى دعا به آصف بن برخيا يا حىّ يا قيوم " قيل : وهو بلسانهم ، أهيا شراهيا ؛ وقال الزهرى : دعاء الذى عنده اسم الله الأعظم ؛ يا إلهنا وإله كل شى إلها واحدا لا إله إلا أنت ايتنى بعرشها ؛ فمُثّل بين يديه . وقال مجاهد : دعا فقال : يا إلهنا و إله كل شىء ياذا الجلال والإكرام . قال السُّهيلىّ : الذى عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان ؛ وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى .

---

(١) الفتك : الأخذ فى غفلة وخديعة . (٢) فذعته : أى دفعته دفعا شديدا . وفى رواية " فذعته " بالذال المعجمة ومعناه خنقته . (٣) "تفلت" : أى تعرض لى فلتة أى بغتة . (٤) فى ك : أعوذ بوجه الله العظيم . (٥) من ب .

وقيل : هو سليمان نفسه ؛ ولا يصح فى سياق الكلام مثل هــذا التأويل . قال ٱبن عطية : وقالت فرقة هو سليمان عليـه السلام ، والمخاطبة فى هــذا التأويل للعفريت لمـا قال : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ » كأن سليمان ٱستبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره : « أَنَا آتِيـكَ بِهِ قَبْـلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَـرْفُكَ » وٱستدلّ قائلو هــذه المقالة بقول سليمان : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » .

قلت : ما ذكره ٱبن عطيــة قاله النحاس فى معانى القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء الله تعــالى . قال بحر : هو مَلَك بيــده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت . قال السُّهَيلىّ : وذكر محمــد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّة بن أُدّ ؛ وهذا لا يصح البتة لأن ضَبَّة هو ابن أُدّ بن طابخــة ، وٱسمه عمرو بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن مَعَدّ : ومعدّ كان فى مدة بختنصر ، وذلك بعد عهد سليمان بدهرٍ طويل ؛ فإذا لم يكن معدّ فى عهــد سليمان ، فكيف ضَبّة بن أدّ وهو بعــده بخمسة آباء ؟ ! وهــذا بيّن لمن تأمله . ابن لَهِيعة : هو الخضر عليــه الســلام . وقال ابن زيد : الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح كان فى جزيرة من جزائر البحر ، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض، وهل يعبــد الله أم لا ؟ فوجد سليمان ، فدعا بٱسم من أسماء الله تعالى بجىء بالعــرش . وقول سابع : إنه رجل من بنى إسرائيل ٱسمه يمليخا(1) كان يعــلم ٱسم الله الأعظم ؛ ذكره القشــيرى . وقال ابن أبى بزة : الرجل الذى كان عنــده علم من الكتاب ٱسمــه أسطوم وكان عابدا فى بنى إسرائيــل ؛ ذكره الغزنوى . وقال محمد بن المنكدر : إنمــا هو سليمان عليه السلام ؛ أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم وليس ذلك كذلك ؛ إنمــا كان رجل من بنى إسرائيــل عالم آتاه الله علما وفقها قال : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْـلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْـكَ طَرْفُكَ » قال : هات . قال : أنت نبىّ الله ٱبن نبى الله فإن دعوت الله جاءك به ، فدعا الله ســليمان فجاءه الله بالعرش . وقول ثامن : إنه جبريل عليــه السلام ؛ قاله النَّخَعى، وروى عن ٱبن عباس . وعلم الكتاب على هذا علمه بكتب الله المنزلة، أو بمــا فى اللوح المحفوظ . وقيل : علم كتاب سليمان الى بلقيس . قال ٱبن عطية : والذى

(1) فى ب وك : تمليخا .

عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بنى إسرائيل آسمه آصف بن برخيا ؛ روى أنه صلّى ركعتين ، ثم قال لسليمان : يا نبيّ الله آمدد بصرك فمدّ بصره نحو اليمن فإذا بالعرش ، فما ردّ سليمان بصره إلا وهو عنده . قال مجاهد : هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئا حسيرا . وقيل: أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول : آفعل كذا فى لحظة عين؛ وهذا أشبه ؛ لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة، و إن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهى كرامة ، وكرامة الولىّ معجزة النبىّ . قال القشيرىّ : وقد أنكر كرامات الأولياء من قال إن الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان ، قال للعفريت : «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» . وعند هؤلاء ما فعل العفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإن الجن يقدرون على مثل هذا . ولا يقطع جوهر فى حال واحدة مكانين ، بل يتصوّر ذلك بأن يعدم الله الجوهر فى أقصى الشرق ثم يعيده فى الحالة الثانية ، وهى الحالة التى بعد العدم فى أقصى الغرب . أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها . قال القشيرى : ورواه(1) وهب عن مالك . وقد قيل : بل جىء به فى الهواء ؛ قاله مجاهد . وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة . وقال مالك : كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام . وفى التفاسير آنخرق بعرش بلقيس مكانه الذى هو فيه ثم نبع بين يدى سليمان ؛ قال عبد الله بن شدّاد : وظهر العرش من نفق تحت الأرض ؛ فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أى ثابتا عنده . ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى ﴾ أى هذا النصر والتمكين من فضل ربى . ﴿ لِيَبْلُوَنِى ﴾ قال الأخفش : المعنى لينظر ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ . وقال غيره : معنى « لِيَبْلُوَنِى » ليتعبدنى ؛ وهو مجاز . والأصل فى الابتلاء الاختبار أى ليختبرنى أأشكر نعمته أم أكفرها ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه ، حيث آستوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها . والشكر قيد النعمة الموجودة ، وبه تنال النعمة المفقودة(2) . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ ﴾ أى عن الشكر ﴿ كَرِيمٌ ﴾ فى التفضل .

---

(1) فى ب وك : قاله القشيرى ورواه ابن وهب . (2) فى ك : المقصودة .

قوله تعالى : قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ أى غيّروه . قيل : جعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه . وقيل : غيّر بزيادة أو نقصان . قال الفرّاء وغيره : إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له : إن فى عقلها شيئا فأراد أن يمتحنها . وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له منها ولد فيبقون مسخّرين لآل سليمان أبدا ، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل ، ورجلها كرجل الحمار ؛ فقال : « نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا » لنعرف عقلها . وكان لسليمان ناصح من الجن، فقال كيف لى أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها؟ فقال : أنا أجعل فى هذا القصر ماء ، وأجعل فوق الماء زجاجا، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فترى قدميها ؛ فهذا هو الصرح الذى أخبر الله تعالى عنه .

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ ﴾ يريد بلقيس، ﴿ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق، فلم تقر بذلك ولم تنكر ، فعلم سليمان كمال عقلها . قال عكرمة : كانت حكيمة فقالت: « كَأَنَّهُ هُوَ » . وقال مقاتل : عرفته ولكن شبّهت عليهم كما شبّهوا عليها ؛ ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت نعم هو ؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضا . وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أنّ الجن مسخّرون له ، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوّة وتؤمن به . وقد قيل هذا فى مقابلة تعميتها الأمر فى باب الغلمان والجوارى . ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ قيل : هو من قول بلقيس ؛ أى أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان أى أوتينا العلم

بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة . وقيل : « وَأُوتِينَا الْعِلْمَ » بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الوقف على « مِنْ دُونِ اللَّهِ » حسن؛ والمعنى: منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر ف «ما» في موضع رفع . النحاس : المعنى؛ أي صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه [عن أن تسلم][1] . ويجوز أن يكون « ما » في موضع نصب ، ويكون التقدير : وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ؛ أي حال بينها و بينه . ويجوز أن يكون المعنى: وصدها الله ؛ أي منعها الله عن عبادتها غيره فحذفت « عن » وتعدى الفعل . نظيره: « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ »[2] أي من قومه . وأنشد سيبويه[3] :

ونُبِّئتُ عبدَ الله بالجوِّ أصبحتْ * كِراماً مواليها لئيماً صَميمُها

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله . ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ قرأ سعيد بن جبير: « أنها » بفتح الهمزة، وهي في موضع نصب بمعنى لأنها . ويجوز أن يكون بدلا من «ما» فيكون في موضع رفع إن كانت « ما » فاعلة الصد . والكسر على الاستئناف .

قوله تعالى : قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٤)

قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ التقدير عند سيبويه : ادخلى إلى الصرح فحذف إلى وعدّى الفعل . وأبو العباس يغلّطه في هذا ؛ قال : لأن دخل يدلّ على مدخول . وكان الصرح صحنا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان، عمله ليريها ملكا أعظم من ملكها؛ قاله مجاهد.

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٣ فما بعد .

(٣) البيت للفرزدق ، وأراد بعبد الله القبيلة ، وهي عبد الله بن دارم .

وقال قتادة : كان من قوارير خلفه ماء « حَسِبَتْه لُجَّةً » أى ماء . وقيل : الصرح القصر؛ عن أبى عبيـــدة . كما قال[(١)] :

* تَحسِب أعلامَهنّ الصُّروحَا *

وقيـــل : الصَّرح الصَّحْن ؛ كما يقال : هذه صَرْحة الدار وقاعتها ؛ بمعنًى . وحكى أبو عبيدة فى الغريب المصنف أن الصَّرح كل بناء عال مرتفع من الأرض ، وأن الممرد الطويل . النحاس : أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملا واحدا صرح ؛ من قولهم : لبن صريح إذا لم يَشُبه ماء ؛ ومن قولهم : صَرَّح بالأمر ، ومنه : عربى صريح . وقيل : عمله ليختبر قول الجن فيها إن أمها من الجن ، ورِجلها رِجل حمار ؛ قاله وهب بن منبّه . فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق : وتعجبت من كون كرسيه على المـــاء ، ورأت ما هالها ، ولم يكن [لها][(٢)] بَدّ من آمتثال الأمر .﴿ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ فإذا هى أحسن الناس ساقا ؛ سليمة مما قالت الجن ، غير أنها كانت كثيرة الشعر ، فلما بلغت هذا الحد ، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها : « إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ » والممرد المحكوك المملس ، ومنه الأمرد . وتمرد الرجل إذ أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه ؛ قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء التى لا ورق عليها . ورملة مرداء إذا كانت لا تُنْبِت . والممرد أيضا المطوّل ، ومنه قيل للحصن مارد . أبو صالح : طويل على هيئة النخلة . آبن شجرة : واسع فى طوله وعرضه . قال :

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم * قبيل الضحا فى السَّابرىّ الممــرَّد

أى الدروع الواســـعة . وعند ذلك آستسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم ؛ على ما يأتى . ولـــا رأى ســـليمان عليه الســـلام قدميها قال لمن يصحبه من الشياطين : كيف لى أن أقلع هـــذا الشعر من غير مضرة بالجسد ؟ فدلّه على عمل النُّورَة ، فكانت النُّورَة والحمامات من يومئذ . فيروى أن سليمان تزوّجها عند ذلك وأسكنها الشام ؛ قاله الضحاك .

(١) البيت لأبى ذؤيب وهو بتمـامه :

على طرق كنحور الظبا * تحسب أعلامهنّ الصروحا

يقول : هذه الطرق كنحور الظبا فى بيانها .		(٢) من ب و ز و ط و ك .

وقال سعيد بن عبد العزيز فى كتاب النقاش : تزوّجها وردّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ؛ فولدت له غلاما سماه داود مات فى زمانه . وفى بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهى من أزواج سليمان عليه السلام فى الجنة" فقالت عائشة : هى أحسن ساقين منى ؟ فقال عليه السلام : "أنت أحسن ساقين منها فى الجنة" ذكره القشيرى . وذكر الثعلبي عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أول من آتخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألصق ظهره إلى الجدار فمسه حرُّها قال أوّاه من عذاب الله (1)" . ثم أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها باليمن، وأمر الجن فبنوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها آرتفاعا : سَلْحون و بَيْنون وغُمْدان، ثم كان سليمان يزورها فى كل شهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام . وحكى الشّعبي أن ناسا من حِمْير حفروا مقبرة الملوك ، فوجدوا فيها قبر معقودا فيه آمرأة عليها حُلَل منسوجة بالذهب ، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب :

يأيّها الأقوامُ عُوجُوا معا * وأربعوا فى مَقْبَرِى العِيسَا
لتعلموا أنّى تلك التى * قد كنتُ أُدعَى الدهرَ بَلْقِيسَا
شَيَّدْتُ قصرَ المُلْكِ فى حِمْيرٍ * قَوْمِى وقِدْمًا كان مأنوسا
وكنتُ فى مُلْكِى وتدبيره * أُرْغِمُ فى الله المَعَاطِيسَا
بَعْلِى سليمانُ النبىُّ الذى * قد كان للتوراة دِرِّيسَا
وسخّر الريحُ له مركبا * تَهُبُّ أحيانا رَوَامِيسَا
مع آبن داودَ النبىِّ الذى * قَدَّسه الرحمنُ تَقْدِيسَا

وقال محمد بن إسحق ووهب بن منبّه : لم يتروجها سليمان، وإنما قال لها : آختارى زوجا؛ فقالت : مثلى لا ينكح وقد كان لى من الملك ما كان . فقال : لا بد فى الإسلام من ذلك . فآختارت ذا تُبّع ملك هَمْدان، فزوجه إياها وردها إلى اليمن، وأمر زوبعة أمير جنّ اليمن أن يطيعه ، فبنى له المصانع، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان . وقال قوم : لم يرد فيه خبر صحيح

(1) فى ك : عذاب النار .

لا فى أنه تزوجها ولا فى أنه زوجها . وهى بلقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد آبن حدر بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وكان جدها الهداهد ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ولدا كلهم ملوك ، وكان ملك أرض اليمن كلها ، وكان أبوها السرح يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفؤا لى ، وأبى أن يتروج منهـم ، فزوجوه[(١)] آمرأة من الجن يقال لهـا ريحانة بنت السكن، فولدت له بلقمة وهى بلقيس، ولم يكن له ولد غيرها . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليـه وسلم : "كان أحد أبوى بلقيس جنيا" فمـات أبوها ، وآختلف عليهـا قومها فرقتين، وملكوا أمرهم رجلا فساءت سيرته، حتى بفجر بنساء رعيته، فأدركت بلقيس الغيرة، فعرضت عليه نفسها فتزوجها، فسقته الخمر حتى حزت رأسه، ونصبته على باب دارها فملكوها . وقال أبو بكرة : ذكرت بلقيس عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "لا يفلح قوم ولوا أمرهم[(٢)] آمرأة" . ويقال : إن سبب تزوج أبيها من الجن أنه كان وزيرا لملك عاتٍ يغتصب نساء الرعية، وكان الوزير غيورا فلم يتزوج، فصحب مرة فى الطريق رجلا لا يعرفه ، فقال هل لك من زوجة ؟ فقال : لا أتزوج أبدا ، فإن ملك بلدنا يغتصب النساء من أزواجهن، فقال لئن تزوجت آبنتى لا يغتصبها أبدا . قال : بل يغتصبها . قال : إنا قوم من الجن لا يقدر علينا؛ فتزوج آبنته فولدت له بلقيس؛ ثم ماتت الأم وآبتنت بلقيس قصرا فى الصحراء، فتحدث أبوها بحديثها غلطا، فنمى للملك خبرها فقال له : يافلان تكون عندك هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتينى بها، وأنت تعلم حبي للنساء ! ثم أمر بحبسه، فأرسلت بلقيس إليه إنى بين يديك؛ فتجهز للسير إلى قصرها، فلما همّ بالدخول بمن معه أخرجت إليـه الجوارى من بنات الجن مثـل صورة الشمس، وقلن له ألا تستحى ؟ ! تقول لك سـيدتنا أتدخل بهؤلاء الرجال معك على أهلك ! فأذن لهم بالآنصراف ودخل وحده ، وأغلقت عليـه الباب وقتلته بالنعال، وقطعت رأسه ورمت به إلى عسكره، فَأَمَّرُوها عليهم؛ فلم تزل كذلك إلى أن

(١) فى ك : فتزوج .

(٢) الحـديث مروى فى البخارى والنسائى والترمذى من طريق أبى بكر فى آبنة كسرى ؛ وذلك أنه لمـا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا آبنة كسرى لمـا هلك قال صلى الله عليه وسلم : "ولن يفلح قوم ولوا أمرهم آمرأة" .

بلّغ الهدهد خبرها سليمان عليه السلام . وذلك أن سليمان لما نزل فى بعض منازله قال الهدهد : إن سليمان قد آشتغل بالنزول ، فآرتفع نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها ، فأبصر الدنيا يمينا وشمالا ، فرأى بستانا لبلقيس فيه هدهد، وكان اسم ذلك الهدهد عفير، فقال عفير اليمن ليعفور سليمان : من أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ قال : أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان آبن داود . قال : ومَن سليمان ؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكل ما بين السماء والأرض . فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد؛ ملكها آمرأة يقال لها بلقيس ، تحت يدها آثنا عشر ألف قَيْل[1]، تحت يد كل قَيل مائة ألف مقاتل من سوى النساء والذرارى ؛ فانطلق معه ونظر إلى بلقيس ومُلكها ، ورجع إلى سليمان وقت العصر ، وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة فلم يجده ، وكانوا على غير ماء . قال آبن عباس فى رواية : وقعت عليه نفحة من الشمس . فقال لوزير الطير : هذا موضع مَن ؟ قال : يا نبىّ الله هذا موضع الهدهد . قال : وأين ذهب ؟ قال : لا أدرى أصلح الله الملك . فغضب سليمان وقال : « لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا » الآية . ثم دعا بالعُقاب سيد الطير وأصرمها وأشدها بأسا فقال : ما تريد يانبىّ الله ؟ فقال : علىّ بالهدهد الساعة . فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى لزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم ، فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن ، فآنقض نحوه وأنشب فيه مخلبه . فقال له الهدهد : أسألك بالله الذى أقدرك وقوّاك علىّ إلا رحمتنى . فقال له : الويل لك ، وثكلتك أُمك ! إن نبىّ الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك . ثم أتى به فآستقبلته النّسور وسائر عساكر الطير . وقالوا الويل لك ، لقد توعدك نبىّ الله . فقال : وما قدرى وما أنا ! أما آستثنى؟ قالوا : بلى ! إنه قال : « أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » ثم دخل على سليمان فرفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعا لسليمان عليه السلام . فقال له سليمان : أين كنت عن خدمتك ومكانك ؟ لأعذبنك عذابا شديدا أو لأذبحنك . فقال له الهدهد : يا نبىّ الله ! آذكر وقوفك بين يدى الله بمنزلة وقوفى بين يديك . فآقشعر جلد سليمان وآرتعد وعفا عنه . وقال عكرمة : إنما صرف الله سليمان عن ذبح الهدهد أنه

(١) فى ب وط وك : قائد تحت يد كل قائد .

كان بارًا بوالديه؛ ينقل الطعام إليهما فيزقهما . ثم قال له سليمان : ما الذى أبطأ بك ؟ فقال الهدهد ما أخبر الله عن بلقيس وعرشها وقومها حسبما تقدّم بيانه . قال الماوردى : والقول بأن أمّ بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين ، وآختلاف الطبعين ، وتفارق الحِسّين [1]؛ لأن الآدمى جسمانى والجن روحانى ، وخلق الله الآدمى من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، ويمنع الأمتزاج مع هذا التباين ، ويستحيل التناسل مع هذا الأختلاف [2] .

قلت : قد مضى القول فى هذا ، والعقل لا يحيله مع ما جاء من الخبر فى ذلك ، وإذا نظر فى أصل الخلق فأصله الماء على ما تقدّم بيانه ، ولا بعد فى ذلك ؛ والله أعلم . وفى التنزيل « وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ [3] » وقد تقدّم . وقال تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » على ما يأتى فى « الرحمن [4] » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى بالشرك الذى كانت عليه ؛ قاله آبن شجرة . وقال سفيان : أى بالظن الذى توهمته فى سليمان ؛ لأنها لما أمرت بدخول الصرح حسبته لجة ، وأن سليمان يريد تغريقها فيه . فلما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن . وكسرت « إن » لأنها مبتدأة بعد القول . ومن العرب من يفتحها فيعمل فيها القول . ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . إذا سكنت «مع» فهى حرف جاء لمعنى بلا اختلاف بين النحويين . وإذا فتحتها ففيها قولان : أحدهما — أنه بمعنى الظرف آسم . والآخر — أنه حرف خافض مبنى على الفتح؛ قاله النحاس :

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

(١) فى ز « الجسمين » .
(٢) قال محققه : هذا هو الحق وما يحيله العلم يحيله العقل .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٨
(٤) راجع جـ ١٧ ص ١٨٠ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ تقدم معناه . ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : أى مؤمن وكافر ؛ قال : والخصومة ما قصه الله تعالى فى قوله : « أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ » [(١)] إلى قوله : « كَافِرُونَ » . وقيل : تخاصمهم أن كل فرقة قالت : نحن على الحق دونكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة؛ المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب ، وتقدّمون الكفر الذى يوجب العقاب ؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار : ايتنا بالعذاب . وقيل : أى لم تفعلون ما تستحقون به العقاب ؛ لا أنهم التمسوا تعجيل العذاب . ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ﴾ أى هلا تتوبون إلى الله من الشرك . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لكى ترحموا؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أى تشاءمنا . والشؤم النحس . ولا شيء أضر بالرأى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطِّيرة . ومن ظن أن خُوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء ، أو يدفع مقدورا فقد جهل . وقال الشاعر :

طِيرةُ الدهرِ لا تَرُدُّ قضاءً * فاعذِر الدهرَ لا تَشُبه بلومِ
أىُّ يومٍ يَخُصُّه بسعودٍ * والمنايا ينزلن فى كل يومِ
ليس يومٌ إلا وفيه سعودٌ * ونحوسٌ تجرى لقومٍ فقومِ

وقد كانت العرب أكثر الناس طِيرة، وكانت إذا أرادت سفرا نفرت طائرا ، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت ، فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : " أَقِرُّوا الطير على وكُناتها [(٢)] " على ما تقدم بيانه فى « المائدة [(٣)] » . ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى مصائبكم . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أى تمتحنون . وقيل : تعذبون بذنوبكم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٠ . (٢) الوكنات (بضم الكاف وفتحها وسكونها) جمع وكنة (بالسكون) وهى عش الطائر ووكره : ويروى : « على مكناتها » . (٣) راجع جـ ٦ ص ٦٠ .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أى فى مدينة صالح وهى الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أى تسعة رجال من أبناء أشرافهم . قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ، وكانوا يفسدون فى الأرض و يأمرون بالفساد ، فجلسوا عند صخرة عظيمة فقلبها الله عليهم . وقال عطاء بن أبى رباح : بلغنى أنهم كانوا يقرِضون الدنانير والدراهم ، وذلك من الفساد فى الأرض ؛ وقاله سعيد بن المسيّب . وقيل : فسادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يستر ون عليهم . وقيل : غير هذا . واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوجه القوم وأقناهم وأغناهم ، وكانوا أهل كفر ومعاص جمة ؛ و جملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون . والرهط آسم للجماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط . والجمع أرهط وأراهط . قال :

يا بؤس للحرب التى * وضعت أراهط فآستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدَار عاقر الناقة ؛ ذكره آبن عطية .

قلت : وآختلف فى أسمائهم ؛ فقال الغزنوى : وأسماؤهم قُدَار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما وذهيم وذعما وذعيم وقتال وصداق . آبن إسحـق : رأسهم قدار بن سالف ومصدع ابن مهرع ، فآتبعهم سبعة ؛ هم بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تعرف أسماؤهم . وذكر الزمخشرى أسماءهم عن وهب بن منبّه : الهذيل بن عبد رب ، غنم بن غنم ، رياب بن مهرج ، مصدع بن مهرج ، عمير بن كردبة ، عاصم بن مخرمة ، سبيط بن صدقة ، سمعان بن صفى ، قدار بن سالف ؛ وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وكانوا من أبناء أشرافهم . السّهيلى : ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وسماهم بأسمائهم ، وذلك لا ينضبط برواية ؛ غير أنى أذكره على وجه الآجتهاد

والتخمين، ولكن نذكره على ما وجدناه فى كتاب محمد بن حبيب، وهم: مصدع بن دهر. ويقال دهم، وقدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعما وهرما ودعين بن عمير.

قلت: وقد ذكر الماوردى أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعما ودعيم وهرما وهريم وداب وصواب ورياب ومسطح وقدار، وكانوا بأرض الحجر وهى [أرض][1] الشام.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يجوز أن يكون «تَقَاسَمُوا» فعلا مستقبلا وهو أمر؛ أى قال بعضهم لبعض احلفوا. ويجوز أن يكون ماضيا فى معنى الحال كأنه قال: قالوا متقاسمين بالله؛ ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: «يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ» وليس فيها «قَالُوا». «لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ» قراءة العامة بالنون فيهما واختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائى: بالتاء فيهما، وضم التاء واللام على الخطاب أى أنهم تخاطبوا بذلك؛ واختاره أبو عبيد. وقرأ مجاهد وحميد بالياء فيهما، وضم الياء واللام على الخبر. والبيات مباغتة العدو ليلا. ومعنى «لِوَلِيِّهِ» أى لرهط صالح الذى له ولاية الدم. ﴿ مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ[2] أَهْلِهِ ﴾ أى ما حضرنا، ولا ندرى من قتله وقتل أهله. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى إنكارنا لقتله. والمُهْلَك بمعنى الإهلاك؛ ويجوز أن يكون الموضع. وقرأ [عاصم][3] والسلمى: (بفتح الميم واللام) أى الهلاك؛ يقال: ضرب يضرب مَضْرَبا أى ضربا. وقرأ المفضل وأبو بكر: (بفتح الميم وجر اللام) فيكون اسم المكان كالمجلس لموضع الجلوس؛ ويجوز أن يكون مصدرا؛ كقوله تعالى: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ[4]» أى رجوعكم.

قوله تعالى: وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

---

(١) من ب و ك. (٢) «مهلك» بضم الميم وفتح اللام قراءة الجمهور. (٣) فى الأصول: «وقرأ حفص ... الخ» وحفص يقرأ بفتح الميم وكسر اللام. (٤) راجع جـ ٨ ص ٣٠٨.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرهم ما روى أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة ، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب ، ٱتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلا ويقتلوه وأهله المختصين به ؛ قالوا : فإذا كان كاذبا في وعيده أوقعنا به ما يستحق ، وإن كان صادقا كنا عجلناه قبلنا ، وشفينا نفوسنا ؛ قاله مجاهد وغيره . قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فٱمتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخا بالحجارة فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . وقال قتادة : خرجوا مسرعين إلى صالح ، فسلّط عليهم ملك بيده صخرة فقتلهم . وقال السّدى : نزلوا على جرف من الأرض ، فٱنهار بهم فأهلكهم الله تحته . وقيل : ٱختفوا في غار قريب من دار صالح ، فٱنحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعا ؛ فهذا ما كان من مكرهم . ومكر الله مجازاتهم على ذلك . ﴿فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي بالصيحة التي أهلكتهم . وقد قيل : إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل . والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ؛ ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة . وكان الأعمش والحسن وابن أبي إسحق وعاصم وحمزة والكسائي يقرءون : « أَنَّا » بالفتح ؛ وقال ٱبن الأنباري : فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ » لأن « أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ » خبر كان . ويجوز أن تجعلها في موضع رفع على الإتباع للعاقبة . ويجوز أن تجعلها في موضع نصب من قول الفراء ، وخفض من قول الكسائي على معنى : بأنا دمرناهم ولأنا دمرناهم . ويجوز أن تجعلها في موضع نصب على الإتباع لموضع « كَيْفَ » فمن هذه المذاهب لا يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . وقرأ ٱبن كثير ونافع وأبو عمرو : « إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ » بكسر الألف على الٱستئناف ؛ فعلى هذا المذهب يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . قال النحاس : ويجوز أن تنصب « عَاقِبَةُ » على خبر « كَانَ » ويكون « إِنَّا » في موضع رفع على أنها ٱسم « كان » . ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدإ تبيينا للعاقبة ؛ والتقدير : هي إنا دمرناهم ؛ قال أبو حاتم : وفي حرف أُبَيّ « أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ » تصديقا لفتحها .

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ قراءة العامة بالنصب على الحال عند الفرّاء والنحاس ؛ أى خالية عن أهلها خرابا ليس بها ساكن . وقال الكسائى وأبو عبيدة : « خَاوِيَةً » نصب على القطع ؛ مجازه : فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصب على الحال ؛ كقوله : « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً »(1) . وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجحدرى : بالرفع على أنها خبر عن « تِلْكَ » و « بُيُوتُهُمْ » بدل من « تِلْكَ » . ويجوز أن تكون « بُيُوتُهُمْ » عطف بيان و « خَاوِيَةٌ » خبر عن « تِلْكَ » . ويجوز أن يكون رفع « خَاوِيَةٌ » على أنها خبر آبتداء محذوف؛ أى هى خاوية ، أو بدل من « بُيُوتُهُمْ » لأن النكرة تبدل من المعرفة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بصالح ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله ويخافون عذابه . قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل . والباقون خرج بأبدانهم — فى قول مقاتل وغيره — خُرَاجٌ مثل الحِمَّص ؛ وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود . وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، وهلاكهم يوم الأحد . قال مقاتل : ففقعت تلك الخراجات ، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة فخمدوا ، وكان ذلك ضحوة . وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ؛ فلما دخلها مات صالح ؛ فسميت حضرموت . قال الضحاك : ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها حاضورا ؛ على ما تقدّم بيانه فى قصة أصحاب الرسّ .

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

(1) راجع جـ ١٠ ص ١١٣ .

قوله تعـالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أى وأرسلنا لوطا، أو آذكر لوطا . « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » وهم أهل سـدوم . وقال لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفعـلة القبيحة الشنيعة . ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنهـا فاحشة ، وذلك أعظم لذنوبكم . وقيل : يأتى بعضكم بعضا وأنتم تنظرون إليه . وكانوا لا يستترون عتوّا منهم وتمرّدا . ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أعاد ذكرها لفـرط قبحها وشنعتها . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَـلُونَ ﴾ إما أمر التحريم أو العقوبة . وآختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من « أَئِنَّكُمْ » فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها ؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الآستفهام .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَـا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أى عن أدبار الرجال . يقولون ذلك آستهزاء منهـم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : عابوهم والله بغـير عيب بأنهـم يتطهرون من أعمال السوء . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا آمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ وقرأ عاصم : « قَدَرْنَا » مخففا والمعنى واحد . يقال قـد قَدَرتُ الشيءَ قَدْرا وقَدَرا وقدّرته . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَـرًا[1] فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ[2] ﴾ أى من أُنذر فلم يقبل الإنذار . وقد مضى بيان هذا فى « الأعراف » و « هود » .

قوله تعـالى : قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٨١ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ قال الفرّاء قال أهل المعانى : قيل للوط « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » على هلاكهم . وخالف جماعة من العلماء الفرّاء فى هذا وقالوا : هو مخاطبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية . قال النحاس : وهذا أولى، لأن القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره . وقيل : المعنى؛ أى « قُلْ » يا محمد « الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » يعنى أمته عليه السلام . قال الكلبي : ٱصطفاهم الله بمعرفته وطاعته . وقال ٱبن عباس وسفيان : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل، و بعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، و إصغائهم إليه ، و إنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المستمع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وفى مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى ، وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن .

قوله تعالى : « الَّذِينَ اصْطَفَى » ٱختار؛ أى لرسالته وهم الأنبياء عليهم السلام؛ دليله قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ ﴾ وأجاز أبو حاتم « أَأَللَّهُ خَيْرٌ » بهمزتين . النحاس : ولا نعلم أحدا تابعه على ذلك؛ لأن هذه المدّة إنما جيء بها فرقا بين الٱستفهام والخبر، وهذه ألف التوقيف، و « خَيْرٌ » ههنا ليس بمعنى أفضل منك، و إنما هو مثل قول الشاعر[1] :

أتهجوه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

فالمعنى فالذى فيه الشر منكما للذى فيه الخير الفداء . ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك إذا قلت : فلان شر من فلان ففى كل واحد منهما شر . وقيل : المعنى؛ الخير فى هذا

(١) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه .

أم فى هـذا الذى تشركونه فى العبادة ! وحكى سيبويه : السـعادة أحب إليك أم الشقاء ؛ وهو يعـلم أن السعادة أحب إليه . وقيـل : هو على بابه من التفضيل ، والمعنى : آلله خير أم ماتشركون؛ أى أثوابه خير أم عقاب ماتشركون . وقيل : قال لهم ذلك؛لأنهم كانوا يعتقدون أن فى عبادة الأصنام خيرا فخاطبهم الله عز وجل على آعتقادهم . وقيل : اللفظ لفظ الآستفهام ومعناه الخـبر . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب : « يُشْرِكُونَ » بياء على الخـبر . الباقون بالتاء على الخطاب ، وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه [الآية] يقول : " بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم " .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ قال أبو حاتم : تقـديره ؛ آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض ؛ وقد تقدّم . ومعناه : قدر على خلقهن . وقيل : المعنى؛ أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض ؟ فهو مردود على ما قبله من المعنى ؛ وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز آلهتهم . ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ الحديقة البستان الذى عليه حائط . والبهجة المنظر الحسن . قال الفراء : الحديقة البستان المحظر عليه حائط ، و إن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق النخل ذات بهجة، والبهجة الزينة والحسن؛ يبهج به من رآه . ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ « ما » للنفى ومعناه الحظر والمنع من فعل هـذا ؛ أى ما كان للبشر ، ولا يتهيأ لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم ، أن ينبتوا شجرها ؛ إذهم عجزة عن مثلها ، لأن ذلك إخراج الشىء من العدم إلى الوجود .

قلت : وقد يستدلّ من هذا على منع تصوير شىء سواء كان له روح أم لم يكن ؛ وهو قول مجاهد . و يعضده قوله صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلق فليخلقوا ذرّة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة " رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة؛ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " قال الله عز وجل " فذكره ؛ فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شىء ممـا خلقه الله وضاهاه فى التشبيه فى خلقه

فيما انفرد به سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح . وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به . وقد قال ابن عباس للذى سأله أن يصنع الصور : إن كنت لا بد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس له خرجه مسلم أيضا . والمنع أولى والله أعلم لما ذكرنا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « سبأ »(١) إن شاء الله تعالى ثم قال على جهة التوبيخ : ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى هل معبود مع الله يعينه على ذلك . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ بالله غيره . وقيل : « يَعْدِلُونَ » عن الحق والقصد ؛ أى يكفرون . وقيل : « إِلَٰهٌ » مرفوع بـ « مع » تقديره : أمع الله ويلكم إله . والوقف على « مَعَ اللَّهِ » حسن .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى مستقرا . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أى وسطها مثل : «وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا»(٢) . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ يعنى جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ مانعا من قدرته لئلا يختلط الأجاج بالعذب . وقال ابن عباس : سلطانا من قدرته فلا هذا يغيّر ذاك ولا ذاك يغيّر هذا . والحجز المنع . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانيــة .

قوله تعالى : أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٧١ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٨ فما بعد .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدي : الذي لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذي قطع العلائق عما دون الله . وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابوري : هو المفلس . وقال سهل ابن عبد الله : هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعيا لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها . وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر ؛ قال : إذًا فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . قال الشاعر :

وإني لأدعو الله والأمرُ ضيّقٌ * عليّ فما ينفكُّ أن يتفرّجا
ورُبَّ أخٍ سُدَّتْ عليه وُجوهُهُ * أصاب لها لمّا دعا اللهَ مَخْرَجا

الثانيـــة — وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء المضطر : "اللهم رحمتك أرجو فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفة عين وأصلح لي شأني كلَّه لا إله إلا أنت" .

الثالثـــة — ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ؛ والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص ، وقطع القلب عمـا سواه ، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمّة ، وجد من مؤمن أو كافر ، طائع أو فاجر ؛ كما قال تعالى : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ »[1] وقوله : « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ »[2] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم ، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم . وقال تعالى : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه . وفي الحديث : "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده" ذكره صاحب الشهاب ؛ وهو حديث صحيح . وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنه قال لمعاذ لمـا وجهه إلى أرض اليمن " واتّقِ دعوةَ المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب "

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ فما بعد . (٢) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء .

وفى كتاب الشهاب : "آتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين" وهو صحيح أيضا . وخرج الآجرّى من حديث أبى ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : "فإنى لا أردها ولو كانت من فم كافر" فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه، و إجابة لإخلاصه و إن كان كافرا، وكذلك إن كان فاجرا فى دينه ؛ ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته . وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له ، أو آقتصاص منه، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل : « وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا »(١) وأكد سرعة إجابتها بقوله: "تحمل على الغمام" ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكّل ملائكته بتلق دعوة المظلوم وبحملها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء، والسماء قبلة الدعاء ليراها الملائكة كلهم، فيظهر منه معاونة المظلوم ، وشفاعة منهم له فى إجابة دعوته ، رحمة له . وفى هذا تحذير من الظلم جملة، لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره ؛ حيث قال على لسان نبيه فى صحيح مسلم وغيره : « يا عبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث . فالمظلوم مضطر، ويقرب منه المسافر؛ لأنه منقطع عن الأهل والوطن، منفرد عن الصديق والحميم، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغربته ، فتصدق ضرورته إلى المولى ، فيخلص إليه فى اللجاء ، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه، وكذلك دعوة الوالد على ولده، لا تصدر منه مع ما يعلم من حنّته عليه وشفقته ، إلا عند تكامل عجزه عنه ، وصدق ضرورته ؛ و إياسه عن برّ ولده ، مع وجود أذيته ، فيسرع الحق إلى إجابته .

قوله تعالى : ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أى الضر . وقال الكلبي : الجور . ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أى سكانها يهلك قوما و ينشئ آخرين . وفى كتاب النقاش : أى و يجعل أولادكم خلفا منكم . وقال الكلبي : خلفا من الكفار ينزلون أرضهم، وطاعة الله بعد كفرهم . ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ على جهة التوبيخ ؛ كأنه قال أمع الله و يلكم إله ؛ فـ « إله » مرفوع بـ « مع » .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٥ .

ويجوز أن يكون مرفوعا بإضمار أ إله مع الله يفعل ذلك فتعبدوه . والوقف على « مَعَ اللهِ » حسن . ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب : «يَذَّكَّرُونَ» بالياء على الخبر، كقوله : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » و« تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » فأخبر فيما قبلها وبعدها؛ واختاره أبو حاتم . الباقون بالتاء خطابا لقوله : « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ ﴾ أي يرشدكم الطريق ﴿ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار . وقيل : وجعل مفاوز البر التي لا أعلام لها، ولجج البحار كأنها ظلمات؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُرًا(١) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي قدام المطر باتفاق أهل التأويل . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ ﴾ يفعل ذلك ويعينه عليه . ﴿ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من دونه .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كانوا يقرون أنه الخالق الرازق فألزمهم الإعادة؛ أي إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ ﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي حجتكم أن لي شريكا، أو حجتكم في أنه صنع أحد شيئا من هذه الأشياء غير الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قوله تعالى : قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبه على الخلق، ولم يطلع عليه أحد لئلا يأمن أحد من عبيده مكره . وقيل : نزلت في المشركين حين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة . و« مَنْ » في موضع رفع؛ والمعنى : قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله؛ فإنه بدل من « مَن » قاله الزجاج. الفراء : وإنما رفع ما بعد « إلا » لأن ما قبلها جحد، كقوله : ما ذهب أحد إلا أبوك ؛

(١) « نشرا » بالنون على قراءة نافع . وفيه سبع قراءات؛ راجع جـ ٧ ص ٨ و ص ٢٢٢ .

والمعنى واحد . قال الزجاج : ومن نصب نصب على الأستثناء ؛ يعنى فى الكلام . قال النحاس : وسمعته يحتج بهذه الآية على من صدّق منجِّما ؛ وقال : أخاف أن يكفر بهذه الآية .

قلت : وقد مضى هذا فى « الأنعام »(١) مستوفى . وقالت عائشة : من زعم أن محمدا يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّٰهُ » خرجه مسلم . وروى أنه دخل على الحجاج منجِّم فٱعتقله الحجاج ، ثم أخذ حصيات فعدّهن ، ثم قال : كم فى يدى من حصاة ؟ فحسب المنجم ثم قال : كذا ؛ فأصاب . ثم ٱعتقله فأخذ حصيات لم يعدهن فقال : كم فى يدى ؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ ؛ ثم قال : أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها ؛ قال : لا . قال : فإنى لا أصيب . قال : فما الفرق ؟ قال : إن ذلك أحصيته فخرج عن حدّ الغيب ، وهذا لم تحصه فهو غيب و « لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّٰهُ » وقد مضى هذا فى « آل عمران »(٢) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى . وقرأ أبو جعفر وٱبن كثير وأبو عمرو وحميد : «بَلْ أَدْرَكَ»(٣) من الإدراك . وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش : «بَلِ ٱدَّرَكَ» غير مهموز مشدّدا . وقرأ ابن محيصن : « بَلْ أَ ٱدَّرَكَ » على الأستفهام . وقرأ ابن عباس : « بَلَى » بإثبات الياء « أَدَّارَكَ » بهمزة قطع والدال مشدّدة وألف بعدها ؛ قال النحاس : وإسناده إسناد صحيح ، هو من حديث شُعبة يرفعه إلى ابن عباس . وزعم هرون القارئ أن قراءة أبىّ « بَلْ تَدَارَكَ عِلْمُهُمْ » [وحكى الثعلبى أنها فى حرف أبىّ أم تدارك . والعرب تضع بَلْ موضع (أم) و(أم) موضع بل إذا كان فى أوّل الكلام استفهام ؛ كقول الشاعر :

فوالله لا أدرى أسلمى تقولت * أم القول أم كل إلى حبيب

أى بل كل . قال النحاس(٤)] : القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد ؛ لأن أصل « ٱدَّارَكَ » تدارك ؛ أدغمت الدال فى التاء وجىء بألف الوصل ؛ وفى معناه قولان : أحدهما

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٧ . (٣) لم تذكر كتب التفسير الأخرى الأعمش فى هذه القراءة . ولعل هذه رواية أخرى عنه غير الرواية المتقدمة . (٤) من ب .

أن المعنى بل تكامل علمهم فى الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وُعِدوا به معاينة فتكامل علمهـم به . والقول الآخر أن المعنى : بل تتابع علمهم اليوم فى الآخرة؛ فقالوا تكون وقالوا لا تكون. القراءة الثانية فيها [أيضاً][1] قولان : أحدهما أن معناه كمل فى الآخرة؛ وهو مثل الأول؛ قال مجاهد : معناه يدرك علمهم فى الآخرة و يعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا مكذِّبين. والقول الآخر أنه على معنى الإنكار؛ وهو مذهب أبى إسحق؛ واستدلّ على صحة هذا القول بأن بعده « بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » أى لم يدرك علمهم علم الآخرة . وقيل : بل ضلّ وغاب علمهم فى الآخرة فليس لهم فيها علم . والقراءة الثالثة: « بَلِ ٱدَّرَكَ » فهى بمعنى « بَلِ ٱدَّارَكَ » وقد يجىء افتعل وتفاعل بمعنى ؛ ولذلك صُحِّح ازدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا . القراءة الرابعة : ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار؛ كما تقول : أ أنا قاتلتـك ؟ ! فيكون المعـنى لم يدرك ؛ وعليـه ترجع قراءة ٱبن عباس ؛ قال ٱبن عباس : « بَلَى أَدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ » أى لم يدرك . قال الفرّاء : وهو قول حسن كأنه وجهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث ، كقولك لرجل تكذبه : بَلَى لعمرى قـد أدركت السَّلَفَ فأنت تَروى مالا أروى ! وأنت تكذبه . وقراءة سابعـة : « بَلَ ٱدَّرَكَ » بفتح اللام ؛ عدل إلى الفتحة لخفتها . وقـد حكى نحو ذلك عن قطرب فى « قُمَ ٱللَّيْلَ » فإنه عدل إلى الفتـح . وكذلك و(بِعَ الثوبَ) ونحوه . وذكر الزمخشرى فى الكتاب : وقرئ « بَلْ أَ أَدْرَكَ » بهمزتين « بَلْ آأَدْرَكَ » بألف بينهما « بَلَى أَ أَدْرَكَ » « أَمْ تَدَارَكَ » « أَمْ أَدْرَكَ » فهـذه ثنتا عشرة قراءة، ثم أخذ يعلل وجوه القراءات وقال: فإن قلت فما وجه قراءة « بَلْ أَ أَدْرَكَ » على الاستفهام؟ قلت : هو ٱستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ : « أَمْ أَدْرَكَ » و « أَمْ تَدَارَكَ » لأنها أم التى بمعنى بل والهمزة ، وأما من قرأ : « بَلَى أَ أَدْرَكَ » على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ،ثم أنكر علمهم بكونها، و إذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور وقت كونها ؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن . « فِى ٱلْآخِرَةِ » فى شأن الآخرة ومعناها . ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أى فى الدنيا. ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أى بقلوبهم واحدهم عمٍو. وقيل : عَمٍ؛ وأصله عميون حذفت الياء لالتقاء الساكنين ولم يجز تحريكها لثقل الحركة فيها .

(١) ب و ك .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى مشركى مكة . ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا آيِنَّا[1] لَمُخْرَجُونَ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفى سورة : «العنكبوت»[2] . وقرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة . وقرأ عاصم وحمزة أيضا باستفهامين إلا أنهما حققا الهمزتين، وكل ماذكرناه فى السورتين جميعا واحد . وقرأ الكسائى وابن عامر ورُوَيس ويعقوب : «أَئِذَا» بهمزتين «إِنَّنَا» بنونين على الخبر فى هذه السورة، وفى سورة : « العنكبوت » بآستفهامين ؛ قال أبو جعفر النحاس : القراءة « إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا آيِنَّا لَمُخْرَجُونَ » موافقة للخط حسنة ، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه : « إِذَا » ليس بآستفهام و « آيِنَّا » آستفهام وفيه « إنّ » فكيف يجوز أن يعمل ما فى حيز الآستفهام فيما قبله ؟ ! وكيف يجوز أن يعمل ما بعد « إنّ » فيما قبلها ؟ ! وكيف يجوز غدًا إن زيدا خارج ؟ ! فإذا كان فيه آستفهام كان أبعد ، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلا لما ذكره . وقال أبو جعفر : وسمعت محمد ابن الوليد يقول : سألنا أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشكلة، وهى قول الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ »[3] فقال : إن عمل فى « إِذَا » « ينبئكم » كان محالا، لأنه لا ينبئهم ذلك الوقت، وإن عمل فيه ما بعد « إنّ » كان المعنى صحيحا وكان خطأ فى العربية أن يعمل ماقبل « إنّ » فيما بعدها؛ وهذا سؤال بيّن رأيت أن يذكر فى السورة التى هو فيها؛ فأما أبو عبيد فمال إلى قراءة نافع وردّ على من جمع بين آستفهامين ، وآستدلّ بقوله تعالى : « أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ[4] » وبقوله تعالى : « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ[5] » وهذا الرد على أبى عمرو وعاصم وحمزة

---

(١) قال ابن عطية : (ممدود الألف) ومثله فى « البحر » و « روح المعانى » .
(٢) راجع ص ٣٤٠ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٦٢
(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٢١ .
(٥) راجع جـ ١١ ص ٢٨٧ .

وطلحة والأعرج لا يلزم منه شيء، ولا يشبه ما جاء به من الآية شيئا؛ والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد، ومعنى : « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » أفإن مت خلدوا . ونظير هذا : أزيد منطلق، ولا يقال : أزيد أمنطلق؛ لأنها بمنزلة شيء واحد وليس كذلك الآية؛ لأن الثانى جملة قائمة بنفسها فيصلح فيها الاستفهام ، والأول كلام يصلح فيه الاستفهام ؛ فأما من حذف الاستفهام من الثانى وأثبته فى الأول فقرأ : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا إِنَّنَا » فحذفه من الثانى ؛ لأن فى الكلام دليلا عليه بمعنى الإنكار .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ تقدّم فى سورة « المؤمنون »(١) . وكانت الأنبياء يقرّبون أمر البعث مبالغة فى التحذير؛ وكل ما هو آت فقريب .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى « قُلْ » لهؤلاء الكفار « سِيرُوا » فى بلاد الشام والحجاز واليمن . ﴿ فَانْظُرُوا ﴾ أى بقلوبكم وبصائركم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ المكذبين لرسلهم . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على كفار مكة إن لم يؤمنوا ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ﴾ فى حرج ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ نزلت فى المستهزئين الذين اقتسموا عِقاب مكة وقد تقدّم ذكرهم(٢) . وقرئ : « فِي ضِيقٍ » بالكسر وقد مضى فى آخر « النحل »(٢) . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ ﴾ أى وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٤٥ .		(٢) راجع جـ ١٠ ص ٥٨ وص ٢٠٣ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ أى اقترب لكم ودنا منكم ﴿ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى من العذاب؛ قاله ابن عباس . وهو من ردفه إذا تبعه وجاء فى أثره؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى اقترب لكم ودنا لكم . أو تكون متعلقة بالمصدر . وقيل: معناه معكم . وقال ابن شجرة : تبعكم ؛ ومنه رِدْف المرأة ؛ لأنه تبع لها من خلفها ؛ ومنه قول أبى ذؤيب :

عاد السوادُ بياضًا فى مَفَارِقـه * لا مَرحبًا ببياض الشَّيْب إذ رَدِفَا

قال الجوهرى : وأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ فى رَدِفه، مثل تَبِعه وأتبعه بمعنى؛ قال خُزيمة بن مالك بن نَهد:

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثُّرَيَّا * ظَنَنتُ بآل فاطمةَ الظُّنونا

يعنى فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنَزة أحدِ القارِظَيْن . وقال الفراء : « رَدِفَ لَكُمْ » دنا لكم ولهذا قال : «لَكُمْ» . وقيل : رَدِفه ورَدِف له بمعنًى فتزاد اللام للتوكيد؛ عن الفراء أيضا . كما تقول: نقدته ونقدت له ، وكِلْته وكِلْت له ، ووزنته ووزنت له ؛ ونحو ذلك . «بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ» من العذاب فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ فى تأخير العقوبة وإدرار الرزق ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله ونعمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أى تخفى صدورهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون من الأمور . وقرأ ابن محيصن وحميد : «مَا تَكُنُّ» من كَنَنتُ الشىء إذا سترته هنا . وفى « القصص »(١) تقديره : ما تَكُنّ صدورهم عليه ؛ وكأن الضمير الذى فى الصدور كالجسم السائر . ومن قرأ : « تُكِنُّ » فهو المعروف؛ يقال : أكننت الشىء إذا أخفيته فى نفسك .

---

(١) راجع ص ٣٠٤ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ؛ حكاه النقاش . وقال آبن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم ، وهذا عام . وإنما دخلت الهاء في «غَائِبَةٍ» إشارة إلى الجمع ؛ أي . ما من خَصْلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها قد أثبتها في أم الكتاب عنده ، فكيف يخفى عليه ما يسرّ هؤلاء وما يعلنونه . وقيل : أي كل شيء هو مثبت في أم الكتاب يخرجه للأجل المؤجل له ؛ فالذي يستعجلونه من العذاب له أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه . والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وذلك أنهم آختلفوا في كثير من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضا فنزلت . والمعنى : إن هذا القرآن يبيّن لهم ما آختلفوا فيه لو أخذوا به ، وذلك ما حرّفوه من التوراة والإنجيل ، وما سقط من كتبهم من الأحكام . ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خص المؤمنين لأنهم المنتفعون به . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ﴾ أي يقضي بين بني إسرائيل فيما آختلفوا فيه في الآخرة ، فيجازي المحقّ والمبطل . وقيل : يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرّفوه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ المنيع الغالب الذي لا يردّ أمره ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى فوّض إليه أمرك وآعتمد عليه ؛ فإنه ناصرك . ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى الظاهر . وقيل : المظهر لمن تدبر وجه الصواب . ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ يعنى الكفار لتركهم التدبر؛ فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل . وقيل : هذا فيمن علم أنه لا يؤمن . ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ يعنى الكفار الذين هم بمنزلة الصم عن قبول المواعظ ؛ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون ؛ نظيره : «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ»(١) كما تقدّم . وقرأ آبن محيصن وحميد وآبن كثير وآبن أبى إسحق وعباس عن أبى عمرو : «وَلَا يَسْمَعُ» بفتح الياء والميم « الصُّمُّ » رفعا على الفاعل . الباقون «تُسْمِعُ» مضارع أسمعت «الصُّمَّ» نصبا .

مسـألة ــ وقد آحتجت عائشة رضى الله عنها فى إنكارها أن النبي صلى الله عليه وسلم أسمع موتى بدر بهذه الآية؛ فنظرت فى الأمر بقياس عقلى ووقفت مع هذه الآية . وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أنتم بِأَسْمَعَ مِنْهم " قال ابن عطية : فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد صلى الله عليه وسلم فى أن ردّ الله إليهم إدراكا سمعوا به مقاله ولولا إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقى من الكفرة ، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين .

قلت : روى البخارى رضى الله عنه؛ حدّثنى عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال حدّثنا سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبى طلحة أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقُذِفوا فى طَوِيٍّ من أطواء بدر خَبِيثٍ مُخْبِث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلته فشدّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه ، قالوا : ما نُرَى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الرَّكِيِّ ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؛ فإنا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقًّا فهل وجدتم ما وَعَد رَبُّكم حقًّا ؛ قال فقال عمر : يا رسول الله ! ما تُكلِّمُ من أجساد لا أرواح لها ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرا ونِقمةً وحسرةً وندمًا . خرجه مسلم

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٣ فما بعد .

أيضا . قال البخاري : حدّثنا عثمان قال حدّثنا عَبْدة عن هشام عن أبيه عن ابن عمر قال : وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قَلِيب بدر فقال : " هل وجدتم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا " ثم قال : " إنهم الآن ليعلمون أن الذى كنت أقول لهم هو الحق " ثم قرأت[1] « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى » حتى قرأت الآية . وقد عورضت هذه الآية بقصة بدر و بالسلام على القبور ، و بما روى فى ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات ، و بأن الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا عنه ، إلى غير ذلك ؛ فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه . وهذا واضح وقد بيّناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ أى كفرهم ؛ أى ليس فى وسعك خلق الإيمان فى قلوبهم . وقرأ حمزة : « وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ » كقوله : « أَفَأَنْتَ تَهْدِي[2] الْعُمْيَ » . الباقون : « بِهَادِي الْعُمْيِ » وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم وفى « الروم[3] » مثله . وكلهم وقف على « بِهَادِي » بالياء فى هذه السورة و بغير ياء فى « الروم » اتباعا للمصحف ، إلا يعقوب فإنه وقف فيهما جميعا بالياء . وأجاز الفراء وأبو حاتم : « وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيَ » وهى الأصل . وفى حرف عبد الله « وَمَا أَنْ تَهْدِي الْعُمْيَ » . ﴿ إِنْ تُسْمِعُ ﴾ أى ما تسمع . ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ قال ابن عباس : أى إلا من خلقته للسعادة فهم مخلصون فى التوحيد .

قوله تعالى : وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

(١) أى عائشة رضى الله عنها . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٤٦ . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٦ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ اختلف في معنى وقع القول وفي الدابة ؛ فقيل : معنى « وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ » وجب الغضب عليهم ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : أي حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم . وقال عبد الله بن مسعود : وقع القول يكون بموت العلماء، وذهاب العلم ، ورفع القرآن . قال عبد الله : أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع ، قالوا هذه المصاحف تُرفَع فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يُسرَى عليه ليلا فيصبحون منه قفْرا، وينسون لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم؛ وذلك حين يقع القول عليهم .

قلت : أسنده أبو بكر البزار قال حدثنا عبد الله بن يوسف الثقفي قال حدثنا عبد المجيد ابن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن أبيه أنه قال : أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفَع وينسى الناس مكانه ؛ وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يُرفَع؛ قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : فيصبحون فيقولون كنا نتكلم بكلام ونقول قولا فيرجعون إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية، وذلك حين يقع القول عليهم . وقيل : القول هو قوله تعالى : « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ »[1] فوقوع القول وجوب العقاب على هؤلاء، فإذا صاروا إلى حد لا تقبل توبتهم ولا يولد لهم ولد مؤمن فحينئذ تقوم القيامة؛ ذكره القشيري. وقول سادس : قالت حفصة بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » فقال : أوحى الله إلى نوح « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ »[2] وكأنما كان على وجهي غطاء فكشف. قال النحاس : وهذا من حسن الجواب؛ لأن الناس ممتحنون ومؤخَّرون لأن فيهم مؤمنين وصالحين، ومن قد علم الله عز وجل أنه سيؤمن ويتوب؛ فلهذا أمهلوا وأمرنا بأخذ الجزية ، فإذا زال هذا وجب القول عليهم، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى : « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٦ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٩ .

قلت : وجميع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد . والدليل عليه آخر الآية « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ » وقرئ : « أَنَّ » : بفتح الهمزة وسيأتى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها [لم تكن آمنت من قبل أوكسبت فى إيمانها خيرا][1] طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابّةُ الأرض " وقد مضى . واختلف فى تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج آختلافا كثيرا ؛ قد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى . فأول الأقوال أنه فِصيل ناقة صالح وهو أصحها — والله أعلم — لما ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : " لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج فى أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية — يعنى مكة — ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها فى البادية و يدخل ذكرها القرية " يعنى مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهى ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فآرفضّ الناس منها شتّى ومعًا وتثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلّت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرىّ وولّت فى الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يافلان الآن تصلّى فتقبل عليه فتسمه فى وجهه ثم تنطلق و يشترك الناس فى الأموال و يصطلحون فى الأمصار يُعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر آقض حقى " وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قوله : " وهى ترغو " والرغاء إنما هو للإبل ؛ وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فآنفتح له حجر فدخل فى جوفه ثم آنطبق عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل . و روى أنها دابة مزغبة شعراء ، ذات قوائم طولها ستون ذراعا ، و يقال إنها الجساسة ؛ وهو قول عبد الله بن عمر . وروى عن آبن عمر أنها على خلقة الآدميين ؛ وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض . وروى أنها جمعت من خلق

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

كل حيوان . وذكر الماوردى والثعلبي رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل آثنا عشر ذراعا — الزمخشرى : بذراع آدم عليه السلام — ويخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتنكت فى وجه المسلم بعصا موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه، وتنكت فى وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسود وجهه ؛ قاله ابن الزبير رضى الله عنهما . وفى كتاب النقاش عن ابن عباس رضى الله عنهما : إن الدابة الثعبان المشرف على جدار الكعبة التى آقتلعتها العُقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة . وحكى الماوردى عن محمد بن كعب عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه سئل عن الدابة فقال : أما والله ما لها ذنب وإن لها لحية . قال الماوردى : وفى هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به .

قلت : ولهذا — والله أعلم — قال بعض المتأخرين من المفسرين : إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنسانا متكلما يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بينة : ويحيا من حىّ عن بينة . قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي فى كتاب المفهم له : وإنما كان عند هذا القائل الأقرب لقوله تعالى : « تُكَلِّمُهُمْ » وعلى هذا فلا يكون فى هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة ، ولا يكون من العشر الآيات المذكورة فى الحديث ؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير، فلا آية خاصة بها فلا ينبغى أن تذكر مع العشر، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذى على أهل الأرض أن يسمّوه بآسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يسمّى بدابة ؛ وهذا خروج عن عادة الفصحاء ، وعن تعظيم العلماء، وليس ذلك دأب العقلاء ؛ فالأولى ما قاله أهل التفسير، والله أعلم بحقائق الأمور .

قلت — قد رفع الإشكال فى هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه .

وآختلف من أى موضع تخرج، فقال عبد الله بن عمر : تخرج من جبل الصفا بمكة؛ يتصدع فتخرج منه . قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال : لو شئت أن أضع قدمى على موضع خروجها

لفعلت . وروى فى خبرعن النبي صـلى الله عليه وسـلم : " إن الأرض تنشـق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى وأنها تخرج من الصفا فتسم بين عيني المؤمن هو مؤمن سِمةً كأنها كوكب دُرّى وتسم بين عيني الكافر نكتة سوداء كافر " وذكر فى الخبر أنها ذات وبروريش؛ ذكره المهدوى . وعن ابن عباس أنهـا تخرج من شِعْب فتَمَسّ رأسها السحاب ورجلاها فى الأرض لم تخرجا ، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام . وعن حذيفة : تخرج ثلاث خرجات؛ خرجة فى بعض البوادى ثم تَكْمُن ، وخرجة فى القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء ، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلها . الزمخشرى : تخرج من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد؛ فقوم يهربون ، وقوم يقفون نظّارة . وروى عن قتادة أنهـا تخـرج فى تهامة . وروى أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنّور نوح عليه السلام . وقيل : من أرض الطائف ؛ قال أبو قبيل : ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله وقال : من هنا تخـرج الدابة التى تكلّم النـاس . وقيل : من بعض أودية تهامة؛ قاله ابن عباس . وقيل : من صخرة من شِعْب أجياد ؛ قاله عبد الله بن عمرو . وقيل : من بحر سَدُوم؛ قاله وهب بن منبّه . ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة المـاوردى فى كتابه . وذكر البغوىّ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدّثنا علىّ بن الجعـد عن فُضيل بن مرزوق الرقاشى الأغر ــ وسـئل عنه يحيى بن مَعين فقال ثقة ــ عن عطية العوفى عن ابن عمر قال تخرج الدابة من صدع فى الكعبة كجرى الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها .

قلت : فهذه أقوال الصحابة والتابعين فى خروج الدابة وصفتها ، وهى ترد قول من قال من المفسرين : إن الدابة إنمـا هى إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر . وقـد روى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تخـرج الدابة فتسم النـاس على خراطيمهم " ذكره المـاوردىّ . « تُكَلِّمُهُمْ » بضم التـاء وشدّ اللام المكسورة ــ من الكلام ــ قراءة العامة ؛ يدلّ عليـه قراءة أبىّ « تُنَبِّئُهُمْ » . وقال السدىّ : تكلمهم ببطلان الأديان سوى

دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسوءهم . وقيل : تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه من قَرُب وبَعُدَ « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » أى بخروجى ؛ لأن خروجها من الآيات . وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين . وقرأ أبو زُرْعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء: «تَكْلِمُهُمْ » بفتح التاء من الكلم وهو الجرح ؛ قال عكرمة : أى تَسِمُهم . وقال أبو الجوزاء : سألت ابن عباس عن هذه الآية « تُكَلِّمُهُمْ » أو « تَكْلِمُهُمْ » ؟ فقال : هى والله تُكَلِّمُهُمْ وتَكْلِمُهُم ؛ تُكَلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أى تجرحه . وقال أبو حاتم : « تُكَلِّمُهُمْ » كما تقول تُجَرِّحهم؛ يذهب إلى أنه تكثير من « تَكْلِمُهُمْ » . ﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبى إسحق ويحيى: «أن» بالفتح. وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة : « إن » بكسر الهمزة . قال النحاس : فى المفتوحة قولان وكذا المكسورة ؛ قال الأخفش : المعنى بأن وكذا قرأ ابن مسعود « بأَنَّ » وقال أبو عبيدة : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها؛ أى تخبرهم أن الناس . وقرأ الكسائى والفراء : « إِنَّ النَّاسَ» بالكسر على الاستئناف . وقال الأخفش : هى بمعنى تقول إن الناس ؛ يعنى الكفار. «بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » يعنى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيمانا ولم يبق إلا مؤمنون وكافرون فى علم الله قبل خروجها ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أى زمرة وجماعة . ﴿ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ يعنى بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى يُدفعون ويساقون إلى موضع الحساب . قال الشماخ :

وكَم وَزَعْنَا من خَمِيسٍ جَحْفَلٍ * وكَمْ حَبَوْنَا من رئِيسٍ مِسْحَلِ

وقال قتادة : « يُوزَعُونَ » أى يُرَدّ أولهم على آخرهم . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ ﴾ أى قال الله ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي ﴾ التى أنزلتها على رسلى ، وبالآيات التى أقمتها دلالة على توحيدى . ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ﴾ أى ببطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتم جاهلين غير مستدلّين . ﴿ أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ أى ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا

مافيها . ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ أى وجب العذاب عليهم بظلمهم أى بشركهم . ﴿ فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى ليس لهم عذر ولا حجة . وقيل : يختم على أفواههم فلا ينطقون ؛ قاله أكثر المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى يستقرون فينامون . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى يبصر فيـه لسعى الرزق . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله . ذكر الدلالة على إلهيته وقدرته أى ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ أى واذكر يوم أو ذكّرهم يوم ينفخ فى الصور . ومذهب الفـرّاء أن المعنى : وذلكم يوم ينفخ فى الصـور ؛ وأجاز فيه الحذف . والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيـل . قال مجاهد : كهيئة البوق . وقيـل : هو البوق بلغة أهل اليمن . وقد مضى فى « الأنعام »[1] بيـانه وما للعلماء فى ذلك . ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله لمـا فرغ من خلق السموات خلق الصُّـور فأعطاه إسرافيـل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة " قلت : يارسول الله ما الصُّور ؟ قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ .

" قرن والله عظيم والذى بعثنى بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات النفخة الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصّعق والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين " وذكر الحديث . ذكره على بن معبد والطبرى والثعلبى وغيرهم ، وصححه ابن العربى . وقد ذكرته فى كتاب « التذكرة » وتكلمنا عليه هنالك ، وأن الصحيح فى النفخ فى الصّور أنهما نفختان لا ثلاث ، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لها ؛ أى فزعوا فزعا ماتوا منه ؛ أو إلى نفخة البعث وهو ٱختيار القشيرى وغيره ؛ فإنه قال فى كلامه على هذه الآية : والمراد النفخة الثانية أى يحيون فزعين يقولون : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا »[1] ، ويعاينون من الأمر مايهولهم ويفزعهم ؛ وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق فى أرض الجزاء . [قاله قتادة][2] وقال الماوردىّ : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ . » هو يوم النشور من القبور ، قال وفى هذا الفزع قولان : أحدهما أنه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك فى كذا إذا أسرعت إلى ندائك فى معونتك . والقول الثانى : إن الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن ؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم [ففزعوا][2] وخافوا . وهذا أشبه القولين .

قلت : والسنة الثابتة من حديث أبى هريرة وحديث عبد الله بن عمرو يدلّ على أنهما نفختان لا ثلاث ؛ خرجهما مسلم وقد ذكرناهما فى كتاب « التذكرة » وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان ؛ قال الله تعالى ، « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » فٱستثنى هنا كما ٱستثنى فى نفخة الفزع فدلّ على أنهما واحدة . وقد روى ٱبن المبارك عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل حىّ والأخرى يحيى الله بها كل ميت " فإن قيل : فإن قوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ »[2] إلى أن قال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » وهذا يقتضى بظاهره أنها ثلاث . قيل له : ليس كذلك ، وإنما المراد بالزجرة النفخة الثانيـة التى يكون عنها خروج الخلق من قبورهم ؛ كذلك قال ٱبن عباس ومجاهد

(١) راجع ج ١٤ ص ٣٨ فما بعد . (٢) من ك . راجع ج ١٩ ص ١٨٨ فما بعد .

وعطاء وآبن زيد وغيرهم . قال مجاهـد : هما صيحتان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فتحيي كل شيء بإذن الله . وقال عطاء : «الرَّاجِفَةُ» القيامة و «الرادِفَةُ» البعث . وقال آبن زيد : « الراجفة » الموت و « الرادفة » الساعة . والله أعلم . «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم آختلف في هـذا المستثنى مَن هم . ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عنـد ربهم يرزقون إنما يصل الفزع إلى الأحياء؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش . وقال القشـيري : الأنبياء داخلون في جملتهم ؛ لأن لهم الشهادة مع النبوّة وقيل : الملائكة . قال الحسن : آستثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين . قال مقاتل : يعني جبريل وميكائيل و إسرافيـل وملك الموت . وقيـل : الحور العين . وقيل : هم المؤمنون؛ لأن الله تعالى قال عقيب هذا : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِـذٍ آمِنُونَ » . وقال بعض علمائنا : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمـــل .

قلت : خفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعوّل عليه ؛ لأنه نص في التعيين وغيره آجتهاد . والله أعلم . وقيل : غير هذا على ما يأتي في « الزُّمَر » (١) . وقوله : « فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ » ماض و « يُنْفَخُ » مستقبل فيقال : كيف عطف ماض على مستقبل ؟ فزعم الفراء أن هذا محمول على المعنى ؛ لأن المعنى : إذا نفخ في الصور ففزع . « إِلَّا مَنْ شَـاءَ اللَّهُ » نصب على الآستثناء . ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ قـرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وآبن عامر وآبن كثير: « آتُوهُ » جعلوه فعلا مستقبلا . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » مقصورا على الفعل المـاضي، وكذلك قرأه آبن مسعود . وعن قتادة « وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ » . قال النحاس : وفي كتابي عن أبي إسحق في القراءات [من قرأ] (٢) : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » وحّده على لفظ « كُلّ » ومن قرأ : « آتُوهُ » جمع على معناها، وهذا القول غلط قبيح؛ لأنه إذا قال : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » فلم يوحّد وإنمـا جمع،

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ فـا بعد .　　(٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

ولو وحّد لقال : « أتاه » ولكن من قال : « أتوه » جمع على المعنى وجاء به ماضيا لأنه رده إلى « فَفَزِعَ » ومن قرأ : « وَكُلٌّ آتُوهُ » حمله على المعنى أيضا وقال : « آتوه » لأنها جملة منقطعة من الأول . قال ابن نصر : قد حكى عن أبي إسحق رحمه الله ما لم يقله ، ونص أبي إسحق : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » ويقرأ : « آتوه » فمن وحّد فللفظ « كُلّ » ومن جمع فلمعناها . يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيـد خبر « كلّ » فعلى اللفظ أو جمع فعلى المعنى ؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى . قال المهدوى : ومن قرأ « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى « كل » دون لفظها ، ومن قرأ : « وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ » فهو اسم الفاعل من أتى . يدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾[1] . ومن قرأ : « وَكُلٌّ أَتَاهُ » حمله على لفظ « كلّ » دون معناها وحمل « دَاخِرِينَ » على المعنى ؛ ومعناه صاغرين ؛ عن ابن عباس وقتادة . وقد مضى في « النحل »[2] .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ قال ابن عباس : أي قائمة وهي تسير سـيرا حثيثا . قال القتبي : وذلك أن الجبال تُجمع وتُسيّر ، فهى في رؤية العين كالقائمة وهي تسير ؛ وكذلك كل شيء عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر، لكثرته وبعد ما بين أطرافه ، وهو في حسبان الناظر كالواقف وهو يسير . قال النابغة في وصف جيش :

بِأَرْعَنَ مثل الطَّودِ تَحسبُ أنّهمْ * وُقوفٌ لِحاجٍ والرِّكابُ تُهمِلجُ

قال القشيري . وهذا يوم القيامة ، أي هي لكثرتها كأنها جامدة ، أي واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفسها تسير سير السحاب ، والسحاب المتراكم يظن أنهـا واقفة وهي تسير ، أي تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شيء ، فقال الله تعالى : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »[3] ويقال : إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منهـا ، وإبراز ما كانت تواريه ، فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة ، ثم تصير كالعهن المنفوش ، وذلك إذا صارت السماء كالمُهل ، وقـد جمع الله بينهما فقال : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٥ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١١ .

(٣) راجع جـ ١٩ ص ١٧٣ فما بعد .

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[1] » . والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن . والحالة الرابعة أن تنسف لأنهـا مع الأحوال المتقدمة قارة فى مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز ، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها . والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعا فى الهواء كأنها غبار ، فمن نظر إليهـا من بعد حسبها لتكاثفها أجسادا جامدة ، وهى بالحقيقة مارة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنهـا مندكة متفتتة . والحالة السادسة أن تكون سرابا فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا منها كالسراب . قال مقاتل : تقع على الأرض فتسوّى بها . ثم قيل هذا مثل . قال المـاوردى : وفيهما ضُرِب له ثلاثة أقوال : أحدها أنه مَثَل[2] ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهى آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ؛ قاله سهل بن عبدالله . الثانى : أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتا فى القلب وعمله صاعد إلى السماء . الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى هذا من فعل الله ، و[ما] هو فعل منه فهو متقن . و « تَرَى » من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين . والأصل تَرْأَى فألقيت حركة الهمزة على الراء فتحركت الراء وحذفت الهمزة ، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن ، إلا أن التخفيف لازم لتَرَى . وأهل الكوفة يقرءون : « تَحْسَبَهَا » بفتح السين وهو القياس ؛ لأنه من حَسِب يحسَب إلا أنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافها أنه قرأ بالكسر فى المستقبل ، فتكون على فَعِل يفعِل مثل نعِم ينعِم وبَئِس يبئِس وحكى يَئِس يَيئِس من السالم[3] ، لا يعرف فى كلام العرب غير هذه الأحرف . « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » تقديره مرًّا مثل مرّ السحاب ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف والمضاف مقام المضاف إليه ؛ فالجبال تُزال من أماكنها من على وجه الأرض ، وتُجمع وتُسيّر كما تُسيّر السحاب ، ثم تُكسّر فتعود إلى الأرض كما قال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا[4] » . « صُنْعَ اللَّهِ » عند الخليل وسيبويه منصوب على أنه مصدر ؛ لأنه لمـا قال عزوجل : « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » دلّ على أنه قد صنع ذلك صنعا . ويجوز النصب على الإغراء ؛ أى انظروا صنع الله . فيوقف

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤ .　　(٢) فى ك : أقاويل .
(٣) كذا فى الأصول ، وفى اللسان : نعم ينعم من السالم . وهو الصواب.　　(٤) راجع جـ ١٧ ص ١٩٦ .

على هذا على « السَّحَابِ » ولا يوقف عليه على التقدير الأوّل . ويجوز رفعه على تقدير ذلك صنع الله . « الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ » أى أحكمه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "رحم الله من عمل عملا فأتقنه" . وقال قتادة: معناه أحسن كل شيء . والإتقان الإحكام؛ يقال: رجل تِقْن أى حاذق بالأشياء . وقال الزهرى: أصله من آبن تِقْن، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط له سهم فضرب به المثل؛ يقال: أَرْمَى من آبن تِقْن ثم يقال لكل حاذق بالأشياء تقن . ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [والباقون تفعلون[1]] بالتاء على الخطاب قراءة الجمهور . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء .

قوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قال آبن مسعود وآبن عباس رضى الله عنهما : الحسنة لا إله إلا الله . وقال أبو معشر : كان إبراهيم يحلف بالله الذى لا إله إلا هو ولا يستثنى أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال على بن الحسين بن على رضى الله عنهم: غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فبينما هو فى أرض الروم فى أرض جلفاء و بردى رفع صوته فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فخرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له : والذى نفسى بيده إنها الكلمة التى قال الله تعالى : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » . وروى أبو ذرّ قال : قلت يا رسول الله أوصنى . قال : "آتق الله وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها" قال قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : "من أفضل الحسنات" وفى رواية قال : "نعم هى أحسن الحسنات" ذكره البيهقى . وقال قتادة : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » بالإخلاص والتوحيد . وقيل : أداء الفرائض كلها .

قلت : إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها — على ما تقدّم بيانه فى سورة « إبراهيم[2] » — فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض . « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » قال آبن عباس : أى وصل إليه الخير منها؛ وقاله مجاهد . وقيل : فله الجزاء الجميل وهو الجنة . وليس «خير» للتفضيل . قال عكرمة وآبن جريج : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا؛ فإنه ليس شىء خيرا ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . وقيل : « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » للتفضيل أى ثواب الله خير من عمل العبد وقوله وذكره؛ وكذلك رضوان الله خير للعبد من فعل العبد؛

(١) من ك . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٥٨ فما بعد .

قاله ابن عباس . وقيل : يرجع هذا إلى الإضعاف فإن الله تعالى يعطيه بالواحدة عشرا ؛ وبالإيمان فى مدة يسيرة الثواب الأبدى؛ قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد . ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى « فَزَعِ يَوْمِئِذٍ » بالإضافة . قال أبو عبيد : وهذا أعجب إلى لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم؛ وإذا قال : «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» صار كأنه فزع دون فزع دون فزع . قال القشيرى : وقرئ : «مِنْ فَزَعٍ» بالتنوين ثم قيـل يعنى به فزعا واحدا كما قال : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ »(١) . وقيل : عنى الكثرة لأنه مصدر والمصدر صالح للكثرة .

قلت : فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى . قال المهدوى : ومن قرأ : « مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ » بالتنوين انتصب « يَوْمَئِـذٍ » بالمصدر الذى هو « فَزَعٍ » . ويجوز أن يكون صـفة لفزع ويكون متعلقا بمحذوف؛ لأن المصادر يخبر عنها بأسماء الزمان وتوصف بها، ويجوز أن يتعلق باسم الفاعل الذى هو « آمِنُونَ » . والإضافة على الاتساع فى الظروف . ومن حذف التنوين وفتح الميم بناه لأنه ظرف زمان ، وليس الإعراب فى ظرف الزمان متمكنا، فلما أضيف إلى غير متمكن ولا معرب بنى . وأنشد سيبويه :

على حينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمورِهِمْ　＊　فَنَدْلًا زُرَيْقُ المـالَ نَدْلَ الثَّعالِبِ(٢)

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أى بالشرك ؛ قاله ابن عباس والنَّخعىّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماع من أهل التأويل فى أن الحسنة لا إله إلا الله، وأن السيئة الشرك فى هذه الآية . ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ قال ابن عباس : ألقيت . وقال الضحاك : طرحت ؛ يقال كببت الإناء أى قلبته على وجهه ، واللازم منه أكب ؛ وقلّما يأتى هذا فى كلام العرب . ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ أى يقال لهم هل تجزون . ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة . ﴿ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إلا جزاء أعمالكم .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٥ فما بعد .

(٢) زريق : اسم قبيلة وهو منادى . والندل هنـا الأخذ باليدين . والندل أيضا السرعة فى السير . « ندل الثعالب » : يقال فى المثـل : (هو أكسب من ثعلب) لأنه يدخر لنفسه ، ويأتى على ما يعدو عليـه من الحيوان إذا أمكنه . والبيت فى وصف تجار وقيل لصوص ، وقبله :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم　＊　ويرجعن من دارين بجر الحقائب

قوله تعالى : إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ يعنى مكة التى عظّم الله حرمتها ؛ أى جعلها حرما آمنا ؛ لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد ، ولا يعضد فيها شجر ؛ على ما تقدّم بيانه فى غير موضع . وقرأ ابن عباس : « الَّتِى حَرَّمَهَا » نعتا للبلدة . وقراءة الجماعة « الَّذِى » وهو فى موضع نصب نعت لـ « رب » ولو كان بالألف واللام لقلت المحرِّمها ؛ فإن كانت نعتا للبلدة قلت المحرِّمها هو ؛ لا بدّ من إظهار المضمر مع الألف واللام ؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له ؛ فإن قلت الذى حرمها لم تحتج أن تقول هو . ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى من المنقادين لأمره، الموحِّدين له . ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أى وأمرت أن أتلو القرآن، أى أقرأه . ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ فله ثواب هدايته . ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ فليس علىّ إلا البلاغ ؛ نسختها آية القتال . قال النحاس . « وَأَنْ أَتْلُوَ » نصب بأن . قال الفرّاء : وفى إحدى القراءتين « وَأَنِ اتْلُ » وزعم أنه فى موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو ، قال النحاس : ولا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة، وهى مخالفة لجميع المصاحف .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على نعمه وعلى ما هدانا . ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى فى أنفسكم وفى غيركم كما قال : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ »[1] . ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أى دلائل قدرته ووحدانيته فى أنفسكم وفى السموات وفى الأرض ؛ نظيره قوله تعالى : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[2] . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٤ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٣٩ .

قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص عن عاصم بالتاء على الخطاب؛ لقوله : « سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » فيكون الكلام على نسق واحد . الباقون بالياء على أن يرد إلى ما قبله « فَمَنِ اهْتَدَى » فأخبر عن تلك الآية . كملت السورة والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة القصص

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة في وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وهي قوله عز وجل : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » . وقال مقاتل : فيها من المدني « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » إلى قوله : « لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » . وهي ثمان وثمانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ طسٓمٓ ﴾ تقدم الكلام فيه . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ « تِلْكَ » في موضع رفع بمعنى هذه تلك و « آيَاتُ » بدل منها . ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ « نَتْلُو » و « آيَاتُ » بدل منها أيضا؛ وتنصبها كما تقول : زيدا ضربت . و « الْمُبِينِ »

أى المبين بركته وخيره، والمبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وقصص الأنبياء، ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم. ويقال: بان الشيء وأبان [اتضح][1]. ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون، واحتج على مشركى قريش، وبيّن أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، وكذلك قرابة قريش لمحمد، وبين أن فرعون علا فى الأرض وتجبّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنب العلو فى الأرض، وكذلك التعزز بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون. «نَتْلُو عَلَيْكَ» أى يقرأ عليك جبريل بأمرنا «مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ» أى من خبرهما و «من» للتبعيض و «مِنْ نَبَإِ» مفعول «نَتْلُو» أى نتلو عليك بعض خبرهما؛ كقوله تعالى: «تُنْبِتُ بِالدُّهْنِ»[2]. ومعنى: «بِالْحَقِّ» أى بالصدق الذى لا ريب فيه ولا كذب. «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى يصدّقون بالقرآن و يعلمون أنه من عند الله؛ فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى استكبر وتجبّر؛ قاله ابن عباس والسّدى. وقال قتادة: علا فى نفسه عن عبادة ربه بكفره وادّعى الربوبية. وقيل: بملكه وسلطانه فصار عاليا على من تحت يده. «فِي الْأَرْضِ» أى أرض مصر. ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى فرقا وأصنافا فى الخدمة. قال الأعشى:

وبلدة يَرْهَبُ الجوّابُ دجلتَها * حتى تراه عليها يَبْتغى الشّيعا

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ أى من بنى إسرائيل. ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم القول فى هذا فى «البقرة»[3] عند قوله: «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ» الآية؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له: إن مولودا يولد فى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يديه، أو قال المنجّمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعبّرت كذلك. قال

(١) فى الأصول: «أفصح» وهو تحريف. والتصويب من كتب اللغة.

(٢) راجع ج ١٢ ص ١١٤. (٣) راجع ج ١ ص ٣٨٤ فما بعد.

الزجاج: العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل . وقيل : جعلهم شيعا فاستسخر كل قوم من بنى إسرائيل فى شغل مفرد . «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» أى فى الأرض بالعمل والمعاصى والتجبر .

قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى نتفضل عليهم وننعم . وهذه حكاية مضت . ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قال ابن عباس : قادة فى الخير. مجاهد : دعاة إلى الخير . قتادة : ولاة وملوكا، دليله قوله تعالى : « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا »[1] .

قلت : وهذا أعم فإن الملك إمام يؤتم به ويقتدى به . ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ لملك فرعون ؛ يرثون ملكه، ويسكنون مساكن القبط . وهذا معنى قوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولَى عليها؛ يعنى أرض الشام ومصر . ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أى ونريد أن نرى فرعون . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف: «وَيَرَى» بالياء على أنه فعل ثلاثى من رأى « فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا » رفعا لأنه الفاعل . الباقون « نُرِيَ » بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعى من أرى يُرِى، وهى على نسق الكلام ؛ لأن قبله « وَنُرِيدُ » وبعده « وَنُمَكِّنَ » . « فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا » نصبا بوقوع الفعل . وأجاز الفراء « وَيُرِيَ فِرْعَوْنَ» بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء بمعنى ويرى الله فرعون ﴿ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدى رجل من بنى إسرائيل فكانوا على وجل «مِنْهُمْ» فأراهم الله « مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » . قال قتادة : كان حازيًا لفرعون — والحازى المنجم — قال إنه سيولد فى هذه السنة مولود يذهب بملكك ؛ فأمر فرعون بقتل الولدان فى تلك السنة . وقد تقدّم .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٣ فما بعد .   (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٢ .

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ قد تقدّم معنى الوحى ومحامله . واختلف فى هذا الوحى إلى أم موسى ؛ فقالت فرقة : كان قولا فى منامها . وقال قتادة : كان إلهاما . وقالت فرقة : كان بمَلَك يمثّل لها . قال مقاتل : أتاها جبريل بذلك ؛ فعلى هذا هو وحى إعلام لا إلهام . وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية ، وإنما إرسال المَلَك إليها على نحو تكليم المَلَك للأقرع والأبرص والأعمى فى الحديث المشهور ؛ خرجه البخارى ومسلم ، وقد ذكرناه فى سورة « براءة »[1] . وغير ذلك مما روى من تكليم الملائكة للناس من غير نبوّة ، وقد سلمت على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيا . واسمها أيارخا وقيل أيارخت فيما ذكر السهيلى . وقال الثعلبى : واسم أم موسى لوحا[2] بنت هاند بن لاوى بن يعقوب . « أَنْ أَرْضِعِيهِ » وقرأ عمر ابن عبد العزيز : « أَنِ ٱرْضِعِيهِ » بكسر النون وألف وصل ؛ حذف همزة أرضع تخفيفا ثم كسر النون لالتقاء الساكنين . قال مجاهد : وكان الوحى بالرضاع قبل الولادة . وقال غيره بعدها . قال السدى : لما ولدت أم موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به ما فى الآية ؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة . وقال ابن جريج : أمرت بإرضاعه أربعة أشهر فى بستان ، فإذا خافت أن يصيح — لأن لبنها لا يكفيه — صنعت به هذا . والأوّل أظهر إلا أن الآخر يعضده قوله : « فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » و « إذا » لما يستقبل من الزمان ؛ فيروى أنها

(١) راجع جـ ٨ ص ١٨٨ فما بعد (٢) وقيل فى اسمها أيضا : يوخابذ . وقيل : يوخابيل ، وقيل غير ذلك .

آتخذت له تابوتا من بَرْدى وقيّرته بالقار من داخله ، ووضعت فيه موسى وألقته فى نيل مصر . وقد مضى خبره فى « طـه »[1] . قال آبن عباس : إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر آستطالوا على الناس ، وعملوا بالمعاصى ؛ فسلّط الله عليهم القبط ، وساموهم سوء العذاب ، إلى أن نجاهم الله على يد موسى . قال وهب : بلغنى أن فرعون ذبح فى طلب موسى سبعين ألف وليد . ويقال : تسعون ألفا . ويروى أنها حين آقتربت وضَربها الطلق ، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ؛ فقالت : لينفعنى حُبُّك اليوم ؛ فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وآرتعش كل مَفْصِل منها ، ودخل حبّه قلبها ، ثم قالت : ما جئتكِ إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لآبنك حبًّا ما وجدت مثله قط ، فآحفظيه ؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة ووضعته فى تنّور مسجور نارا لم تعلم ما تصنع لما طاش عقلها ، فطلبوا فلم يلفوا شيئا ، فخرجوا وهى لا تدرى مكانه ، فسمعت بكاءه من التنّور ، وقد جعل الله عليه النار بردا وسلاما .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ فيه وجهان : أحدهما — لا تخافى عليه الغرق ؛ قاله ابن زيد . الثانى — لا تخافى عليه الضيعة ؛ قاله يحيى بن سَلّام . ﴿ وَلَا تَحْزَنِي ﴾ فيه أيضا وجهان : أحدهما — لا تحزنى لفراقه ؛ قاله ابن زيد . الثانى — لا تحزنى أن يقتل ؛ قاله يحيى بن سَلّام . فقيل : إنها جعلته فى تابوت طوله خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار ، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته فى اليم بعد أن أرضعته أربعة أشهر . وقال آخرون : ثلاثة أشهر . وقال آخرون ثمانية أشهر ؛ فى حكاية الكلبى . وحكى أنه لما فرغ النجار من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره ، فبعث معه من يأخذه ، فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق ، فأيقن أنه المولود الذى يخاف[2] منه فرعون ، فآمن من ذلك الوقت ؛ وهو مؤمن آل فرعون ؛ ذكره الماوردى . وقال ابن عباس : فلما توارى عنها ندمها الشيطان وقالت فى نفسها : لو ذبح عندى فكفنته وواريته لكان أحب إلىّ من إلقائه فى البحر ؛

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٥ فما بعد . (٢) فى ك : تخوف .

فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى إلى أهل مصر . حكى الأصمعىّ قال : سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول :

أستغفر الله لذنبي كلّه * قبّلتُ إنسانًا بغير حِلّه
مثل الغزال ناعمًا فى دَلّه * فانتصف الليل ولم أُصلّه

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك! فقالت : أو يعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » الآية ؛ فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدّى إلى كونه لهم عدوّا وحزنا ؛ فاللام فى « ليكون » لام العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرّة عين، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوّا وحزنا ، فذكر الحال بالمآل ؛ كما قال الشاعر :

وللمنايا تُربِّى كلُّ مُرضِعةٍ * ودُورُنا لخراب الدهر نَبْنِيها

وقال آخر :

فللموت تَغْذُو الوالداتُ سِخَالَها * كما لخراب الدهر تُبْنَى المساكنُ

أى فعاقبة البناء الخراب و إن كان فى الحال مفروحا به . والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة ، والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا إرادة : التقطه التقاطا . ولقيت فلانا التقاطا . قال الراجز[1] :

* ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطا *

ومنه اللقطة . وقد مضى بيان ذلك من الأحكام فى سورة « يوسف[2] » بما فيه كفاية . وقرأ الأعمش ويحيى والمفضل وحمزة والكسائى وخلف : « وَحُزْنًا » بضم الحاء وسكون الزاى . والباقون بفتحهما واختاره أبو عبيد . وأبو حاتم قال التفخيم[3] فيه . وهما لغتان مثل العَدَم

(١) هو نقادة الأسدى ، كما فى اللسان مادة « لقط » . (٢) راجع ج ٩ ص ١٣٤ فما بعد .
(٣) التفخيم فى اصطلاح القراء : الفتح .

والعُدْم، والسَّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد . ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وكان وزيره من القبط . ﴿ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ أى عاصين مشركين آثمين .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم فى البحر ، فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت فيه صبيا صغيرا فرحمته وأحبته ؛ فقالت لفرعون : « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » أى هو قرة عين لى ولك ف « قُرَّةُ » خبر ابتداء مضمر ؛ قاله الكسائى . وقال النحاس : وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحق ؛ [قال][1] : يكون رفعا بالابتداء والخبر « لَا تَقْتُلُوهُ » وإنما بَعُد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرة عين[2] . وجوازه أن يكون المعنى : إذا كان قرة عين لى ولك فلا تقتلوه . وقيل : تم الكلام عند قوله : « وَلَكَ » . النحاس : والدليل على هذا أن فى قراءة عبد الله ابن مسعود « وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » . ويجوز النصب بمعنى لا تقتلوا قرة عين لى ولك . وقالت : « لَا تَقْتُلُوهُ » ولم تقل لا تقتله فهى تخاطب فرعون كما يخاطَب الجبّارون ؛ وكما يخبرون عن أنفسهم . وقيل : قالت « لَا تَقْتُلُوهُ » فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بنى إسرائيل . ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ فنصيب منه خيرا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وكانت لا تلد ، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها ، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه — على ما تقدّم — قالوا له إن غلاما من بنى إسرائيل يفسد ملكك ؛ فأخذ بنى إسرائيل بذبح الأطفال ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاما ويستحيي عاما ، فولد هرون فى عام الاستحياء ، وولد موسى فى عام الذبح .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى ؛ أى وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه . وقيل : هو من كلام المرأة ؛ أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه ، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا . واختلف المتأولون فى الوقت الذى قالت فيه امرأة فرعون « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاطه التابوت لما أشعرت فرعون به ؛

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس . (٢) فى ك : لى وله .

ولما أعلمته سبق إلى فهمه (١) أنه من بنى إسرائيل، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال : علىّ بالذباحين ؛ فقالت آمرأته ما ذُكِر ؛ فقال فرعون : أمّا لى فلا . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرّة عين له " وقال السدّى : بل ربّته حتى دَرَج ، فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بنى إسرائيل وأخذه فى يده ، فمدّ موسى يده ونتف لحية فرعون، فهمّ حينئذ بذبحه، وحينئذ خاطبته بهذا، وجربته له فى الياقوتة والجمرة، فاحترق لسانه وعلق العقدةَ على ما تقدّم فى « طـه » (٢) . قال الفرّاء : سمعت محمد بن مروان الذى يقال له السدّى يذكر عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال : إنما قالت « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا » ثم قالت : « تَقْتُلُوهُ » قال الفرّاء : وهو لحن ؛ قال آبن الأنبارى : وإنما حكم عليه باللحن؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون؛ لأن الفعل المستقبل مرفوع حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع . قال الفرّاء : ويقويك على ردّه قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » بتقديم « لَا تَقْتُلُوهُ » .

قوله تعالى : وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

---

(١) فى ك : إلى توهمه . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجونى وأبو عبيدة : « فَارِغًا » أى خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن أيضا وابن إسحق وابن زيد : « فَارِغًا » من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه فى البحر « لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي » والعهد الذى عهده إليها أن يردّه ويجعله من المرسلين ؛ فقال لها الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فغرّقتيه أنت ! ثم بلغها أن ولدها وقع فى يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها . وقال أبو عبيدة : « فَارِغًا » من الغمّ والحزن لعلمها أنه لم يغرق ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال العلاء بن زياد : « فَارِغًا » نافرا . الكسائى : ناسيا ذاهلا . وقيل : والها ؛ رواه سعيد بن جبير . ابن القاسم عن مالك : هو ذهاب العقل ؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش ، ونحوه قوله تعالى : « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى جُوف لا عقول لها كما تقدّم فى سورة « إبراهيم »[1] . وذلك أن القلوب مراكز العقول ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا »[2] ويدل عليه قراءة من قرأ : « فَزِعًا » . النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ؛ فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى . وقول أبى عبيدة فارغا من الغم غلط قبيح ؛ لأن بعده « إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا » . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كادت تقول وا ابناه ! وقرأ فضالة ابن عبيد الأنصارى رضى الله عنه ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبو العالية وابن محيصن : « فَزِعًا » بالفاء والعين المهملة من الفزع ؛ أى خائفة عليه أن يقتل . ابن عباس : « قَرِعًا » بالقاف والراء والعين المهملتين ، وهى راجعة إلى قراءة الجماعة « فَارِغًا » ولذلك قيل للرأس الذى لا شعر عليه : أقرع ؛ لفراغه من الشعر . وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ : « فِرْغًا » بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف ، وهو كقولك : هدرا وباطلا ؛ يقال :

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٧٧ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٧٦ فما بعد .

دماؤهم بينهم فِرْغ أى هدر ؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها . وفى قوله تعالى: « وَأَصْبَحَ » وجهان : أحدهما — أنها ألقته ليلا فأصبح فؤادها فى النهار فارغا . الثانى — أنها ألقته نهارا ومعنى : « أَصْبَحَ » أى صار ؛ كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد * وأصبحت المدينة للوليد

﴿ إِنْ كَادَتْ ﴾ أى إنها كادت ، فلما حذفت الكناية سكنت النون . فهى « إن » المخففة ولذلك دخلت اللام فى ﴿ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أى لتظهر أمره ؛ من بدا يبدو إذا ظهر . قال آبن عباس : أى تصيح عند إلقائه : وا ابناه . السدّى : كادت تقول لما حُملت لإرضاعه وحضانته هو آبنى . وقيل : إنه لما شبّ سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون ؛ فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول هو آبنى . وقيل : الهاء فى « به » عائدة إلى الوحى تقديره : إن كانت لتبدى بالوحى الذى أوحيناه إليها أن نردّه عليها . والأوّل أظهر . قال آبن مسعود : كادت تقول أنا أمه . وقال الفرّاء : إن كادت لتبدى بإسمه لضيق صدرها . ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ قال قتادة : بالإيمان . السدّى : بالعصمة . وقيل : بالصبر . والربط على القلب : إلهام الصبر . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى من المصدّقين بوعد الله حين قال لها : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ » . وقال: « لَتُبْدِي بِهِ » ولم يقل: لتبديه؛ لأن حروف الصّفات قد تزاد فى الكلام ؛ تقول : أخذت الحبل و بالحبل . وقيل : أى لتبدى القول به .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أى قالت أم موسى لأخت موسى : آتبعى أثره حتى تعلمى خبره . وآسمها مريم بنت عمران ؛ وافق آسمها آسم مريم أم عيسى عليه السلام ؛ ذكره السّهيلى والثّعلبى . وذكر الماوردى عن الضحاك : أن آسمها كلثمة . وقال السهيلى : كلثوم ؛ جاء ذلك فى حديث رواه الزبير بن بكّار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : "أشعرت أن الله زوّجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية آمرأة فرعون" فقالت : الله أخبرك بهذا ؟ فقال : "نعم" فقالت : بالرفاء والبنين . ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ أى بعد ؛ قاله مجاهد . ومنه الأجنبى .

قال الشاعر[1] :

فَلَا تَحْرِمَنِّى نائِلًا عن جَنَابةٍ * فإنِّى آمرؤٌ وسْطَ القِبابِ غَرِيبُ

وأصله عن مكان جنب . وقال آبن عباس : « عَنْ جُنُبٍ » أى عن جانب . وقرأ النعمان آبن سالم : «عن جانِبٍ» أى عن ناحية . وقيل : عن شوق ؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة لجذام ؛ يقولون : جنبت إليك أى آشتقت . وقيل : « عَنْ جُنُبٍ » أى عن مجانبة لها منه فلم يعرفوا أنها أمه بسبيل . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه بناحية [كأنها[2]] لا تريده ، وكان يقرأ : « عَنْ جَنْبٍ » بفتح الجيم وإسكان النون . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنها أخته لأنها كانت تمشى على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه .

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى منعناه من الآرتضاع من قبل ؛ أى من قبل مجىء أمه وأخته . و « الْمَرَاضِعَ » جمع مُرْضِع . ومن قال مراضيع . فهو جمع مِرضاع ، ومفعال يكون للتكثير ، ولا تدخل الهاء فيه فرقا بين المؤنث والمذكر لأنه ليس بجارٍ على الفعل ، ولكن من قال مِرضاعة جاء بالهاء للمبالغة ؛ كما يقال مِطرابة . قال آبن عباس : لا يؤتى بمرضع فيقبلها . وهذا تحريم منع لا تحريم شرع ؛ قال آمرؤ القيس :

جَالَتْ لِتصرعَنى فقلت لها آقْصِرِى * إنّى آمرؤٌ صَرْعِى عليكِ حَرامُ[3]

أى ممتنع . فلما رأت أخته ذلك قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ الآية . فقالوا لها عند قولها : ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ وما يدريكِ ؟ لعلكِ تعرفين أهله ؟ فقالت : لا ؛ ولكنهم يحرصون على مَسرّة الملك ، ويرغبون فى ظِئْره . وقال السّدى وآبن جُرَيج : قيل لها لما قالت : « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » قد عرفتِ أهل هذا الصبى فدلّينا عليهم ؛ فقالت : أردت وهم للملك ناصحون . فدلتهم على أم موسى ، فآنطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها ، والصبىّ على يد فرعون يعلّله شفقة عليه ، وهو يبكى يطلب الرضاع ، فدفعه إليها ؛ فلما وجد الصبىّ

(١) هو علقمة بن عبدة ، قاله يخاطب به الحرث بن جبلة يمدحه ، وكان قد أسر أخاه شأسا — وأراد بالنائل إطلاق أخيه شأس من سجنه — فأطلق له أخاه شأسا ومن أسر معه من بنى تميم .

(٢) الزيادة من كتب التفسير .

(٣) جالت قلقت . يقول : ذهبت الناقة بقلقها ونشاطها لتصرعنى فلم يقدر على ذلك لحذقى بالركوب ومعرفتى به .

ريح أمه قبل ثديها . وقال آبن زيد . آسترابوها حين قالت ذلك فقالت : وهم للملك ناصحون . وقيل : إنها لما قالت : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ » وكانوا يبالغون فى طلب مرضعة يقبل ثديها فقالوا : من هى ؟ فقالت : أمى ؛ فقيل : لها لبن ؟ قالت : نعم ! لبن هرون ــ وكان ولد فى سنة لا يقتل فيها الصبيان ــ فقالوا صدقت والله . « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » أى فيهم شفقة ونصح ؛ فروى أنه قيل لأم موسى حين آرتضع منها : كيف آرتضع منك ولم يرتضع من غيرك ؟ فقالت : إنى آمرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أكاد أوتى بصبى إلا آرتضع منى . قال أبو عِمران الجونى : وكان فرعون يعطى أم موسى كل يوم دينارا . قال الزمخشرى : فإن قلت كيف حلّ لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟ قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربى تأخذه على وجه الآستباحة .

قوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ ﴾ أى رددناه وقد عطف الله قلب العدوّ عليه ، ووفينا لها بالوعد . ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أى بولدها . ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أى بفراق ولدها . ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى أكثر آل فرعون لا يعلمون ؛ أى كانوا فى غفلة عن التقدير وسر القضاء[1] وقيل : أى أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله فى كل ما وعد حق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قد مضى الكلام فى الأشد فى « الأنعام »[2] . وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ »[3] فإن ذلك أول الأشد ، وأقصاه أربع وثلاثون سنة ؛ وهو قول سفيان الثورى . و « آسْتَوَى » قال آبن عباس : بلغ أربعين سنة . والحكم : الحكمة قبل النبوّة . وقيل : الفقه فى الدين . وقد مضى بيانها فى «البقرة»[4] وغيرها . والعلم الفهم فى قول السدى . وقيل : النبوّة . وقال مجاهد : الفقه . محمد بن إسحق : أى العلم بما فى دينه ودين آبائه ؛ وكان له تسعة من بنى إسرائيل يسمعون منه ، ويقتدون به ، ويجتمعون إليه ، وكان هذا قبل النبوّة .

(١) كذا فى ك و ز . وهو الأشبه . وفى ا : سوء القضاء .
(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٤ .
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٣١ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى كما جزينا أم موسى لما آستسلمت لأمر الله، وألقت ولدها فى البحر، وصدقت بوعد الله؛ فرددنا ولدها إليها بالتحف والطرف وهى آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوة؛ وكذلك نجزى كل محسن .

قوله تعالى : وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل : لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق فى دينه، عاب ما عليه قوم فرعون؛ وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفا مستخفيا. وقال السدى : كان موسى فى وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يدعى موسى آبن فرعون؛ فركب فرعون يوما وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف — قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر — ثم علم موسى بركوب فرعون، فركب بعده ولحق بتلك القرية فى وقت

القائلة، وهو وقت الغفلة؛ قاله ٱبن عباس . وقال أيضا : هو بين العشاء والعَتمة . وقال ٱبن إسحق : بل المدينة مصر نفسها، وكان موسى فى هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام ، فدخل مدينة فرعون يوما على حين غفلة من أهلها . قال سعيد بن جبير وقتادة : وقت الظهيرة والناس نيام . وقال ٱبن زيد : كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبُعْد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد . وقال الضحاك : طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتله، فٱستغفر ربه فغفر له . ويقال فى الكلام : دخلت المدينة حين غفل أهلها، ولا يقال: على حين غفل أهلها؛ فدخلت «على» فى هذه الآية لأن الغفلة هى المقصودة؛ فصار هذا كما تقول : جئت على غفلة، وإن شئت قلت : جئت على حين غفلة ، وكذا الآية . ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ والمعنى : إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته ؛ أى من بنى إسرائيل . ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى من قوم فرعون. ﴿ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى طلب نصره وغوثه، وكذا قال فى الآية بعدها : « فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ » أى يستغيث به على قبطى آخر . وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين فى الملل كلها على الأمم، وفرض فى جميع الشرائع . قال قتادة : أراد القبطى أن يُسخِّر الإسرائيلى ليحمل حطبا لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فٱستغاث بموسى . قال سعيد بن جبير : وكان خبازا لفرعون . ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ ﴾ قال قتادة : بعصاه . وقال مجاهد : بكفه؛ أى دفعه . والوكز واللكز واللهز واللهد بمعنى واحد، وهو الضرب بجُمْع الكف مجموعا كعقد ثلاثة وسبعين . وقرأ ٱبن مسعود : « فَلَكَزَهُ » . وقيل : اللكز فى اللحى والوكز على القلب . وحكى الثعلبى أن فى مصحف عبد الله بن مسعود « فَنَكَزَهُ » بالنون والمعنى واحد . وقال الجوهرى عن أبى عبيدة : اللكز الضرب بالجُمْع على الصدر . وقال أبو زيد : فى جميع الجسد ، واللهز : الضرب بجُمْع اليد فى الصدر مثل اللكز ؛ عن أبى عبيدة أيضا . وقال أبو زيد : هو بالجُمْع فى اللهازم والرقبة؛ والرجل مِلْهز بكسر الميم .

وقال الأصمعي : نَكَزه؛ أي ضربه ودفعه . الكسائي : نَهَزَه مثل نَكَزه ووَكَزَه ، أي ضربه ودفعه . ولَهَدَه لَهْدًا أي دفعه لذلّه فهو ملهود؛ وكذلك لَهَّدَه؛ قال طَرَفة يذمّ رجلا:

بطيء عن الدّاعي سريع إلى الخنا[1] * ذَلُول بأَجْمَاعِ الرجالِ مُلَهَّدِ

أي مُدفّع وإنما شدّد للكثرة . وقالت عائشة رضي الله عنها : فلَهَدَني — تعني النبي صلى الله عليه وسلم — لَهْدَة أوجعني ؛ خرجه مسلم . ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه ، وهو معنى: « فَقَضَى عَلَيْهِ » . وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه [فقد][2] قضيت عليه . قال[3] :

* قَدْ عَضَّهُ فَقَضَى عليه الأَشْجَعُ *

﴿ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي من إغوائه . قال الحسن لم يكن يحلّ قتل الكافر يومئذ في تلك الحال ؛ لأنها كانت حال كفّ عن القتال . ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ خبر بعد خبر . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس ، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر؛ ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه ، مع علمه بأنه قد غفرله ، حتى أنه في القيامة يقول : إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها . وإنما عدده على نفسه ذنبا . وقال : « ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » من أجل أنه لا ينبغي لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضا فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم . قال النقاش[4] : لم يقتله عن عمد مريدا للقتل ، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه . قال وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوّة . وقال كعب : كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة ، وكان قتله مع ذلك خطأ؛ فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل . وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : ياأهل العراق! ما أسألكم عن الصغيرة، وأركبكم للكبيرة! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول سمعت

(١) ويروى : « عن الجلى » . والذلول ضد الصعب . ويروى : « ذليل » . وأجماع جمع (جمع) وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها . (٢) من ك . (٣) هو جرير . والأشجع يريد به الشجاع من الحيات . وصدر البيت . * أيفايشون وقد رأوا حفاثهم *

(٤) في ك : النحاس .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الفتنة تجيء من هاهنا — وأومأ بيده نحو المشرق — من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذى قتل مِن آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا » " .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » أى من المعرفة والحكم والتوحيد «فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » أى عونا للكافرين . قال القشيرى : ولم يقل بما أنعمت علىّ من المغفرة؛ لأن هذا قبل الوحى، وما كان عالما بأن الله غفر له ذلك القتل . وقال الماوردى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » فيه وجهان : أحدهما — من المغفرة؛ وكذلك ذكر المهدوى والثعلبى . قال المهدوى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » من المغفرة فلم تعاقبنى(1) . الوجه الثانى — من الهداية .

قلت : [قوله](2) «فَغَفَرَ لَهُ» يدلّ على المغفرة؛ والله أعلم . قال الزمخشرى قوله تعالى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف تقديره؛ أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة لأتوبن «فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » . وأن يكون آستعطافا كأنه قال : رب آعصمنى بحق ما أنعمت علىّ من المغفرة فلن أكون إن عصمتنى ظهيرا للجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وآنتظامه فى جملته ، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى آبن فرعون ؛ وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلىّ المؤدّية إلى القتل الذى لم يحلّ له قتله . وقيل : أراد إنى وإن أسأت فى هذا القتل الذى لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين(3) على المجرمين ، فعلى هذا كان الإسرائيلىّ مؤمنا ونصرة المؤمن واجبة فى جميع الشرائع . وقيل فى بعض الروايات : إن ذلك الإسرائيلى كان كافرا ، وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيليا ولم يرد الموافقة فى الدين ،فعلى هذا ندم لأنه أعان كافرا على كافر، فقال : لا أكون بعدها ظهيرا للكافرين . وقيل : ليس هذا خبرا بل هو دعاء؛ أى فلا أكون بعد هذا ظهيرا؛ أى فلا تجعلنى يا رب ظهيرا للمجرمين . وقال الفراء :

(1) فى ك : فلن أعين بعدها مجرما . (2) من ك . (3) فى ك : المؤمنين .

المعنى؛ اللهم فلن أكون ظهيرا للجرمين؛ وزعم أن قوله هذا هو قول ابن عباس. قال النحاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام؛ كما يقال[1]: لا أعصيك لأنك أنعمت علىّ؛ وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفراء؛ لأن ابن عباس قال: لم يستثن فابتلى من ثانى يوم؛ والاستثناء لا يكون فى الدعاء، لا يقال: اللهم اغفر لى إن شئت؛ وأعجب الأشياء أن الفراء روى عن ابن عباس هذا ثم حكى عنه قوله.

قلت: قد مضى هذا المعنى ملخصا مبيّنا فى سورة «النمل»[2] وأنه خبر لا دعاء. وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلى به مرة أخرى؛ يعنى لم يقل فلن أكون إن شاء الله. وهذا نحو قوله: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا»[3].

الثانيــة — قال سلمة بن نُبَيط: بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل بخارى وقال: أعطهم؛ فقال: أعفنى؛ فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه. فقيل له ما عليك أن تعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئا؟ وقال: لا أحب أن أعين الظلمة على شىء من أمرهم. وقال عبيد الله[4] بن الوليد الوَصَّافى قلت لعطاء بن أبى رَبَاح: إن لى أخا يأخذ بقلمه، وإنما يحسب ما يدخل ويخرج، وله عيال ولو ترك ذلك لاحتاج وادّانَ؟ فقال: مَن الرأس؟ قلت: خالد بن عبد الله القَسْرى؛ قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح: «رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ» قال ابن عباس: فلم يستثن فابتلى به ثانيـة فأعانه الله، فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينه — قال عطاء: فلا يحلّ لأحد أن يعين ظالما ولا يكتب له ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار معينا للظالمين. وفى الحديث: "ينادى مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمـة حتى من لَاقَ لهم دَوَاة أو بَرَى لهم قلما فيُجمعون فى تابوت من حديد فيرمى به فى جهنم". ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبّت الله قدميـه على الصراط يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزلّ الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام". وفى الحديث: "من مشى مع ظالم فقد أجرم" فالمشى مع الظالم لا يكون جرما

(١) فى ك: كأنه قال. (٢) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء فما بعد.
(٣) راجع جـ ٩ ص ١٠٧ فما بعد. (٤) فى الأصول: عبد الله والتصويب من التاج والتهذيب.

إلا إذا مشى معه ليعينه ، لأنه ٱرتكب نهى الله تعالى فى قوله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »(١) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ قد تقدم فى « طه »(٢) وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون ؛ ردًا على من قال غير ذلك ، وأن الخوف لا ينافى المعرفة بالله ولا التوكل عليه ؛ فقيل : أصبح خائفا من قتل النفس أن يؤخذ بها . وقيل : خائفا من قومه أن يسلموه . وقيل : خائفا من الله تعالى . ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، وينتظر ما يتحدّث به الناس . وقال قتادة : « يَتَرَقَّبُ » أى يترقب الطلب . وقيل : خرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطى غير الإسرائيلى . و « أَصْبَحَ » يحتمل أن يكون بمعنى صار ؛ أى لما قتل صار خائفا . ويحتمل أن يكون دخل فى الصباح ، أى فى صباح اليوم الذى يلى يومه . و « خَائِفًا » منصوب على أنه خبر «أصبح» ، وإن شئت على الحال ، ويكون الظرف فى موضع الخبر . ﴿ فَإِذَا الَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أى فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى خلّصه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره . والاستصراخ الاستغاثة . وهو من الصراخ ؛ وذلك لأن المستغيث يصرخ ويصوّت فى طلب الغَوْث(٣) . قال :

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ * كَانَ الصُّراخُ له قرعَ الظَّنَابِيب

قيل : كان هذا الإسرائيلى المستنصر السامرى ٱستسخره طباخ فرعون فى حمل الحطب إلى المطبخ ؛ ذكره القشيرى . و « الَّذِي » رفع بالابتداء و « يَسْتَصْرِخُهُ » فى موضع الخبر . ويجوز أن يكون فى موضع نصب على الحال . وأمس لليوم الذى قبل يومك ، وهو مبنى على الكسر لالتقاء الساكنين ، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين . ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام . وحكى سيبويه وغيره أن

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٧ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٠٢ .

(٣) هو سلامة بن جندل . والظنابيب (جمع ظنبوب) : وهو حرف العظم اليابس من الساق . والمراد سرعة الإجابة .

من العرب من يجرى أمس مجرى ما لا ينصرف فى موضع الرفع خاصة، وربما آضطر الشاعر ففعل هذا فى الخفض والنصب؛ قال الشاعر:

* لقد رأيتُ عجبًا مُذْ أَمْسِ *

نخفض بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع؛ فأجرى أمس فى الخفض مجراه فى الرفع على اللغة الثانية. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ والغوى الخائب؛ أى لأنك تشادّ من لا تطيقه. وقيل: مضلّ بيّن الضلالة؛ قتلت بسببك أمس رجلا، وتدعونى اليوم لآخر. والغوى فعيل من أغوى يُغوى، وهو بمعنى مُغوٍ؛ وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجع والمؤلم. وقيل: الغوى بمعنى الغاوى. أى إنك لغوىّ فى قتال من لا تطيق دفع شره عنك. وقال الحسن: إنما قال للقبطى: «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» فى آستسخار هذا الإسرائيلى وهمّ أن يبطش به. يقال: بَطَش يَبطُش ويبطِش والضم أقيس لأنه فعل لا يتعدى. ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي﴾ قال آبن جبير. أراد موسى أن يبطش بالقبطى فتوهم الإسرائيلى أنه يريده؛ لأنه أغلظ له فى القول؛ فقال: «أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ» فسمع القبطى الكلام فأفشاه. وقيل: أراد أن يبطش الإسرائيلى بالقبطى فنهاه موسى نخاف منه؛ فقال: «أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ». ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ أى ما تريد. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أى قتالا؛ قال عكرمة والشعبى: لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين بغير حق. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أى من الذين يصلحون بين الناس.

قوله تعالى: وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون؛ ذكره الثعلبي . وقيل : طالوت ؛ ذكره السهيلي . وقال المهدوي عن قتادة : شمعون مؤمن آل فرعون . وقيل : شمعان؛ قال الدارقطني : لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . وروى أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر؛ فـ﴿ قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى يتشاورون فى قتلك بالقبطي الذى قتلته بالأمس . وقيل : يأمر بعضهم بعضا . قال الأزهرى : ائتمر القوم وتآمروا أى أمر بعضهم بعضا؛ نظيره قوله : «وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ»[1] . وقال النمر بن تولب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة * وفى كل حادثة يؤتمر

﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى ينتظر الطلب . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقيل : الجبار الذى يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر فى العواقب، ولا يدفع بالتى هى أحسن . وقيل : المتعظم الذى لا يتواضع لأمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ لما خرج موسى عليه السلام فارا بنفسه منفردا خائفا ، لا شىء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين، للنسب الذى بينه وبينهم؛ لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخلوه من زاد وغيره ، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : «عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» وهذه حالة المضطر .

قلت : روى أنه كان يتقوت ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خف قدميه . قال أبو مالك : وكان فرعون وجه فى طلبه وقال لهم : اطلبوه فى ثنيات الطريق ، فإن موسى لا يعرف الطريق . فجاءه ملك راكبا فرسا ومعه عنزة ، فقال لموسى : اتبعنى فاتبعه فهداه إلى الطريق، فيقال : إنه أعطاه العنزة فكانت عصاه . ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين . وهو أكثر وأصح . قال مقاتل والسدى : إن الله بعث إليه جبريل ؛ فالله أعلم . وبين مدين ومصر ثمانية أيام؛ قاله ابن جبير والناس . وكان ملك مدين لغير فرعون .

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٦٩ .

قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أى بلغها . ووروده الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه . ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول فى المورود ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه و إن لم يدخل . فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه ؛ ومنه قول زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ * وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ [1]

(١) تقدم شرح هذا البيت فى هامش جـ ١١ ص ١٣٧ .

وقد تقدّمت هـذه المعانى فى قوله « وإِنْ منكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »(١) . ومدين لا تنصرف إذ هى بلدة معروفة .

قال الشاعر(٢) :

رُهبانُ مدينَ لو رأوكِ تَنَزَّلُوا * والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ

وقيل : قبيلة من ولد مدين بن إبراهيم ؛ وقد مضى القول فيه فى « الأعراف »(٣) . والأمة : الجمع الكثير . و ﴿ يَسْقُونَ ﴾ معناه ماشيتهم . و ﴿ مِنْ دُونِهِمُ ﴾ معناه ناحية إلى الجهة التى جاء منها ، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمّة ، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسان ، ومنه قوله عليه السلام : " فَلَيُذَادَنَّ(٤) رجالٌ عن حوضى " وفى بعض المصاحف : «آمرأتين حابستين تذودان » يقال : ذاد يذود إذا [حبس](٥) . وذُدت الشيء حبسته ؛ قال الشاعر(٦) :

أَبِيت على باب القَـوافِى كأنّمـا * أذُودُ بها سِرْبًا من الوحشِ نُزَّعَا

أى أحبس وأمنع . وقيل : « تَذُودَانِ » تطردان ؛ قال(٧) :

لقـد سَلبتْ عصاكَ بنو تميم * فـا تَدْرِى بأىِّ عصًا تَذُودُ

أى تطرد وتكفّ وتمنع . آبن سلام : تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس ؛ فحذف المفعول : إما إيهاما على المخاطب ، وإما آستغناء بعلمه . قال آبن عباس : تذودان غنمهما عن المـاء خـوفا من السقاة الأقوياء . قتادة : تذودان النـاس عن غنمهما ؛ قال النحاس : والأوّل أولى ؛ لأن بعده « قَالَتَـا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ » ولو كانتا تذودان عن غنمهما النـاس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء . فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى شأنكما ؛ قال رؤبة .

* يا عَجَبًا ما خَطْبُه وخَطبِى *

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٣١ فما بعد . (٢) هو جرير . والعصم (جمع الأعصم) : وهو من الظباء الذى فى ذراعه بياض ، وقيل : فى ذراعيه ، والفادر : المسن منها . وقيل : العظيم . ويروى : « من شعف العقول » . وقبله :

يا أمّ طلحة ما لقينا مثلكم * فى المنجدين ولا بغور الغائر

(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ . (٤) فليذادن ، أى ليطردن . ويروى : " فلا تذادن " أى لا تفعلوا فعلا يوجب طردكم عنه ، قال ابن الأثير : والأول أشبه . (٥) فى الأصول : « إذا ذهب » وهو تحريف . (٦) هو سويد بن كراع يذكر تنقيحه شعره . (٧) هو جرير يهجو الفرزدق .

ابن عطية : وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو فى مصاب ، أومضطهد ، أومن يشفق عليه ، أو يأتى بمنكر من الأمر ، فكأنه بالجملة فى شر ؛ فأخبرتاه بخبرهما ، وأن أباهما شيخ كبير ؛ فالمعنى : لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه ، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء ، وأن عادتهما التأنى حتى يصدر الناس عن المـاء ويخلى ؛ وحينئذ تردان . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو : « يَصْدُرَ » من صَدَرَ ، وهوضد وَرَدَ أى يرجع الرِّعاء . والباقون « يُصْدِرَ » بضم الياء من أصدر ؛ أى حتى يصدروا مواشيهم من وِردهم . والرِّعاء جمع راع ؛ مثل تاجر وتِجار ، وصاحب وصِحاب . قالت فرقة : كانت الآبار مكشوفة ، وكان زحم الناس يمنعهما ، فلما أراد موسى أن يسقى لهما زَحَم الناس وغلبهم على المـاء حتى سقى ، فعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصفته إحداهما بالقوة . وقالت فرقة : إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم فى الصّهاريج ، فإن وجدتا فى الحوض بقية كان ذلك سقيهما ، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما ، فرَقّ لهما موسى ، فعمد إلى بئر كانت مغطّاة والناس يسقون من غيرها ، وكان حَجَرها لا يرفعه إلا سبعة ، قاله ابن زيد . ابن جريج : عشرة . ابن عباس : ثلاثون . الزجاج : أربعون ؛ فرفعـه . وسقى للمرأتين ؛ فعن رفع الصخرة وصفته بالقوة . وقيل : إن بئرهم كانت واحدة ، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة ، إذا كانت عادة المرأتين شرب الفضلات . روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال : لمـا استقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال ، فجاء موسى فاقتلعها واستقى ذَنُوبا واحدا لم تحتج إلى غيره فسقى لهما .

الثانيـــة — إن قيل كيف ساغ لنبي الله الذى هو شعيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية ؟ قيل له : ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه ؛ وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك ، والعادة متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر ، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ إلى ظل سَمُرة[1] ؛ قاله ابن مسعود . وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله : ﴿ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وكان لم يذق طعاما

(١) السمرة : شجرة صغيرة الورق ، قصيرة الشوك ، لهـا برمة صفراء يأكلها الناس .

سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره، فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا»(1) وقوله: «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ»(2) ويكون بمعنى القوة كما قال: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ»(3) ويكون بمعنى العبادة كقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ»(4) قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، واخضرّ لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه. وفي هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله. وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: «إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» أي إني لما أنزلت(5) من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنيني بك عمن سواك.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ في هذا الكلام اختصار يدلّ عليه هذا الظاهر؛ قدّره [ابن] إسحق(6): فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه — وقيل الصغرى — أن تدعوه له، «فجاءت» على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سَلْفَعًا(7) من النساء، خَرّاجة ولّاجة. وقيل: جاءته ساترة وجهها بكم درعها؛ قاله عمر بن الخطاب. وروى أن اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ابن أخي شعيب، وأن شعيبا كان قد مات. وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن، قال الله تعالى: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا»(8) كذا في سورة «الأعراف» وفي سورة الشعراء: «كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ» قال قتادة: بعث الله تعالى شعيبا إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في «الأعراف» الخلاف في اسم أبيه. فروى أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبت ريح فضمت قميصها فوصفت عجيزتها، فتحرّج موسى من النظر

(1) راجع ج ٢ ص ٢٥٧ فما بعد
(2) راجع ج ٢٠ ص ١٦٢ فما بعد.
(3) راجع ج ١٦ ص ١٤٤.
(4) راجع ج ١١ ص ٣٠٤ فما بعد.
(5) في ك: أبديت.
(6) في الأصول: أبو إسحق والتصويب عن تفسير ابن عطية والطبري.
(7) السلفع من النساء: الجريئة على الرجال.
(8) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ فما بعد.

إليها فقال: ٱرجعى [خلفى] وأرشدينى إلى الطريق بصوتك. وقيل: إن موسى قال ابتداء: كونى ورائى فإنى رجل عبرانىّ لا أنظر فى أدبار النساء، ودلّينى على الطريق يمينا أو يسارا؛ فذلك سبب وصفها [له] بالأمانة؛ قاله ٱبن عباس. فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوله إلى آخره فآنسه بقوله : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون . وقرب إليه طعاما فقال موسى : لا آكل؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا؛ فقال شعيب : ليس هذا عوض السق، ولكن عادتى وعادة آبائى قِرى الضيف، وإطعام الطعام؛ فحينئذ أكل موسى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ ﴾ دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت فى كل ملة، وهى من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافا للأصم حيث كان عن سماعها أصم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾ الآية . فيه عرض الولىّ بنته على الرجل؛ وهذه سنة قائمة؛ عرض صالح مدين ٱبنته على صالح بنى إسرائيل، وعرض عمر ابن الخطاب ٱبنته حفصة على أبى بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح، ٱقتداء بالسلف الصالح . قال ٱبن عمر: لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر؛ الحديث ٱنفرد بإخراجه البخارى .

السابعة — وفى هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولىّ لا حظّ للمرأة فيه؛ لأن صالح مدين تولاه، وبه قال فقهاء الأمصار . وخالف فى ذلك أبو حنيفة . وقد مضى .

الثامنة — هذه الآية تدلّ على أن للأب أن يزوّج ٱبنته البكر البالغ من غير ٱستئمار، وبه قال مالك وٱحتج بهذه الآية، وهو ظاهر قوىّ فى الباب ، واحتجاجه بها يدلّ على أنه كان يعوّل على الإسرائيليات؛ كما تقدّم . وبقول مالك فى هذه المسألة قال الشافعى وكثير من العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوّجها أحد إلا برضاها؛ لأنها بلغت

(١) من ب وط وك .

حدّ التكليف ؛ فأما إذا كانت صغيره فإنه يزوجها بغير رضاها لأنه لا إذن لها ولا رضا ؛ بغير خلاف .

التاسعة — استدل أصحاب الشافعي بقوله : « إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ » على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح . وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد(١) وداود ومالك على اختلاف عنه . وقال علماؤنا في المشهور : ينعقد النكاح بكل لفظ . وقال أبو حنيفة : ينعقد بكل لفظ يقتضى التمليك على التأبيد ؛ أما الشافعية فلا حجة لهم فى الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة فى شىء فى المشهور عندهم . وأما أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن ابن حىّ فقالوا : ينعقد النكاح بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه ؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية ، قالوا : فكذلك النكاح . قالوا : والذى خصّ به النبي صلى الله عليه وسلم تعرى البُضع من العوض لا النكاح بلفظ الهبة ، وتابعهم ابن القاسم فقال : إن وهب ابنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئا ، وهو عندى جائز كالبيع . قال أبو عمر : الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الهبة ، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبة شىء من الأموال . وأيضا فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه ، وهو ضدّ الطلاق فكيف يقاس عليه ! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله : أبحت لك وأحللت [لك](٢) فكذلك الهبة . وقال صلى الله عليه وسلم : "استحللتم فروجهنّ بكلمة الله" يعنى القرآن ، وليس فى القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة ، وإنما فيه التزويج والنكاح ، وفى إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطال بعض خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَاتَيْنِ ﴾ يدلّ على أنه عرض لا عقد ؛ لأنه لو كان عقدا لعين المعقود عليها له ؛ لأن العلماء وإن كانوا قد اختلفوا فى جواز البيع إذا قال : بعتك أحد عبدىّ هذين بثمن كذا ؛ فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز فى النكاح ؛ لأنه خيار وشىء من الخيار لا يلصق بالنكاح .

الحادية عشره — قال مكىّ : فى هذه الآية خصائص فى النكاح ؛ منها أنه لم يعين الزوجة ولا حدّ أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينقد شيئا .

(١) فى ط و ك : أبو عبيده . (٢) من ب و ط و ك

قلت : فهذه أربع مسائل تضمنتها المسألة الحادية عشرة .

الأولى — من الأربع مسائل [التعيين](١)، قال علماؤنا : أما التعيين فيشبه أنه كان فى ثانى حال المراوضة، وإنما عرض الأمر مجملا، وعيّن بعد ذلك . وقد قيل : إنه زوّجه صفوريا وهى الصغرى . يروى عن أبى ذرّ قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن سئلت أى الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت أى المرأتين تزوج فقل الصغرى وهى التى جاءت خلفه وهى التى قالت : « يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » " . قيل : إن الحكمة فى تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها ؛ لأنه رآها فى رسالته، وماشاها فى إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمر غيره . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم . وفى بعض الأخبار أنه تزوج بالكبرى ؛ حكاه القشيرى .

الثانيـــة — وأما ذكر أول المدّة فليس فى الآية ما يقتضى إسقاطه بل هو مسكوت عنه ؛ فإمّا رسماه ، وإلا فهو من أول وقت العقد .

الثالثـــة — وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرّره شرعنا، وجرى فى حديث الذى لم يكن عنده إلا شىء من القرآن ؛ رواه الأئمة ؛ وفى بعض طرقه : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماتحفظ من القرآن " فقال : سورة البقرة والتى تليها ؛ قال : " فعلمها عشرين آية وهى آمرأتك " . وآختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال : فكرهه مالك ، ومنعه آبن القاسم ، وأجازه آبن حبيب ؛ وهو قول الشافعى وأصحابه ؛ قالوا : يجوز أن تكون منفعة الحرّ صداقا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن . وقال أبو حنيفة : لا يصح ؛ وجوّز أن يتزوّجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ؛ لأن العبد والدار مال ، وليس خدمتها بنفسه مالا . وقال أبو الحسن الكرخى : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز ؛ لقوله تعالى : « فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ »(٢) . وقال أبو بكر الرازى : لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت ، وعقد النكاح مؤبد ، فهما متنافيان . وقال آبن القاسم : ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده .

(١) من ل . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٢٠ فما بعد .

وقال أصبغ : إن نقد معه شيئا ففيه آختلاف ، وإن لم ينقد فهو أشد ، فإن ترك مضى على كل حال بدليل قصة شعيب ؛ قاله مالك وآبن المـوّاز وأشهب . وعوّل على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين فى هذه النازلة ؛ قال آبن خوَيْزِ مَنْدَاد . تضمّنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح، ويكره أن تجعل الإجارة مهرا، وينبغى أن يكون المهر مالًا كما قال عز وجل : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ »[1] . هذا قول أصحابنا جميعا .

الرابعة — وأما قوله : ودخل ولم ينقد فقد آختلف الناس فى هذا؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر ؟ فإن كان حين عقد فماذا نقد ؟ وقد منع علماؤنا من الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار؛ قاله ابن القاسم . فإن دخل قبل أن ينقد مضى ، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا : تعجيل الصداق أو شىء منه مستحب . على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع فى الخدمة؛ وإن كان دخل حين سافر فطول الآنتظار فى النكاح جائز وإن كان مدى العمر بغير شرط . [وأما إن كان[2] بشرط] فلا يجوز إلا أن يكون الغرض صحيحا مثل التأهب للبناء أو آنتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة ؛ نص عليه علماؤنا .

الثانية عشرة — فى هذه الآية آجتماع إجارة ونكاح ، وقد آختلف علماؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال : الأول — قال فى ثمانية أبى زيد : يكره آبتداء فإن وقع مضى . الثانى — قال مالك وآبن القاسم فى المشهور : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده ؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة . الثالث — أجازه أشهب وأصبغ . قال آبن العربى : وهذا هو الصحيح وعليه تدلّ الآية ؛ وقد قال مالك النكاح أشبه شىء بالبيوع ، فأى فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح .

فرع — وإن أصدقها تعليم شعر مباح صحّ ؛ قال المزنى : وذلك مثل قول الشاعر :

يقول العبد[3] فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما آستفادا

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو فحش كان كما لو أصدقها خمرا أو خنزيرا .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٥ فما بعد . (٢) من ب و ك . (٣) فى ب و ك : المرء .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقا وقال مالك إنه جائز ويحمل على العرف ، فلا يحتاج فى التسمية إلى الخدمة ، وهو ظاهر قصة موسى ، فإنه ذكر إجارة مطلقة . وقال أبو حنيفة والشافعى : لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول وقد ترجم البخارى : «باب من استأجر أجيرا فبيّن له الأجل ولم يبيّن له العمل» لقوله تعالى : « عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ » . قال المهلّب : ليس كما ترجم؛ لأن العمل عندهم كان معلوما من سقى وحرث ورعى وما شاكل أعمال البادية فى مهنة أهلها ، فهذا متعارف و إن لم يبيّن له أشخاص الأعمال ولا مقاديرها ؛ مثل أن يقول له : إنك تحرث كذا من السنة ، وترعى كذا من السنة ، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية ، و إنما الذى لا يجوز عند الجميع أن تكون المدّة مجهولة ، والعمل مجهول غير معهود[1] لا يجوز حتى يعلم . قال ابن العربى : وقد ذكر أهل التفسير أنه عيّن له رعية الغنم ، ولم يرو من طريق صحيحة ، ولكن قالوا : إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم ، فكان ما عُلم من حاله قائما مقام التعيين للخدمة فيه .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعى شهورا معلومة ، بأجرة معلومة ، لرعاية غنم معدودة ؛ فإن كانت معدودة معينة ، ففيها تفصيل لعلمائنا ؛ قال ابن القاسم : لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت ، وهى رواية ضعيفة جدا ؛ وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه ، وقد رآها ولم يشترط خلفا ؛ و إن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت عند علمائنا . وقال أبو حنيفة والشافعى : لا تجوز لجهالتها ؛ وعوّل علماؤنا على العرف حسبما ذكرناه آنفا ؛ وأنه يعطى بقدر ما تحتمل قوّته . وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوته ، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوة موسى برفع الحجر .

الخامسة عشرة — قال مالك : وليس على الراعى ضمان وهو مصدّق فيما هلك أو سرق ؛ لأنه أمين كالوكيل . وقد ترجم البخارى : « باب إذا أبصر الراعى أو الوكيل شاة تموت أو شيئا يفسد[2] فأصلح ما يخاف الفساد » وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت

(١) فى ك : غير معلوم .	(٢) فى ك : أو شاة .

لهم غنم ترعى بسَلْع[1] ، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتًا فكسرت حجرا فذبحتها به ، فقال لهم : لا تأكلوا حتى أسأل النبي — أو أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يسأله — وأنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم — أو أرسل إليه — فأمره بأكلها ؛ قال عبد الله : فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت . قال المهلّب : فيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيما ٱئتمنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب ؛ وهذا قول مالك وجماعة . وقال ٱبن القاسم : إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة . وقال غيره : يضمن حتى يبين ما قال .

السادسة عشرة — وٱختلف ٱبن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت ؛ فقال ٱبن القاسم : لا ضمان عليه ؛ لأن الإنزاء من إصلاح المال ونمائه . وقال أشهب : عليه الضمان ؛ وقول ٱبن القاسم أشبه بدليل حديث كعب ، وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه بٱجتهاده ، إن كان من أهل الصلاح ، وممن يعلم إشفاقه على المال ؛ وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه فعل ؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتًا لما عرف[2] من فسقه .

السابعة عشرة — لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام ؛ ولكن روى يحيى بن سلّام أن صالح مدين جعل لموسى كل سخلة توضع خلاف لون أمها ، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك بينهن يلدن خلاف شبههن كلّهن . وقال غير يحيى : بل جعل له كل بلقاء تولد له ، فولدن له كلهن بُلْقا . وذكر القُشيري أن شعيبا لما ٱستأجر موسى قال له : ٱدخل بيت كذا وخذ عصا من العصيّ التي في البيت ، فأخرج موسى عصا ، وكان أخرجها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى شعيب ، فأمره شعيب أن يلقيها في البيت ويأخذ عصا أخرى ، فدخل وأخرج تلك العصا ؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيده غير تلك ، فعلم شعيب أن له شأنا ؛ فلما أصبح قال له : سق الأغنام إلى مفرق الطريق ، فخذ عن يمينك

(١) سلع : جبل بالمدينة . (٢) في ك : علم .

وليس بها عشب كثير ، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشبا كثيرا وتِنِّينا كبيرا لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق ، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها ، فنام موسى وخرج التنّين ، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديدا وحاربت التنّين حتى قتلته ، وعادت إلى موسى عليه السلام ، فلما انتبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم، والتنّين مقتولا، فعاد إلى شعيب عشاء ، وكان شعيب ضريرا فمس الأغنام ، فإذا ، أثر الخِصب بادٍ عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها ، ففرح شعيب وقال : كل ما تلد هذه المواشي هذه السنة قالِب لونٍ — أى ذات لونين — فهولك ؛ فجاءت جميع السخال تلك السنة ذات لونين ، فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة . وروى عُيَيْنة بن حِصن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه" فقال له شعيب لك منها — يعنى من نتاج غنمه — ما جاءت به قالب لون ليس فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ[1] . قال الهروى : العزوز البكيئة ؛ مأخوذ من العزاز وهى الأرض الصلبة ، وقد تعزَّزت الشاة . والفَشُوشُ التى يَنْفَشّ لبنُها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل ، ومثله الفَتُوح والثَّرُورُ . ومن أمثالهم : (لَأُفُشَّنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أى لأخرجن غضبك وكبرك من رأسك . ويقال : فَشّ السِّقاءَ إذا أخرج منه الريح . ومنه الحديث : "إن الشيطان يَفُشّ بين أَلْيَتَيْ أحدِكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث" أى ينفخ نفخا ضعيفا . والكَمُوشُ : الصغيرة الضرع ، وهى الكميشة أيضا ؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه ؛ ومنه يقال : رجل كميش الإزار . والكَشُودُ مثل الكَموش . والضَّبُوبُ الضيقة ثقب الإحليل . والضَّبُّ الحَلْب بشدّة العصر . والثَّعُولُ الشاة التى لها زيادة حلمة وهى الثعل . والثَّعل زيادة السنّ ، وتلك الزيادة هى [الرَّاءُول[2]] . ورجل أثعل . والثعل [ضيق[3]] مخرج اللبن . قال الهروى : وتفسير قالب لون فى الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها .

---

(١) فى ب وط وك ولأصبوب مكشبة . ولم نجد له معنى . (٢) الزيادة من اللسان ، وفى الأصول : « هى الثعل » ولعله تحريف ؛ إذ أن عبارة اللسان « وتلك السن الزائدة يقال لها الراءول » . (٣) زيادة يقتضيها المعنى . فى ب عبارة لم نجد لها وجها ؛ هى : الصبوب التى ضرعها مثل الموزتين .

الثامنة عشرة — الإجارة بالعوض المجهول لا تجوز ؛ فإن ولادة الغنم غير معلومة ، وإن من البلاد الخصبة مايعلم ولاد الغنم فيها قطعا وعِدّتها وسلامة سخالها كديار مصر وغيرها ، بيد أن ذلك لايجوز فى شرعنا ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الغَرَر ، ونهى عن المضامين والملاقيح . والمضامين مافى بطون الإناث ، والملاقيح ما فى أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر :

* مَلْقُوحَة فى بطنِ نابٍ حائِلِ *

وقد مضى فى سورة « الحِجر »[1] بيانه . على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع . وقال ابن سيرين وعطاء : ينسج الثوب بنصيب منه ؛ وبه قال أحمد .

التاسعة عشرة — الكفاءة فى النكاح معتبرة ؛ وٱختلف العلماء هل فى الدين والمال والحسب ، أو فى بعض ذلك . والصحيح جواز نكاح الموالى للعربيات والقرشيات ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »[2] . وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا جائعا عريانا فأنكحه ٱبنته لما تحقق [من دينه][3] ورأى من حاله ، وأعرض عماسوى ذلك . وقد تقدّمت هذه المسألة مستوعبة والحمد لله .

الموفية عشرين — قال بعضهم : هذا الذى جرى من شعيب لم يكن ذكرا لصداق المرأة ، وإنما كان ٱشتراطا لنفسه على ما يفعله الأعراب ؛ فإنها تشترط صداق بناتها ، وتقول : لى كذا فى خاصة نفسى ، وترك المهر مفوّضا ؛ ونكاح التفويض جائز . قال ٱبن العربى : هذا الذى تفعله الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر ، وهو حرام لا يليق بالأنبياء ؛ فأمّا إذا ٱشترط الولىّ شيئا لنفسه ، فقد ٱختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ولا يدخل فى يد المرأة على قولين : أحدهما — أنه جائز . والآخر — لايجوز . والذى يصح عندى التقسيم ؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكرا أوثيبا ؛ فإن كانت ثيبا جاز؛ لأن نكاحها

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٧ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٠ فما بعد .

(٣) الزيادة من « أحكام القرآن لابن العربى » .

بيدها ، وإنما يكون للولىّ مباشرة العقد ، ولا يمتنع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع . وإن كانت بكرا كان العقد بيده ، وكأنه عوض فى النكاح لغير الزوج وذلك باطل ؛ فإن وقع فُسِخ قبل البناء ، وثبت بعده على مشهور الرواية . والحمد لله .

الحادية والعشرون — لما ذكر الشرط وأعقبه بالطوع فى العشر خرج كل واحد منهما على حكمه ، ولم يلحق الآخر بالأول ، ولا اشترك الفرض والطوع ؛ ولذلك يكتب فى العقود الشروط المتفق عليها ، ثم يقال وتطوّع بكذا ، فيجرى الشرط على سبيله ، والطوع على حكمه ، وانفصل الواجب من التطوّع . وقيل : ومن لفظ شعيب حسن فى لفظ العقود فى النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتى بيانه فى « الأحزاب »[1] . وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطا ، ووكل العاشرة إلى المروءة .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ لما فرغ كلام شعيب قرّره موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثق فى أن الشرط إنما وقع فى ثمان حِجج . و« أَيَّمَا » استفهام منصوب بـ« قَضَيْتُ » و« الْأَجَلَيْنِ » مخفوض بإضافة « أى » إليهما و« ما » صلة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه « فَلَا عُدْوَانَ » وأن « عدوان » منصوب بـ« لا » . وقال ابن كيسان : « ما » فى موضع خفض بإضافة « أى » إليها وهى نكرة و« الْأَجَلَيْنِ » بدل منها . وكذلك فى قوله : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ »[2] أى رحمة بدل من ما ؛ قال مكى : وكان يتلطف فى ألا يجعل شيئا زائدا فى القرآن ، ويخرج له وجها يخرجه من الزيادة . وقرأ الحسن : « أَيْمَا » بسكون الياء . وقرأ ابن مسعود : « أىَّ الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ » . وقرأ الجمهور : « عُدْوَان » بضم العين . وأبو حَيْوة بكسرها ؛ والمعنى : لا تبعة علىّ ولا طلب فى الزيادة عليه . والعدوان التجاوز فى غير الواجب ، والحجج السنون . قال الشاعر[3] :

لمن الديار بِقُنّة الحِجْر * أقوين من حِجج ومن دهر

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٠٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ .

(٣) هو زهير بن أبى سلمى . ويروى : ومن شهر .

الواحدة حجة بكسر الحاء . ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قيل : هو من قول موسى . وقيل : هو من قول والد المرأة . فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما فى الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحدا من الخلق ، وقد ٱختلف العلماء فى وجوب الإشهاد فى النكاح ؛ وهى :

الثالثة والعشرون — على قولين : أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين . و به قال أبو حنيفة والشافعى . وقال مالك : إنه ينعقد دون شهود ؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، و إنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّفّ . وقد مضت هذه المسألة فى « البقرة » [1] مستوفاة . وفى البخارى عن أبى هريرة : أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار فقال ٱيتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيدا ؛ فقال ٱيتنى بكفيل؛ فقال كفى بالله كفيلا . قال صدقت فدفعها إليه ؛ وذكر الحديث .

قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ قال سعيد بن جبير : سألنى رجل من النصارى أى الأجلين قضى موسى . فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله — يعنى ٱبن عباس — فقدمت عليه فسألته ؛ فقال : قضى أكملهما وأوفاهما . فأعلمت النصرانى فقال : صدق والله هذا العالم . وروى عن ٱبن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سأل فى ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين . وحكى الطبرى عن مجاهد أنه قضى عشرا وعشرا بعدها ؛ [رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس] [2] قال ٱبن عطية : وهذا ضعيف .

(١) راجع جـ ٣ ص ٧٩ فما بعد . (٢) من ب .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قيل : فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء، لما لَه عليها من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لها أمرا فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما آستحللتم به الفروج .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ الآية . تقدّم القول في ذلك في « طه »[1] . والجِذوة بكسر الجيم قراءة العامة، وضمها حمزة ويحيى ، وفتحها عاصم والسُّلَمى وزرّ بن حُبيش . قال الجوهرى : الجِذْوة والجُذْوة والجَذْوة الجمرة الملتهبة والجمع جِذًا وجُذًا وجَذًا . قال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أى قطعة من الجمر؛ قال : وهى بلغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : والجِذْوة مثل الجذمة وهى القطعة الغليظة من الخشب كان فى طرفها نار أو لم يكن . قال آبن مقبل :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا ＊ جَزْلَ الجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ وَلَا دَعِرِ[2]

وقال :

وَأَلْـقَى على قَيْسٍ مِنَ النَّارِ جِذْوَةً ＊ شَـــدِيدًا عليها حَمْيُهَا ولهيبُهَا[3]

قوله تعالى : فَلَمَّا أَتَنٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعنى الشجرة قدم ضميرها عليها . ﴿ نُودِىَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ ﴾ « مِن » الأولى والثانية لآبتداء الغاية ، أى أتاه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة . و « مِنَ الشَّجَرَةِ » بدل من قوله : « مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ » بدل الاشتمال ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ، وشاطئ الوادى وشطه جانبه، والجمع شُطَّان وشواطئ، ذكره القشيرى . وقال الجوهرى : ويقال شاطئ الأودية ولا يجمع . وشاطأت الرجل إذا مشيت على شاطئ

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٧١ .

(٢) الخوار هنا العود الذى يتقصف والدعر الذى إذا وضع على النار لم يستوقد ودخن .

(٣) ويروى : ＊ شديدا عليها حرها والتهابها ＊

ومشى هو على شاطىء آخر . ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ أى عن يمين موسى . وقيل : عن يمين الجبل . ﴿ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ وقرأ الأشهب العقيلى : « فِى الْبَقْعَةِ » بفتح الباء . وقولهم بِقاع يدلّ على بَقْعة؛ كما يقال جَفْنة وجِفَان . ومن قال بُقْعة قال بُقَع مثل غُرْفة وغُرَف . ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أى من ناحية الشجرة . قيل: كانت شجرة العلّيق. وقيل: سَمُرة وقيل: عَوْسج . ومنها كانت عصاه؛ ذكره الزمخشرى . وقيل : عُنّاب، والعَوْسج إذا عظم يقال له الغَرْقَد . وفى الحديث : إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدّجال فلا يختفى أحد منهم خلف شجرة إلا نطقت وقالت يامسلم هذا يهودى ورائى تعال فاقتله إلا الغَرْقَد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق . خرجه مسلم . قال المهدوى : وكلّم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء . ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال وشبه ذلك من صفات المخلوقين . قال أبو المعالى : وأهل المعانى وأهل الحق يقولون مَن كلمه الله تعالى وخصّه بالرتبة العليا والغاية القصوى، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات ، كما أن مَن خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته، ورزقه رؤيته يرى الله سبحانه منزّها عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث ، ولا مثل له سبحانه فى ذاته وصفاته ، وأجمعت الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه . قال الأستاذ أبو إسحق : اتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق فى موسى عليه السلام معنى من المعانى أدرك به كلامه كان اختصاصه فى سماعه ، وأنه قادر على مثله فى جميع خلقه . واختلفوا فى نبينا عليه السلام هل سمع ليلة الإسراء كلام الله ، وهل سمع جبريل كلامه على قولين ؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود ، واتفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التى عرفوا بها معناه دون سماعه له فى عينه . وقال عبد الله ابن سعد بن كلاب : إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها الله تعالى فى بعض الأجسام . قال أبو المعالى : وهذا مردود؛ بل يجب اختصاص موسى

عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقا للعادة، ولو لم يُقَل ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاص بتكليم الله إياه . والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز، وخلق له علما ضروريا، حتى علم أن ماسمعه كلام الله، وأن الذى كلّمه وناداه هو الله رب العالمين . وقد ورد فى الأقاصيص أن موسى عليه السلام قال : سمعت كلام ربى بجميع جوارحى، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتى . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » [1] مستوفى . ﴿أَنْ يَامُوسَى﴾ « أَنْ » فى موضع نصب بحذف حرف الجر أى بـ « أَنْ يَامُوسَى » . ﴿إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ نفى لربوبية غيره سبحانه . وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل لا من رسله؛ لأنه لا يصير [2] رسولا إلا بعد أمره بالرسالة، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .

قوله تعالى : وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على « أَنْ يَامُوسَى » وتقدم الكلام فى هذا فى « النمل » [3] و « طه » [4] . و ﴿مُدْبِرًا﴾ نصب على الحال وكذلك موضع قوله : ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ نصب على الحال أيضا . ﴿يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ قال وهب : قيل له ارجع إلى حيث كنت . فرجع فلفّ دُرّاعته [5] على يده، فقال له الملك : أرأيت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أينفعك لَفُّك يدك ؟ قال : لا ولكنى ضعيف خلقت من ضعف [6] . وكشف يده فأدخلها فى فم الحية فعادت عصا . ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ أى مما تحاذر .

قوله تعالى : ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ . (٢) فى ب : يعتبر . (٣) راجع ص ١٥٦ فما بعد من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١١ ص ١٨٥ . (٥) الدراعة : ضرب من الثياب التى تلبس . وقيل : جبة مشقوقة المقدم . (٦) فى ب : ضعيف .

فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ الآية؛ تقدّم القول فيه . ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ « من » متعلقة بـ « ولّى » أى ولّى مدبرا من الرهب . وقرأ حفص والسُّلَمى وعيسى بن عمر وابن أبى إسحق : « مِنَ الرَّهْبِ » بفتح الراء و إسكان الهاء . وقرأ ٱبن عامر والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجزم الهاء . الباقون بفتح الراء والهاء . وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا »[1] وكلها لغات وهو بمعنى الخوف . والمعنى إذا هَالَك أمرُ يَدِك وشعاعها فأدخلها فى جيبك وٱرددها إليه تعد كما كانت . وقيل : أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية . عن مجاهد وغيره ورواه الضحاك عن ٱبن عباس؛ قال فقال ٱبن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب . ويحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أن كاتبا كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض . فقال له عمر : خذ قلمك وٱضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك فإنى ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسى . وقيل : المعنى ٱضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله ما فى صدرك من الخوف . وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون وإما من الثعبان . وضم الجناح هو السكون؛ كقوله تعالى : « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ »[2] يريد الرفق . وكذلك قوله : « وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[3] أى ٱرفق بهم . وقال الفراء : أراد بالجناح عصاه . وقال بعض أهل المعانى : الرهب الكُمّ بلغة حمير و بنى حنيفة . قال مقاتل : سألتنى أعرابية شيئا وأنا آكل فملأت الكف وأومأت إليها فقالت : ها هنا

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٣٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٣ فما بعد
(٣) راجع ص ١٤٣ من هذا الجزء .

فى رهبي . تريد فى كُمّى . وقال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول لآخر أعطنى رهبك . فسألته عن الرهب فقال : الكُمّ ؛ فعلى هـذا يكون معناه ٱضمم إليك يدك وأخرجها من الكُم ؛ لأنه تناول العصا و يده فى كمه وقوله : « ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » يدلّ على أنها اليد اليمنى ؛ لأن الجيب على اليسار . ذكره القشيرى .

قلت : وما فسروه من ضم اليـد إلى الصدر يدلّ على أن الجيب موضعه الصدر . وقد مضى فى سورة « النور » بيانه[1] . الزمخشرى : ومن بدع التفاسير أن الرهب الكُم بلغة حمير وأنهم يقولون أعطنى مما فى رهبك، وليت شعرى كيف صحته فى اللغة ! وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم ، ثم ليت شعرى كيف موقعه فى الآية ، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل ؛ على أن موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زُرمانِقة[2] من صوف لا كمين لها . قال القشيرى : وقوله : « وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان . وقيل : « وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى شمر وٱستعد لتحمل أعباء الرسالة .

قلت : فعلى هـذا قيل « إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ » أى من المرسلين ؛ لقوله تعالى : « إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ »[3] . قال ٱبن بحر : فصار على هذا التأويل رسولا بهذا القول . وقيل : إنما صار رسولا بقوله : ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ والبرهانان اليد والعصا . وقرأ ٱبن كثير : بتشديد النون وخففها الباقون . وروى أبو عمارة عن أبى الفضل عن أبى بكر عن ٱبن كثير ، « فَذَانِّيكَ » بالتشديد والياء . وعن أبى عمرو أيضا قال لغة هذيل : « فَذَانِيكَ » بالتخفيف والياء . ولغة قريش « فَذَانِكَ » كما قرأ أبو عمرو وٱبن كثير . وفى تعليله خمسة أقوال : قيل شدّد النون عوضا من الألف الساقطة فى ذانك الذى هو تثنية ذا المرفوع ، وهو رفع بالابتداء ، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التثنية عليها ، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين ؛ لأن أصله فذاانك فحذف الألف الأولى عوضا من النون الشديدة . وقيل :

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٣١ .
(٢) الزرمانقة : جبة من صوف ، وهى عجمية معربة .
(٣) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء .

التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام فى ذلك . مكى : وقيل إن من شدّد إنما بناه على لغة من قال فى الواحد ذلك ، فلما بنى أثبت اللام بعد نون التثنية ، ثم أدغم اللام فى النون على حكم إدغام الثانى فى الأوّل ، والأصل أن يدغم الأوّل أبدا فى الثانى ، إلا أن يمنع من ذلك علّة فيدغم الثانى فى الأوّل ، والعلّة التى منعت فى هذا أن يدغم الأوّل فى الثانى أنه لو فعل ذلك لصار فى موضع النون التى تدلّ على التثنية لام مشدّدة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثانى فى الأوّل لذلك ، فصار نونا مشدّدة . وقد قيل : إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدغم الأوّل فى الثانى على أصول الإدغام فصار نونا مشدّدة . وقيل : شدّدت فرقا بينها وبين الظاهر التى تسقط الإضافة نونه ؛ لأن ذان لا يضاف . وقيل : للفرق بين الاسم المتمكن وبينها . وكذلك العلّة فى تشديد النون فى « اللذان » و « هذان » . قال أبو عمرو : إنما آختص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلة حروفه فقرأه بالتثقيل . ومن قرأ : « فَذَانِيكَ » بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده « فَذَانِّكَ » بالتشديد فأبدل من النون الثانية ياء كراهية التضعيف ، كما قالوا : لا أملاه فى لا أُمَلُّه فأبدلوا اللام الثانية ألفا . ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ يعنى معينا مشتق من أردأته أى أعنته . والردء العون . قال الشاعر :

ألم تر أنّ أصرم كان رِدْئى ✽ وخيرَ النّاس فى قُلٍّ ومال

النحاس : وقد أرداه ورداه أى أعانه ؛ وترك همزه تخفيفا . وبه قرأ نافع : وهو بمعنى المهموز . قال المهدوى : ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أَردى على المائة أى زاد عليها ، وكأن المعنى أرسله معى زيادة فى تصديق . قاله مسلم بن جندب . وأنشد قول الشاعر :

وأسمر خَطِّيًّا كأنّ كُعوبَه ✽ نوى القَسْب قد أردَى ذراعا على العَشْر

كذا أنشد الماوردى هذا البيت : قد أردى . وأنشده الغزنوى والجوهرى فى الصحاح قد أرمى[1] ؛ قال : والقسب الصلب ، والقسب تمر يابس يتفتت فى الفم صلب النواة . قال

(١) أرمى وأربى لغتان .

يصف رمحا : وأسمر . البيت . قال الجوهرى : ردؤ الشيء يردؤ رداءة فهو ردىء أى فاسد، وأردأته أفسدته ، وأردأته أيضا بمعنى أعنته؛ تقول : أردأته بنفسي أى كنت له ردءا وهو العون . قال الله تعالى : « فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » . قال النحاس : وقد حكى ردأته : ردءا وجمع ردء أرداء . وقرأ عاصم وحمزة : « يُصَدِّقُنِي » بالرفع . وجزم الباقون ؛ وهو اختيار أبي حاتم على جواب الدعاء . واختار الرفع أبو عبيد على الحال من الهاء في « أَرْسِلْهُ » أى أرسله ردءا مصدقا حالة التصديق ؛ كقوله : « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ »(1) أى كائنة ؛ حال صرف إلى الاستقبال . ويجوز أن يكون صفة لقوله : « رِدْءًا » . ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ إذا لم يكن لى وزير ولا معين ؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عنى ، ف﴿قَالَ﴾ الله جل وعز له : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أى نقويك به ؛ وهذا تمثيل ؛ لأن قوة اليد بالعضد . قال طرفة :

بني لُبَيْنَى لستُم بيـد * إلّا يدًا ليست لها عَضد

ويقال فى دعاء الخير: شدّ الله عضدك . وفى ضدّه : فتّ الله فى عضدك . ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أى حجة و برهانا . ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى تمتنعان منهم « بِآيَاتِنَا » فيجوز أن يوقف على « إِلَيْكُمَا » ويكون فى الكلام تقديم وتأخير . وقيل : التقدير « أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » بآياتنا . قاله الأخفش والطبرى . قال المهدوى : وفى هذا تقديم الصلة على الموصول ، إلا أن يقدّر أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون . وعنى بالآيات سائر معجزاته .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم

(1) راجع ج ٦ ص ٣٦٧ فما بعد .

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى ظاهرات واضحات ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ مكذوب مختلق ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ . وقيل : إن هذه الآيات ما احتج به موسى فى إثبات التوحيد من الحجج العقلية . وقيل : هى معجزاته .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ قراءة العامة بالواو . وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن : « قَالَ » بلا واو ؛ وكذلك هو فى مصحف أهل مكة . ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ أى بالرشاد . ﴿ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما : « يكون » بالياء والباقون بالتاء . وقد تقدّم هذا . ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى دار الجزاء . ﴿ إِنَّهُ ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ قال ابن عباس : كان بينها و بين قوله : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى »[1] أربعون سنة ، وكذب عدوّ الله بل علم أن له ثَمَّ ربًّا هو خالقه وخالق قومه . « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[2] . قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ أى اطبخ لى الآجرّ ؛ عن ابن عباس رضى الله عنه . وقال قتادة : هو أوّل من صنع الآجرّ و بنى به . ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال — قيل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء — وأمر بطبخ الآجرّ والجص ، ونشر الخشب ،

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٠٠ . (٢) راجع ج ١٤ ص ٧٥ فما بعد

وضرب المسامير، فبنوا ورفعوا البناء وشيّدوه بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض، فكان البانى لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه. فحكى السدّى: أن فرعون صعد السطح ورمى بنُشّابة نحو السماء، فرجعت متلطخة بدماء، فقال قد قتلت إله موسى. فروى أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع: قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف، وقطعة فى البحر، وقطعة فى الغرب، وهلك كل من عمل فيه شيئا. والله أعلم بصحة ذلك. ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ الظن هنا شك، فكفر على الشك؛ لانه قد رأى من البراهين ما لا يُخيل[1] على ذى فطرة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ أى تعظم ﴿ هُوَ وَجُنُودُهُ ﴾ أى عن الإيمان بموسى. ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أى بالعدوان، أى لم تكن له حجة تدفع ما جاء به موسى. ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ أى توهموا أنه لا معاد ولا بعث. وقرأ نافع وآبن محيصن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائى: «لَا يَرْجِعُونَ» بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل. الباقون: «يُرْجَعُونَ» على الفعل المجهول. وهو آختيار أبى عبيد، والأول آختيار أبى حاتم. ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ وكانوا ألفى ألف وستمائة ألف. ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أى طرحناهم فى البحر المالح. قال قتادة: بحر من وراء مصر يقال له إسَاف أغرقهم الله فيه. وقال وهب والسدّى: المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية الْقُلْزُم يقال له بطنُ مُرَيْرَة، وهو إلى اليوم غضبان. وقال مقاتل، يعنى نهر النيل. وهذا ضعيف والمشهور الأول. ﴿ فَٱنْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى آخر أمرهم. ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أى جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من آتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر. وقيل: جعل الله الملأ من قومه رؤساء السّفلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم. وقيل: أئمة أئتم بهم ذوو العبر ويتّعظ بهم أهل البصائر. ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أى إلى عمل أهل

---

(١) لا يخيل: أى لايشكل.

النار ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ . ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم . وقيل : أى ألزمناهم اللعن أى البعد عن الخير . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ أى من المهلكين الممقوتين . قاله ٱبن كيسان وأبو عبيدة . وقال ٱبن عباس : المشوّهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون . وقيل: من المبعدين . يقال: قَبَحه الله أى نحاه من كل خير، وقَبَحه وقَبَّحه إذا جعله قبيحا . وقال أبو عمرو : قبحت وجهه بالتخفيف معناه قبَّحت . قال الشاعر :

أَلَا قَبَحَ اللهُ البراجِمَ كلَّها * وقَبَّح يَرْبوعا وقَبَّح دَارِمَا

وٱنتصب يوما على الحمل على موضع « فِي هَذِهِ الدُّنْيَا » وٱستغنى عن حرف العطف فى قوله : « مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » كما ٱستغنى عنه فى قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ »(1) . ويجوز أن يكون العامل فى « يوم » مضمرا يدلّ عليه قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » فيكون كقوله : « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ »(2) . ويجوز أن يكون العامل فى « يوم » قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » وإن كان الظرف متقدما . ويجوز أن يكون مفعولا على السعة ، كأنه قال : وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة ؛ قاله قتادة . قال يحيى ابن سلّام: هو أوّل كتاب ـــ يعنى التوراة ـــ نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام . وقيل : الكتاب هنا ستّ من المثانى السبع التى أنزلها الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ٱبن عباس ، ورواه مرفوعا . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ قال أبو سعيد الخدرى قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمّة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التى مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » "

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٨٢ . (2) راجع ص ١٩ من هذا الجزء .

أى من بعد قوم نوح وعاد وثمود . وقيل : أى من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون . ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أى آتيناه الكتاب بصائر . أى ليتبصروا ﴿ وَهُدًى ﴾ أى من الضلالة لمن عمل بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن بها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى ليذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم فى الدنيا ، ويثقوا بثوابهم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ أى ما كنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ أى بجانب الجبل الغربى قال الشاعر :

أعطاكَ من أعطى الهُدَى النبيَّا * نُورًا يَزِينُ المِنبرَ الغربيَّا

﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا، وألزمناه عهدنا . وقيل : أى إذ قضينا إلى موسى أمرك وذكرناك بخير ذكر . وقال ابن عباس : « إِذْ قَضَيْنَا » أى أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم . ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى من الحاضرين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أى من بعد موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ حتى نسوا ذكر الله أى عهده وأمره . نظيره : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ »[1] . وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا عليه السلام ذكر فى ذلك الوقت ، وأن الله سيبعثه ، ولكن طالت المدّة ، وغلبت القسوة ، فنسىَ القوم ذلك . وقيل : آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود ، ثم تطاول العهد فكفروا ، فأرسلنا محمدا مجدّدا للدين وداعيا الخلق إليه : وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أى مقيما كمقام موسى وشعيب بينهم . قال العجّاج : * فباتَ حيث يدخلُ الثَّوِىُّ *

أى الضيف المقيم . وقوله : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أى تذكرهم بالوعد والوعيد . ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى أرسلناك فى أهل مكة، وآتيناك كتابا فيه هذه الأخبار : ولولا ذلك لما علمتها .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٨ فما بعد .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أى كما لم تحضر جانب المكان الغربى إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين . وروى عمرو بن دينار يرفعه قال : " نودى يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى " فذلك قوله : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » . وقال أبو هريرة — وفى رواية عن ابن عباس — إن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ورحمتكم قبل أن تسترحمونى » قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد وأمته قال : يارب أرنيهم . فقال الله : « إنك لن تدركهم و إن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم » قال : بلى يارب . فقال الله تعالى : « يا أمة محمد» فأجابوا من أصلاب آبائهم . فقال : « قد أجبتكم قبل أن تدعونى » ومعنى الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا . ﴿ وَلَكِنْ ﴾ فعلنا ذلك ﴿ رَحْمَةً ﴾ منّا بكم . قال الأخفش : « رَحْمَةً » نصب على المصدر أى ولكن رحمناك رحمة . وقال الزجاج : هو مفعول من أجله أى فعل ذلك بك لأجل الرحمة . النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء ، ولا تليت عليك ، ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائى : على خبر كان ؛ التقدير : ولكن كان رحمة . قال : ويجوز الرفع بمعنى هى رحمة . الزجاج : الرفع بمعنى ولكن فعل ذلك رحمة . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعنى العرب ؛ أى لم تشاهد تلك الأخبار ، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم ﴾ يريد قريشا . وقيل : اليهود . ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ أى عقوبة ونقمة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصي . وخص الأيدى بالذكر؛ لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها . وجواب « لَوْلَا » محذوف أى لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدمة ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ لما بعثنا الرسل . وقيل : لعاجلناهم بالعقوبة . وبعث الرسل إزاحة لعذر الكفار كما تقدم فى « سبحان »(1) وآخر « طه »(2) . ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ نصب على جواب التحضيض . ﴿ وَنَكُونَ ﴾ عطف عليه . ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من المصدقين . وقد احتج بهذه الآية من قال : إن العقل يوجب الإيمان والشكر؛ لأنه قال : « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » وذلك موجب للعقاب إذ تقرر الوجوب قبل بعثة الرسل ، وإنما يكون ذلك بالعقل . قال القشيرى : والصحيح أن المحذوف لولا كذا لما احتيج إلى تجديد الرسل . أى هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد، ولكن تطاول العهد، فلو عذبناهم فقد يقول قائل منهم طال العهد بالرسل ، ويظن أن ذلك عذر ولا عذر لهم بعد أن بلغهم خبر الرسل، ولكن أكملنا إزاحة العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم . وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة وبعثة الرسل .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى كفار مكة ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ من العصا واليد البيضاء ،

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٢ فما بعد . (2) راجع جـ ١١ ص ٢٦٤ فما بعد .

وأنزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد فقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا ﴾[1] أى موسى ومحمد تعاونا على السحر . قال الكلبي : بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته . فلما رجع الجواب إليهم « قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا » . وقال قوم : إن اليهود علّموا المشركين، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتى موسى، فإنه أوتى التوراة دفعة واحدة . فهذا الاحتجاج وارد على اليهود، أى أو لم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتى موسى حين قالوا فى موسى وهرون هما ساحران و﴿ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ أى وإنا كافرون بكل واحد منهما . وقرأ الكوفيون : « سِحْرَانِ » بغير ألف ؛ أى الإنجيل والقرآن . وقيل : التوراة والفرقان ؛ قاله الفرّاء . وقيل : التوراة والإنجيل . قاله أبو رزين . الباقون « سَاحِرَانِ » بألف . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركى العرب . وبه قال ابن عباس والحسن . الثانى — موسى وهرون . وهذا قول اليهود لهما فى ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد . فيكون الكلام احتجاجا عليهم . وهذا يدلّ على أن المحذوف فى قوله : « لَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ » لما جدّدنا بعثة الرسل ؛ لأن اليهود اعترفوا بالنبوّات ولكنهم حرّفوا وغيّروا واستحقوا العقاب، فقال : قد أكملنا إزاحة عذرهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم . الثالث — عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتى موسى فى التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمدا ساحرين والكتابين سحرين .

قوله تعالى : قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

---

(١) قراءة نافع : « ساحران تظاهرا » وعليها المصنف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ أى قل يا محمد إذ كفرتم معاشر المشركين بهذين الكتابين « فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ » ليكون ذلك عذرا لكم فى الكفر ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى أنهما سحران . أو فأتوا بكتاب هو أهدى من كتابى موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا يقوى قراءة الكوفيين « سِحْرَانِ » . « أَتَّبِعْهُ » قال الفراء : بالرفع؛ لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة . قال : وإذا جزمت — وهو الوجه — فعلى الشرط .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان ، وأنه لا حجة لهم . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ﴾ أى لا أحد أضل منه ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أى أتبعنا بعضه بعضا ، وبعثنا رسولا بعد رسول . وقرأ الحسن : « وَصَلْنَا » مخففا . وقال أبو عبيدة والأخفش : معنى « وصلنا » أتممنا كصلتك الشيء . وقال ابن عُيَيْنة والسدى : بيّنا . وقاله ابن عباس . وقال مجاهد : فصلنا . وكذلك كان يقرؤها . وقال ابن زيد : وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم فى الآخرة فى الدنيا . وقال أهل المعانى : والَيْنا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضه بعضا : وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ونصائح ومواعظ إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض . قال الشاعر :

فقل لبنى مروان ما بال ذِمّةٍ　＊　وحبلٍ ضعيفٍ ما يزال يُوصَّلُ (١)

وقال امرؤ القيس :

دريرٍ كخُذروفِ الوليدِ أَمَرَّهُ　＊　تقلُّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ (٢)

(١) رواية البحر وروح المعانى :　　ما بال ذمتى　＊　بحبل ... ... الخ

(٢) درير : مستدر فى العدو؛ يصف سرعة جرى فرسه . والخذروف شيء يدوّره الصبى فى يده ويسمع له صوت ويسمى الخرارة . وأمره أحكمه .

والضمير فى « لهم » لقريش ؛ عن مجاهد . وقيـل : هو لليهود . وقيل : هو لهم جميعا . والآية رد على من قال هلا أوتى محمد القرآن جملة واحدة . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يتذكرون محمدا فيؤمنوا به . وقيل : يتذكرون فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم ؛ قاله على بن عيسى . وقيل : لعلهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام . حكاه النقاش .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣)

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أخبر أن قوما ممن أوتوا الكتاب من بنى إسرائيل من قبـل القرآن يؤمنون بالقرآن ؛ كعبد الله بن سـلام وسلمان . ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلا ، قدموا مع جعفر بن أبى طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى : منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم المـاوردى . وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتى بعدها « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَـا صَبَرُوا » قاله قتادة . وعنه أيضا : أنها نزلت فى عبد الله بن سَلَام وتميم الدارىّ والجارود العبدىّ وسلمان الفارسىّ ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . وعن رفاعة القرظى[1] : نزلت فى عشرة أنا أحدهم . وقال عروة بن الزبير : نزلت فى النجاشى وأصحابه ووجه باثنى عشر رجلا فجلسـوا مع النبىّ صـلى الله عليه وسـلم ، وكان أبو جهل وأصحابه قريبا منهـم ، فآمنوا بالنبىّ صـلى الله عليه وسلم ، فلما قاموا من عنـده تبعهم أبو جهـل ومن معه ، فقال لهم : خيبكم الله من ركب ، وقبحكم من وفد ، لم تلبثوا أن صدقتموه ، وما رأينا ركبا أحمق منكم ولا أجهـل ؛ فقالوا : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » لم نأل أنفسنا رشدا « لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » وقد تقدّم هذا فى « المـائدة »[2] .

(١) فى ط و جـ و ش : رفاعة بن قرظة . وهو الأشبه . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٥٥ فـا بعد .

عند قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » [(١)] مستوفى . وقال أبو العالية : هؤلاء قوم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم . ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل القرآن . وقيل : من قبل محمد عليه السلام ﴿ هُمْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بمحمد عليه السلام ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ . ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾ أى إذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزوله ، أو من قبل بعثة محمد عليه السلام ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ أى موحدين، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبيّ — صلى الله عليه وسلم — فآمن به واتبعه وصدّقه فله أجران وعبد مملوك أدّى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوّجها فله أجران " قال الشعبي للخراسانى: خذ هذا الحديث بغير شىء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة وخرجه البخارى أيضا . قال علماؤنا : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين ؛ فالكتابى كان مخاطبا من جهة نبيه ، ثم أنه خوطب من جهة نبينا فأجابه واتبعه فله أجر الملتين ، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده ، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياء التربية ، ثم إنه لما أعتقها وتزوّجها أحياها إحياء الحرية التى ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٥ فما بعد .

بما أمر فيها، فأجر كل واحد منهما أجرين . ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه، الحسنة بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور . ولذلك قيل : إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الحر ؛ وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للعبد المملوك المصلح أجران " والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك . قال سعيد بن المسيّب : وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى ماتت أمه لصحبتها . وفي الصحيح أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعمّا للمملوك أن يُتوفَّى بحسن عبادة الله وصحابة سيده نعمّا له " .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ عام في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون . درأت إذا دفعت ، والدرء الدفع . وفي الحديث " ادرءوا الحدود بالشبهات "[1] . قيل : يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى . وقيل : يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب ؛ وعلى الأول فهو وصف لمكارم الأخلاق ؛ أي من قال لهم سوءا لاينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه . فهذه آية مهادنة ، وهي من صدر الإسلام ، وهي مما نسختها آية السيف وبقي حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة . ومنه قوله عليه السلام لمعاذ " وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " ومن الخلق الحسن دفع المكروه والأذى ، والصبر على الجفا بالإعراض عنه ولين الحديث .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع ، وفي ذلك حض على الصدقات . وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة ؛ ثم مدحهم أيضا على إعراضهم عن اللغو ؛ كما قال تعالى : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً »[2] أي إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا

---

(١) في ج و ش « ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » والله أعلم . (٢) راجع ص ٧٩ من هذا الجزء .

عنه؛ أى لم يشتغلوا به ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى متاركة ؛ مثل قوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا[1] » أى لنا ديننا ولكم دينكم . « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أى أمنا لكم منا فإنا لا نحاربكم[2] ، ولا نسابّكم ، وليس من التحية فى شىء . قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال. ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة .

قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت فى أبى طالب .

قلت : والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها نزلت فى شأن أبى طالب عم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو نص [حديث][3] البخارى ومسلم، وقد تقدّم [الكلام فى][4] ذلك فى « براءة[5] » . وقال أبو روق قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ إشارة إلى العباس . وقاله قتادة . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ قال مجاهد : لمن قدّر له أن يهتدى . وقيل : معنى « مَنْ أَحْبَبْتَ » أى من أحببت أن يهتدى . وقال جبير بن مطعم : لم يسمع أحد الوحى يلقى على النبىّ صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر الصدّيق فإنه سمع جبريل وهو يقول : يا محمد اقرأ : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

قوله تعالى : وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾

---

(١) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء . (٢) فى ش : لا نحاوركم . وفى جـ : لا نجاوركم .
(٣) فى جـ و ش . (٤) من ش (٥) راجع جـ ٨ ص ٢٧٢ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ هـذا قول مشركي مكة . قال ابن عبـاس : قائل ذلك من قريش الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبـد مناف القرشي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن قولك حقّ ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك، ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا — يعـنى مكة — لاجتماعهـم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم . وكان هذا من تعللاتهم ؛ فأجاب الله تعالى عما اعتلّ به فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ أى ذا أمن . وذلك أن العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض، و يقتل بعضهم بعضا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمنهم بحرمة البيت ، ومنع عنهـم عدوّهم ، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة فى قتالهم . والتخطف الانتزاع بسرعة ؛ وقد تقدّم . قال يحيي بن سلّام يقول : كنتم آمنين فى حرمى، تأكلون رزقى، وتعبدون غيرى، أفتخافون إذا عبدتمونى وآمنتم بى . ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى يُجمع إليه ثمراتُ كل أرض و بلد؛ عن ابن عباس وغيره . يقال: جبى المـاء فى الحوض أى جمعه . والجابية الحوض العظيم . وقرأ نافع : « تُجْبَى » بالتـاء؛ لأجل الثمرات . الباقون باليـاء ؛ لقوله : « كُلِّ شَيْءٍ » واختاره أبو عبيد . قال : لأنه حال بين الاسم المؤنث و بين فعـله حائل ، وأيضا فإن الثمرات جمع ، وليس بتأنيث حقيقى . ﴿ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عنـدنا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعقلون ؛ أى هم غافلون عن الاستدلال ، وأن من رزقهـم وأمّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ، و يمنـع الكفار عنهـم فى إسلامهم . و « رِزْقًا » نصب على المفعول من أجله . و يجوز نصبه على المصدر بالمعنى؛ لأن معنى: «تُجْبَى» ترزق . وقرئ: « يُجْنَى » بالنون من الجنا، وتعديته بإلى كقولك يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة[1] .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ بيّن لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف فى ترك الإيمـان أكثر ؛ فكم من قوم كفروا ثم حلّ بهم البوار ، والبطر

(١) الخافة العيبة ومنه الحديث " المؤمن كمثل خافة الزرع " .

الطغيان بالنعمة ؛ قاله الزجاج « مَعِيشَتَهَا » أى فى معيشتها فلما حذف (فى) تعدّى الفعل ؛ قاله المازنى[1] . الزجاج كقوله : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا »[2] . الفرّاء : هو منصوب على التفسير . قال كما تقول : أبطرت مالك و بطرته . ونظيره عنده : « إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ »[3] وكذا عنده . « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا »[4] ونصب المعارف على التفسير محال عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير والتميز أن يكون واحدا نكرة يدلّ على الجنس . وقيل : ٱنتصب بـ « بَطِرَتْ » ومعنى : « بَطِرَتْ » جهلت ؛ فالمعنى : جهلت شكر معيشتها . ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى لم تسكن بعد إهلاك أهلها إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب . والٱستثناء يرجع إلى المساكن أى بعضها يسكن ؛ قاله الزجاج . وٱعترض عليه ؛ فقيل : لو كان الٱستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل ؛ لأنك تقول : القوم لم تضرب إلا قليل ؛ ترفع إذا كان المضروب قليلا ، و إذا نصبت كان القليل صفة للضرب ؛ أى لم تضرب إلا ضربا قليلا ، فالمعنى إذًا : فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون ومن مرّ بالطريق يوما أو بعض يوم ، أى لم تُسكن من بعدهم إلا سكونا قليلا . وكذا قال ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافر أو مارّ الطريق يوما أو ساعة . ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أى لما خلّفوا بعد هلاكهم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أى القرى الكافر [أهلها][5] . ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ قرئ بضم الهمزة وكسرها لإتباع الجر يعنى مكة و ﴿رَسُولًا﴾ يعنى محمدا صلى الله

(١) فى ش : قاله الزجاج والمازنى .	(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٢ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٢ .	(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٣ .	(٥) من ش .

عليه وسلم . وقيل : « فِي أُمِّهَا » يعنى فى أعظمها « رَسُولًا » ينذرهم . وقال الحسن : فى أوائلها .

قلت : ومكة أعظم القرى لحرمتها وأولها، لقوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ »[1] وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها ؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهى أمّ ما حولها . وقد مضى هذا المعنى فى آخر سورة « يوسف »[2] . ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ « يَتْلُوا » فى موضع الصفة أى تاليا أى يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا . ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى ﴾ وسقطت النون للإضافة مثل « ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ »[3] . ﴿ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ أى لم أهلكهم إلا وقد ٱستحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم . وفى هذا بيان لعدله وتقدّسه عن الظلم . أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا ٱستحقوا الإهلاك بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم . ونزّه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال عز من قائل : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » فنصّ فى قوله « بِظُلْمٍ » على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما لهم منه ، وأن حاله فى غناه وحكمته منافية للظلم ، دلّ على ذلك بحرف النفى مع لامه كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ »[4] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يأهل مكة ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ أى تتمتعون بها مدّة حياتكم ، أو مدّة فى حياتكم ، فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم . ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى أفضل وأدوم ، يريد الدار الآخرة وهى الجنة . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن الباقى أفضل من الفانى . قرأ أبو عمرو : « يَعْقِلُونَ » بالياء . الباقون بالتاء على الخطاب وهو الاختيار لقوله تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ » . قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ يعنى الجنة وما فيها من الثواب ﴿ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فأعطى منها بعض ما أراد . ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أى فى النار . ونظيره قوله : « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ

---

(١) حم جـ ٤ ص ١٣٧ فما بعد (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٤ ، ١٤٤

(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٤٥ (٤) راجع جـ ٢ ص ١٥٣ فما بعد .

مِنَ الْمُحْضَرِينَ[(1)] » قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب، وفى أبى جهل بن هشام . وقال مجاهد : نزلت فى النبي صلى الله عليه وسلم وأبى جهل . وقال محمد بن كعب . نزلت فى حمزة وعلىّ ، وفى أبى جهل وعمارة بن الوليد . وقيل : فى عمار والوليد بن المغيرة ؛ قاله السدى . قال القشيرى : والصحيح أنها نزلت فى المؤمن والكافر على التعميم . الثعلبى : وبالجملة فإنها نزلت فى كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أى ينادى الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم . ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أى حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء؛ قاله الكلبى . وقال قتادة : هم الشياطين . ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾ أى دعوناهم إلى الغىّ . فقيل لهم : أغويتموهم ؟ قالوا : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ . يعنون أضللناهم كما كنا ضالين . ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تبرأ بعضنا من بعض ، والشياطين يتبرءون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرءون ممن قبل منهم؛ كما قال تعالى : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ[(2)] » .

(1) راجع جـ ١٥ ص ٨١ فما بعد . (2) راجع جـ ١٦ ص ١٠٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ﴾ أى للكفار ﴿ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى ٱستغيثوا بآلهتكم التى عبدتموها فى الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى ٱستغاثوا بهم . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم . ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ قال الزجاج : جواب « لَوْ » محذوف ؛ والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى ، ولما صاروا إلى العذاب . وقيل : أى لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم . وقيل المعنى : ودّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة . ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى يقول الله لهم ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى . ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى خفيت عليهم الحجج ؛ قاله مجاهد؛ لأن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة . و « الْأَنْبَاءُ » الأخبار؛ سمّى حججهم أنباء لأنها أخبار يخبرونها . ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الحجج ؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم؛ قاله الضحاك . وقال ٱبن عباس : «لَا يَتَسَاءَلُونَ» أى لا ينطقون بحجة . وقيل : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » فى تلك الساعة ، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة ، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »[1] . وقال مجاهد : لا يتساءلون بالأنساب . وقيل: لا يسأل بعضهم بعضا أن يحمل من ذنو به شيئا ؛ حكاه ٱبن عيسى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من الشرك ﴿ وَآمَنَ ﴾ أى صدّق ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أدى الفرائض وأكثر من النوافل ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أى من الفائزين بالسعادة . وعسى من الله واجبة .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

(١) راجع ج ٦ ص ٤٠١ .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة ؛ أي الاختيار إلى الله تعالى في الشفعاء لا إلى المشركين . وقيل : هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال : « لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(١) يعني نفسه زعم ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف . وقيل : هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به . قال ابن عباس : والمعنى ؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته . وقال يحيى بن سلّام : والمعنى ؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوّته . وحكى النقاش : أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويختار الأنصار لدينه .

قلت : وفي كتاب البزّار مرفوعا صحيحا عن جابر " إن الله تعالى اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة — يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابي وفي أصحابي كلهم خير واختار أمتي على سائر الأمم واختار لي من أمتي أربعة قرون " . وذكر سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبّه عن أبيه في قوله عز وجل : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » قال : من النعم الضأن ، ومن الطير الحمام . والوقف التام « وَيَخْتَارُ » . وقال عليّ بن سليمان : هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون « ما » في موضع نصب بـ « يَخْتَارُ » لأنها لو كانت في موضع نصب لم يعد عليها شيء . قال وفي هذا رد على القدرية . قال النحاس : التمام « وَيَخْتَارُ » أي ويختار الرسل . ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أي ليس يرسل من اختاروه هم . قال أبو إسحق : « وَيَخْتَارُ » هذا الوقف التام المختار ، ويجوز أن تكون « ما » في موضع نصب بـ « يختار » ويكون المعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرَة . قال القشيري : الصحيح الأول لإطباقهم [على] الوقف على قوله « وَيَخْتَارُ » . قال المهدوي : وهو أشبه بمذهب أهل السنة و « ما » من قوله : « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » نفي عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل . الزمخشري : « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » بيان لقوله : « وَيَخْتَارُ » ؛ لأن معناه يختار ما يشاء ؛ ولهذا لم يدخل العاطف ، والمعنى ؛ إن الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أي ليس لأحد

(١) راجع جـ ١٦ ص ٨٢ فما بعد .

من خلقه أن يختار عليه . وأجاز الزجاج وغيره أن تكون « ما » منصوبة بـ « يَخْتَارُ » . وأنكر الطبري أن تكون « ما » نافية ؛ لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل، ولأنه لم يتقدّم كلام بنفي . قال المهدوي : ولا يلزم ذلك ؛ لأن «ما» تنفي الحال والاستقبال كليس ولذلك عملت عملها ؛ ولأن الآي كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص . وتقدير الآية عند الطبري : ويختار لولايته الخيرة من خلقه ؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » للهداية من خلقه من سبقت له السعادة في علمه، كما آختار المشركون خيار أموالهم لآلهتهم ، فـ « ما » على هذا لمن يعقل وهي بمعنى الذي و « الْخِيَرَةُ » رفع بالابتداء و « لَهُمُ » الخبر والجملة خبر « كان » . وشبهه بقولك : كان زيد أبوه منطلق وفيه ضعف ؛ إذ ليس في الكلام عائد يعود على آسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد . وقد روى معنى ما قاله الطبري عن آبن عباس . قال الثعلبي : و « ما » نفي أي ليس لهم الآختيار على الله . وهذا أصوب كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »[1] . قال محمود الورّاق :

توكّل على الرحمن في كل حاجةٍ * أردت فإن الله يقضي ويقدر

إذا ما يرِدْ ذو العرش أمرا بعبده * يصبْه وما للعبد ما يتخير[2]

وقد يهلك الإنسانُ من وجهِ حِذْره * وينجو بحمد الله من حيث يحذر[3]

وقال آخر :

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ * والدّهرُ ذو دُوَلٍ والرِّزْقُ مقسومُ

والخيرُ أجمعُ فيما آختار خالقُنا * وفي آختيار سواه اللّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء : لا ينبغي لأحد أن يقدُم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك ؛ بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة : « قُلْ يَأَيُّهَا

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٨٦ فما بعد . (٢) في جـ و ط : وما للعبد لا يتخير والتصويب من ش .
(٣) في ش . من وجه أمنه . لعل صواب الشطر : وينجو بحمد الله من ليس يحذر . وهذا ما يفيده معنى التوكل .

ٱلْكَافِرُونَ[١] » وفى الركعة الثانية « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ » . وٱختار بعض المشايخ أن يقرأ فى الركعة الأولى: « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ » الآية ، وفى الركعة الثانية: « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » وكلٌّ حسن . ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلّمنا السورة من القرآن؛ يقول : " إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فاقْدُره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فاصرفه عنى وٱصرفنى عنه وٱقدر لى الخير حيث كان ثم رضّنى به " قال : ويسمى حاجته . وروت عائشة عن أبى بكر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال : " اللهم خِرْ لى وٱختر لى " . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يا أنس إذا هممت بأمر فٱستخر ربك فيه سبع مرات ثم ٱنظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه " . قال العلماء : وينبغى له أن يفرّغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلا إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله . وإن عزم على سفر فيتوخى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين ٱقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم نزه نفسه سبحانه بقوله الحق؛ فقال : ﴿ سُبْحَانَ ٱللَّهِ ﴾ أى تنزيها . ﴿ وَتَعَالَى ﴾ أى تقدّس وتمجد ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون . وقرأ ٱبن محيصن وحميد : « تَكُنُّ » بفتح التاء وضم الكاف . وقد تقدم هذا فى « النمل[٢] » . تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شى ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تقدم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأن جميع المحامد إنما تجب له، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢٥ وص ٢٤٤ . (٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً ﴾ أى دائماً ؛ ومنه قول طرفة .

لعمرُك ما أمرى علىّ بغُمّةٍ * نهارى ولا ليلى علىّ بسَرْمَدِ[(1)]

بين سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه . ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ أى بنور تطلبون فيه المعيشة . وقيل : بنهار تبصرون فيه معايشكم وتصلح فيه الثمار والنبات . ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ سماع فهم وقبول . ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أى تستقرون فيه من النصب . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ما أنتم فيه من الخطإ فى عبادة غيره ؛ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلمَ تشركون به . ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى فيهما . وقيل : الضمير للزمان وهو الليل والنهار . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى لتطلبوا من رزقه فيه أى فى النهار فحذف . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

(١) الغمة : الأمر الذى لا يهتدى له ؛ والمعنى : لا أتحير فى أمرى نهارا وأؤخره ليلا فيطول على الليل

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين، ينادون مرة فيقال لهم : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا يستجيبون ، فتظهر حيرتهم[1] ، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون . وهو توبيخ وزيادة خزى . والمناداة هنا ليست من الله ؟ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[2] » لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكتهم ، ويقيم الحجة[3] عليهم فى مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله ، وقوله : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » حين يقال لهم : « اخْسَئُوا فِيهَا[4] وَلَا تُكَلِّمُونِ » وقال : « شُرَكَائِيَ » لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ أى نبيا ؛ عن مجاهد . وقيل : هم عدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم فى الدنيا . والأول أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا[5] » وشهيد كل أمة رسولها الذى يشهد عليها . والشهيد الحاضر . أى أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم . ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى حجتكم . ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أى علموا صدق ما جاءت به الأنبياء . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أى ذهب عنهم وبطل . ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد .

قوله تعالى : إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

(١) فى ج و ط : فيظهر حزنهم ، وفى ش : خزيهم .　(٢) راجع ج ٢ ص ٢٣٤ .
(٣) فى ج و ط و ش : الحجج　(٤) راجع ج ١٢ ص ١٥٣ .　(٥) راجع ج ٥ ص ١٩٧ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ لما قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا » بين أن قارون أوتيها وآغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون ، ولستم أيها المشركون بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه . قال النّخعيّ وقتادة وغيرهما : كان ابن عم موسى لَحًّا ؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث . وقال آبن إسحق : كان عمّ موسى لأب وأم . وقيل : كان آبن خالته . ولم ينصرف للعجمة والتعريف . وما كان على وزن فاعول أعجميا لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف في المعرفة وآنصرف في النكرة ، فإن حسنت فيه الألف واللام آنصرف إن كان آسما لمذكر نحو طاوس وراقود . قال الزجاج : ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف . ﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ بغيه أنه زاد في طول ثوبه شبرا ؛ قاله شهر بن حوشب . وفي الحديث " لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطرا " وقيل : بغيه كفره بالله عز وجل ؛ قاله الضحاك . وقيل : بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده ؛ قاله قتادة . وقيل : بغيه نسبته ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته ؛ قاله ابن بحر . وقيل : بغيه قوله إذا كانت النبوّة لموسى والمذبح والقربان في هرونَ فما لي ! فروى أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحبورة لهرون ؛ يقرب القربان ويكون رأسا فيهم ، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه ، وجد قارون في نفسه وحسدهما . فقال لموسى : الأمر لكما وليس لي شيء إلى متى أصبر . قال موسى ؛ هذا صنع الله . قال : والله لا أصدقنك حتى تأتي بآية ؛ فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بعصاه ، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيّهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر — وكانت من شجر اللوز — فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . « فَبَغَى عَلَيْهِمْ » من البغي وهو الظلم . وقال يحيى بن سلّام وابن المسيّب : كان قارون غنيا عاملا لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم . وقول سابع : روى عن ابن عباس قال : لما أمر الله

تعالى برجم الزانى عمد قارون إلى آمرأة بغىّ وأعطاها مالا، وحملها على أن آدعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذى فلق البحر لبنى إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت . فتداركها الله فقالت : أشهد أنك برىء، وأن قارون أعطانى مالا ، وحملنى على أن قلت ما قلت ، وأنت الصادق وقارون الكاذب . فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه. فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرض خذيه؛ [يا أرض خذيه][1] وهى تأخذه شيئا فشيئا وهو يستغيث يا موسى ! إلى أن ساخ فى الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه . وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى : آستغاث بك عبادى فلم ترحمهم، أما أنهم لو دعونى لوجدونى قريبا مجيبا. آبن جريج: بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة . وذكر آبن أبى الدنيا فى كتاب الفرج: حدّثنى إبراهيم بن راشد قال حدّثنى داود بن مهران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان آبن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: لقى قارون يونس فى ظلمات البحر، فنادى قارون يونس ، فقال : يا يونس تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه . فقال يونس: ما منعك من التوبة . فقال: إن توبتى جعلت إلى آبن عمى فأبى أن يقبل منى . وفى الخبر : إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل فى الصور . والله أعلم . قال السّدى : وكان آسم البغى سبرتا، وبذل لها قارون ألفى درهم . قتادة : وكان قطع البحر مع موسى[2] وكان يسمى المنوّر من حسن صورته فى التوراة ، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامرى .

قوله تعالى :﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ قال عطاء : أصاب كثيرا من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن مروان: إنه كان يعمل الكيمياء . ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ « إنّ » وآسمها وخبرها فى صلة « ما » و « ما » مفعولة « آتَيْنَا » . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون فى الصلات، إنه لا يجوز أن تكون صلة الذى وأخواته « إن » وما عملت فيه، وفى القرآن « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ » . وهو جمع مِفتح بالكسر وهو ما يفتح

(١) من ب و ط و ش .   (٢) فى ب و ط و ش : مع بنى إسرائيل .

به . ومن قال مفتاح قال مفاتيح . ومن قال هى الخزائن فواحدها مَفتح بالفتح . ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة أى تميلهم بثقلها ، فلما ٱنفتحت التاء دخلت الباء . كما قالوا هو يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤس . فصار « لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ » بحمل العصبة تنوء أى تنهض متثاقلة ؛ كقولك قم بنا أى ٱجعلنا نقوم . يقال : ناء ينوء نوءا إذا نهض بثقل . قال الشاعر(١) :

تنوء بأُخراها فَلأْيًا قِيامُها * وتَمشِى الهُوَينَى عن قريبٍ فتَبْهَرُ

وقال آخر :

أخذتُ فلم أملك ونُؤْتُ فلم أَقُمْ * كأنِّىَ من طول الزمان مقيَّدُ

وأناءنى إذا أثقلنى؛ عن أبى زيد . وقال أبو عبيدة : قوله «لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ» مقلوب، والمعنى لتنوء بها العصبة أى تنهض بها . أبو زيد : نؤت بالحمل إذا نهضت . قال الشاعر :

إنا وجدنا خَلَفا بئس الخَلَف * عبدًا إذا ما ناء بالحمل وقف

والأول معنى قول ٱبن عباس وأبى صالح والسدى . وهو قول الفراء وٱختاره النحاس . كما يقال : ذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأَنَأْتُهُ ؛ فأما قولهم : له عندى ما ساءه وناءه فهو إتباع كان يجب أن يقال وأناءه . ومثله هنأنى الطعام ومرأنى، وأخذه ما قدُم وما حدُث . وقيل : هو مأخوذ من النأى وهو البعد . ومنه قول الشاعر :

يَنْأَوْنَ عنا وما تَنْأَى مودّتُهم * فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا

وقرأ بديل بن ميسرة: « لَيَنُوءُ » بالياء ؛ أى لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى. وقال أبو عبيدة : قلت لرؤبة بن العجاج فى قوله :

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ * كأنّه فى الجِلدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما . فقال: أردت كل ذلك . وٱختلف فى العصبة وهى الجماعة التى يتعصب بعضهم لبعض على أحدعشر قولا : الأوّل — ثلاثة رجال ؛ قاله ٱبن عباس . وعنه أيضا من الثلاثة إلى العشرة .

(١) هو ذو الرمة . يريد تنيئها عجيزتها إلى الأرض لضخامتها وكثرة لحمها فى أردافها .

وقال مجاهد : العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر . وعنه أيضا : ما بين العشرة إلى الخمسة عشر . وعنه أيضا : من عشرة إلى خمسة . ذكر الأول الثعلبي، والثاني القشيري والماوردي ، والثالث المهدوي . وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك : أربعون رجلا . السدّي ما بين العشرة إلى الأربعين . وقاله قتادة أيضا . وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون ، ومنهم من يقول سبعون . وهو قول أبي صالح إن العصبة سبعون رجلا ؛ ذكره الماوردي . والأول ذكره عنه الثعلبي . وقيل : ستون رجلا . وقال سعيد بن جبير : ست أو سبع . وقال عبد الرحمن بن زيد : ما بين الثلاثة والتسعة وهو النفر . وقال الكلبي : عشرة لقول إخوة يوسف « وَنَحْنُ عُصْبَةٌ »[1] وقاله مقاتل . وقال خيثمة : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلا غراء محجلة ، وأنها لتنوء بها من ثقلها ، ما يزيد مفتح منها على إصبع ، لكل مفتح منها كنز مال ، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم . قال مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل . وقيل : من جلود البقر لتخف عليه ، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلا فيما ذكره القشيري . وقيل : على أربعين بغلا . وهو قول الضحاك . وعنه أيضا : إن مفاتحه أوعيته . وكذا قال أبو صالح : إن المراد بالمفاتح الخزائن ؛ فالله أعلم . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ أي المؤمنون من بني إسرائيل ؛ قاله السدّي . وقال يحيى بن سلّام : القوم هنا موسى . وقال الفراء . وهو جمع أريد به واحد كقوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ »[2] وإنما هو نعيم بن مسعود على ما تقدّم . ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ أي لا تأشر ولا تبطر . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي البطرين ؛ قاله مجاهد والسدّي . قال الشاعر :

ولستُ بِمِفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّنِي * ولا ضارعٍ في صرفه المتقلب[3]

وقال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإنّ الفَرِح بالمال لا يؤدّي حقّه[4] . وقال مبشر ابن عبد الله : لا تفرح لا تفسد . قال الشاعر[5] :

إذا أنتَ لم تبرح تؤدّى أمانةً * وتحملُ أخرى أفرحتك الودائعُ

(١) راجع جـ ٩ ص ١٢٩ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٧٩ .
(٣) ويروى : ولا جازع من صرفه المتحوّل .
(٤) كذا في جـ ر ش .
(٥) أنشده أبو عبيدة لبيهس العذرى .

أى أفسدتك . وقال أبو عمرو : أفرحه الدين أثقله . وأنشده : إذا أنت ... البيت . وأفرحه سره فهو مشترك . قال الزجاج : والفرحين والفارحين سواء . وفرّق بينهما الفراء فقال : معنى الفرحين الذين هم فى حال فرح ، والفارحين الذين يفرحون فى المستقبل . وزعم أن مثله طمع وطامع وميّت ومائت . و يدلّ على خلاف ما قال قول الله عز وجل : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »[1] ولم يقل مائت . وقال مجاهد أيضا : معنى « لَا تَفْرَحْ » لا تبغ « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى الباغين . وقال آبن بحر : لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين .

قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أى آطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهى الجنة ؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه فى الآخرة لا فى التجبر والبغى.

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ آختلف فيه ؛ فقال آبن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك فى ألا تعمل عملا صالحا فى دنياك ؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها . فالكلام على هذا التأويل شدّة فى الموعظة . وقال الحسن وقتادة : معناه لا تضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذى يشتهيه . وهذا مما يجب آستعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدّة ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهذان التأويلان قد جمعهما آبن عمر فى قوله : آحرث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، وآعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . وعن الحسن : قدّم الفضل ، وأمسك مايبلغ . وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف . وقيل : أراد بنصيبه الكفن . فهذا وعظ متصل ؛ كأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذى هو الكفن . ونحو هذا قول الشاعر :

نَصيبُك مما تجمعُ الدهرَ كلَّه * رداءان تُلْوَى فيهما وحَنُوط

وقال آخر: وهى القناعة لا تبغى بها بدلا * فيها النعيم وفيها راحة البدن

آنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها * هل راح منها بغير القطن والكفن

قال آبن العربى : وأبدع مافيه عندى قول قتادة : ولا تنس نصيبك الحلال ، فهو نصيبك من الدنيا و ياما أحسن هذا . ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى أطع الله وآعبده كما أنعم عليك.

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٤ .

ومنه الحديث : ما الإحسان ؟ قال : " أن تعبد الله كأنك تراه " وقيل : هو أمر بصلة المساكين . قال ابن العربي : فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله . وقال مالك : الأكل والشرب من غير سرف . قال ابن العربي : أرى مالكا أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء ، ويشرب العسل ، ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع . ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا تعمل بالمعاصي ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ يعني علم التوراة . وكان فيما روى من أقرأ الناس لها، ومن أعلمهم بها . وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات. وقال ابن زيد : أي إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني . فقوله : « عِندِي » معناه إن عندي أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل فيّ . وقيل : أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب؛ قاله علي بن عيسى . ولم يعلم أن الله لو لم يسهل له اكتسابها لما اجتمعت عنده . وقال ابن عباس : على علم عندي بصنعة الذهب . وأشار إلى علم الكيمياء . وحكى النقاش : أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيمياء ، ويوشع الثلث، وهرون الثلث، فخدعهما قارون — وكان على إيمانه — حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء ، فكثرت أمواله . وقيل : إن موسى علم الكيمياء ثلاثة ؛ يوشع بن نون ، [وكالب[1] بن يوفنا] ، وقارون، واختار الزجاج القول الأول ، وأنكر قول من قال إنه يعمل الكيمياء . قال : لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له . وقيل : إن موسى علّم أخته علم الكيمياء، وكانت زوجة قارون، وعلمت أخت موسى قارون؛ والله أعلم .

---

(١) في الأصول « طالوت » وهو تحريف . والتصويب من كتب التفسير .

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى بالعذاب . ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أى الأمم الخالية الكافرة . ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أى للمال ، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم . وقيل : القوة الآلات ، والجمع الأعوان والأنصار ، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أى « أَوَ لَمْ يَعْلَمْ » قارون « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ » . ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى لا يسألون سؤال استعتاب كما قال : « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ »[1] « فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ »[2] وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »[3] قاله الحسن . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين ؛ فإنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب . وقيل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا فى الدنيا . وقيل : أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسئلتهم عن ذنوبهم .

قوله تعالى : فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ أى على بنى إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمل فى يوم عيد . قال الغزنوى : فى يوم السبت . « فِي زِينَتِهِ » أى مع زينته . قال الشاعر :

إذا ما قلوبُ القومِ طارت مخافةً * من الموت أرسوا بالنفوس المواجدُ[4]

أى مع النفوس . كان خرج فى سبعين ألفا من تَبَعه ، عليهم المعصفَرات ، وكان أول من صُبغ له الثياب المعصفَرة . قال السدى : مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٧٧ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥١ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٥٩ .
(٤) فى ا : أرموا بالنفوس . وفى جـ : أرسوا بالنفوس النواجذ . ولم نعثر عليه .

ذهب على قُطُف الأُرْجُوان . قال ابن عباس : خرج على البغال الشهب . مجاهد : على براذين بيض عليها سروج الأُرْجُوان ، وعليهم المعصفَرات ، وكان ذلك أول يوم رؤى فيه المعصفَر . قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغل أبيض عليها قُطُف حمر . قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأُرْجُوان ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر . وقال ابن زيد : خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفَرات . الكلبي : خرج فى ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون . وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنه : كانت زينته القِرْمِز .

قلت : القِرْمِز صِبغ أحمر مثل الأُرْجُوان ، والأُرْجُوان فى اللغة صِبغ أحمر ؛ ذكره القشيرى . ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الدنيا . ثم قيل : هذا من قول مؤمنى ذلك الوقت ، تمنوا مثل ماله رغبة فى الدنيا . وقيل : هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها ، وهم الكفار .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم أحبار بنى إسرائيل للذين تمنوا مكانه ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ يعنى الجنة . ﴿ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى لا يؤتى الأعمال الصالحة ، أو لا يؤتى الجنة فى الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله . وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله : « ثَوَابُ اللَّهِ » .

قوله تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ قال مقاتل : لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله ؛ لأنه كان ابن عمه ، أخى أبيه ، فخسف

الله تعالى به و بداره الأرض و بجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى إنى لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبدا . يقال : خَسَفَ المكانُ يخسِف خُسوفا ذهب فى الأرض وخَسَف الله به الأرض خَسْفا أى غاب به فيها . ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وخَسَف هو فى الأرض وخُسِف به . وخسوف القمر كسوفه . قال ثعلب : كَسفتِ الشمسُ وخَسَفَ القمرُ ، هذا أجود الكلام . والخسف النقصان ، يقال : رضى فلان بالخسف أى بالنقيصة . ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ ﴾ أى جماعة وعصابة. ﴿ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ لنفسه أى الممتنعين فيما نزل به من الخسف. فيروى أن قارون يَسفُل كل يوم بقدر قامة، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرافيل فى الصور، وقد تقدّم، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أى صاروا يتندمون على ذلك التمنى و ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ ﴾ [وى] حرف تندم . قال النحاس : أحسن ما قيل فى هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائى إن القوم تَنبّهوا أو نُبِّهوا، فقالوا وَىْ، والمتندم من العرب يقول فى خلال تندّمه وَىْ . قال الجوهرى : وَىْ . كلمة تعجب، ويقال : وَيْكَ ووَىْ لعبد الله . وقد تدخل وَىْ على كأن المخففة والمشدّدة تقول : ويكأن الله . قال الخليل : هى مفصولة، تقول: «وَىْ» ثم تبتدئ فتقول : « كَأَنّ » . قال الثعلبى: وقال الفرّاء هى كلمة تقرير، كقولك : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه، وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين ابنكَ وَيْك ؟ فقال : وَىْ كأنّه وراء البيت ، أى أما ترينه . وقال ابن عباس والحسن : ويك كلمة ابتداء وتحقيق تقديره : إن الله يبسط الرزق . وقيل : هو تنبيه بمنزلة ألا فى قولك ألا تفعل وأمّا فى قولك أما بعد . قال الشاعر[(١)] :

سالتَانِى الطــلاقَ إذ رأَتَانِى * قــلَّ مالِى قد جِئتُمانِى بِنُكْرِ
وَىْ كَأَنْ مَنْ يَكُنْ له نَشَبٌ يُحْبَـ * ـبْ ومَنْ يَفتقرْ يعش عيشَ ضُرِّ

(١) هو زيد بن عمرو بن نفيل .

وقال قُطْرُب : إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى وَىْ . قال عنترة :

ولقد شفَى نفسي وأبرأ سُقْمَها * قَوْلُ الفوارس وَيْكَ عنترَ أَقْدِمِ

وأنكره النحاس وغيره، وقالوا : إن المعنى لا يصح عليه ؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحدا فيقولوا له ويلك ، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر . وأيضا فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز . وقال بعضهم: التقدير ويلك اعلم أنه ؛ فأضمر اعلم. ابن الأعرابي : « وَيْكَأَنَّ اللهَ » أي اعلم. وقيل : معناه ألم تر أن الله . وقال القتبي : معناه رحمة لك بلغة حِمْير . وقال الكسائي : وَىْ فيه معنى التعجب . ويروى عنه أيضا الوقف على وَىْ وقال كلمة تفجّع . ومن قال : ويك فوقف على الكاف فمعناه أعجب لأن الله يبسط الرزق وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون . وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب لا اسما؛ لأنّ وَىْ ليست مما يضاف . وإنما كتبت متصلة ؛ لأنها لما كثر استعمالها جعلت مع ما بعدها كشيء واحد . ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ . وقرأ الأعمش: « لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا » . وقرأ حفص: « لَخَسَفَ بِنَا » مسمّى الفاعل. الباقون: على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبي عبيد . وفي حرف عبد الله « لَانْخُسِفَ بِنَا » كما تقول انطلق بنا . وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرِّف . واختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين : أحدهما قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » . والثاني قوله : « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا » فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى . ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ عند الله .

قوله تعالى : تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ يعنى الجنة . وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها . يعنى تلك التى سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى رفعة وتكبرا على الإيمان والمؤمنين ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ عملا بالمعاصى . قاله آبن جريج ومقاتل . وقال عِكْرمة ومسلم البَطين : الفساد أخذ المال بغير حق . وقال الكلبى الدعاء إلى غير عبادة الله . وقال يحيى بن سلام: هو قتل الأنبياء والمؤمنين . ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قال الضحاك : الجنة . وقال أبو معاوية : الذى لا يريد علوا هو من لم يجزع من ذلّها ، ولم ينافس فى عزها ، وأرفعهم عند الله أشدّهم تواضعا ، وأعزّهم غدا ألزمهم لذلّ اليوم . وروى سفيان بن عُيَيْنة عن إسمعيل بن أبى خالد قال : مرّ علىّ بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كِسَرا لهم ، فسلّم عليهم فدعوه إلى طعامهم ، فتلا هذه الآية « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا » ثم نزل وأكل معهم . ثم قال : قد أجبتكم فأجيبونى . فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم . خرّجه أبو القاسم الطبرانى سليمان بن أحمد قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال حدّثنى أبى ، قال حدّثنا سفيان بن عُيَيْنة . فذكره . وقيل : لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب . والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من آتقى ، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له ؛ لأنها تضره ولا تنفعه .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ تقدّم فى « النمل »[1] . وقال عكرمة : ليس شىء خيرا من لا إله إلا الله . وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير . ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أى بالشرك ﴿ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى يعاقب بما يليق بعمله .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا

(١) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء فما بعد .

لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ ختم السورة ببشارة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بردّه إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنّة . والأوّل أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله وآبن عباس ومجاهد وغيرهم . قال القتبي : معاد الرجل بلده ؛ لأنه ينصرف ثم يعود . وقال مقاتل : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من الغار ليلا مهاجرا إلى المدينة فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة فآشتاق إليها ، فقال له جبريل إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » أى إلى مكة ظاهرا عليها . قال آبن عباس : نزلت هذه الآية بالجُحْفة ليست مكية ولا مدنية . وروى سعيد بن جبير عن آبن عباس « إلى مَعَادٍ » قال : إلى الموت . وعن مجاهد أيضا وعكرمة والزهرى والحسن : إن المعنى لرادّك إلى يوم القيامة ؛ وهو آختيار الزجاج . يقال : بينى وبينك المعاد ؛ أى يوم القيامة ؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء و « فَرَضَ » معناه أنزل . وعن مجاهد أيضا وأبى مالك وأبى صالح : « إِلَى مَعَادٍ » إلى الجنة . وهو قول أبى سعيد الخدرى وآبن عباس أيضا ؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء . وقيل : لأن أباه آدم خرج منها . ﴿ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ ﴾ أى قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفى ضلال مبين ﴿ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أنا أم أنتم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أى ما علمت أننا نرسلك إلى الخلق وننزل عليك القرآن . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال الكسائى : هو آستثناء منقطع بمعنى لكن . ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى عونا لهم ومساعدا . وقد تقدّم فى هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ يعنى أقوالهم وكذبهم وأذاهم ، ولا تلتفت نحوهم وآمض لأمرك وشأنك . وقرأ يعقوب : «يَصُدُّنْكَ» مجزوم النون . وقرئ : « يُصِدُّنَّكَ » من أصدّه بمعنى صدّه وهى لغة فى كلب . قال الشاعر[1] :

أُنَاسٌ أصدوا النّاسَ بالسيفِ عنهم * صُدُودَ السَّوَاقِي عن أنوفِ الحَوَائِمِ[2]

﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى التوحيد . وهذا يتضمن المهادنة والموادعة . وهذا كله منسوخ بآية السيف . وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تعظيم أوثانهم ، وعند ذلك ألقى الشيطان فى أمنيته أمر الغرانيق على ما تقدّم[3] . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أى لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو . نفى لكل معبود و إثبات لعبادته . ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ قال مجاهد : معناه إلا هو . وقال الصادق : دينه . وقال أبو العالية وسفيان : أى إلا ما أريد به وجهه ؛ أى ما يقصد إليه بالقربة . قال :

أستغفرُ اللهَ ذنبًا لستُ مُحْصِيَه * ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ

وقال محمد بن يزيد : حدّثنى الثورى قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » فقال : إلا جاهه ، كما تقول لفلان وجه فى الناس أى جاه . ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ فى الأولى والآخرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . قال الزجاج : « وَجْهَهُ » منصوب على الاستثناء ، ولو كان فى غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع ، بمعنى كل شىء غير وجهه هالك كما قال[4] :

وكلُّ أخٍ مُفارِقُهُ أخوه * لَعَمْرُ أبيكَ إلّا الفرقدانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه . « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » بمعنى ترجعون إليه .

تمت سورة القصص والحمد لله

---

(١) هو ذو الرمة . (٢) ويروى : بالضرب ... من أنوف المحارم .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٧٩ .

(٤) هو عمرو بن معدى كرب ، ويروى لسوار بن المضرب . (شواهد سيبويه) .

سورة العنكبوت

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية كلها فى أحد قولى ٱبن عباس وقتادة . وفى القول الآخر لهما وهو قول يحيي بن سلّام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن مَن كان من المسلمين بمكة . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نزلت بين مكة والمدينة . وهى تسع وستون آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ تقدّم القول فى أوائل السور . وقال ٱبن عباس : المعنى أنا الله أعلم . وقيل : هو ٱسم للسورة . وقيل ٱسم للقرآن . « أَحَسِبَ » ٱستفهام أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه الظن . « أَنْ يُتْرَكُوا » فى موضع نصب بـ « حَسِبَ » وهى وصلتها مقام المفعولين على قول سيبويه . و « أن » الثانية من « أَنْ يَقُولُوا » فى موضع نصب على إحدى جهتين ، بمعنى لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا . والجهة الأخرى أن يكون على التكرير؛ والتقدير « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » أَحَسِبُوا «أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» قال ٱبن عباس وغيره : يريد بالناس قوما من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وعمّار بن ياسر وياسر أبوه وسُميّة أمه وعدة من بنى مخزوم وغيرهم . فكانت صدورهم تضيق لذلك ، وربما ٱستنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين ؛ قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده ٱختبارا للؤمنين وفتنة . قال ٱبن عطية : وهذه الآية وإن كانت

نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، موجود حكمها بقية الدهر. وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية فى ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. و إذا آعتبر أيضا كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التى تشبه نازلة المسلمين مع قريش هى ما ذكرناه من أمر العدو فى كل ثغر.

قلت: ما أحسن ماقاله، ولقد صدق فيما قال رضى الله عنه. وقال مقاتل: نزلت فى مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل من المسلمين يوم بَدْر؛ رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ: "سيد الشهداء مِهْجَع وهو أول من يُدْعى إلى باب الجنة من هذه الأمة". فجزع عليه أبواه وآمرأته فنزلت: «الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا». وقال الشعبي: نزل مفتتح هذه السورة فى أناس كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تهاجروا، فخرجوا فاتبعهم المشركون فآذوهم. فنزلت فيهم هذه الآية: «الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا» فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا؛ فقالوا: نخرج و إن آتبعنا أحد قاتلناه؛ فآتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل فيهم: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا»(1). «وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» يمتحنون؛ أى أظنّ الذين جزعوا من أذى المشركين أن يُقنَع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون فى إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبيّن به حقيقة إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى آبتلينا الماضين كالخليل ألقى فى النار، وكقوم نشروا بالمناشير فى دين الله فلم يرجعوا عنه. وروى البخارى عن خَبّاب بن الأَرَتّ: قالوا شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا. فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمِنْشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمَشط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه فما يصرفه ذلك عن دينه والله ليتمنّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون". وخرج ابن ماجه عن

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٩٢.

أبي سعيد الخدري قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك ، فوضعت يدي عليه ، فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ما أشدّها عليك . قال : " إنا كذلك يُضعّف لنا البلاء ويُضعّف لنا الأجر " قلت : يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء ؟ قال " الأنبياء " وقلت : ثم من . قال " ثم الصالحون أنْ كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يَحُوبها (١) وأنْ كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرحُ أحدكم بالرخاء " . وروى سعد بن أبي وقاص قال : قلت يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء ؟ قال : " الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صُلْبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة " . وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوما فأخذه السبع فأكله ، فقال عيسى : يارب وزيري في دينك ، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم، سلطت عليه كلبا فأكله . قال : « نعم كانت له عندي منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة » . وقال وهب : قرأت في كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عينا ، فإنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين ، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فابك على نفسك ، فقد خولف بك عن سبيلهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي فليرُيَنَّ الله الذين صدقوا في إيمانهم . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » (٢) وغيرها . قال الزجاج : ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه ، وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما ، ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازى عليه . وإنما يعلم صدق الصادق واقعا كائنا وقوعه، وقد علم أنه سيقع . وقال النحاس: فيه قولان — أحدهما — أن يكون « صَدَقُوا » مشتقا من الصِّدْق و « الْكَاذِبِينَ » مشتقا من الكَذِب الذي هو ضد الصِّدق ، ويكون المعنى ؛ فليبينن الله الذى صدقوا فقالوا نحن مؤمنون

(١) وردت هذه الكلمة في سنن ابن ماجه بالحاء المهملة ، وقال هامشه : « يحوبها » من حبي بحاء مهملة وباء موحدة أي يجعل لها جيبا . ووردت في الجامع الصغير للسيوطي بالجيم وقال شارحه : هي بجيم وواو وموحدة أي يخرقها ويقطعها . وكل شيء قطع وسطه فهو مجوب . ورواية الجامع الصغير هي المتبادرة . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٤٣ .

وآعتقدوا مثل ذلك، والذين كذبوا حين آعتقدوا غير ذلك. والقول الآخر — أن يكون صدقوا مشتقا من الصَّدق وهو الصُّلب، والكاذبين مشتقا من كَذَّب إذا آنهزم؛ فيكون المعنى؛ فليعلمن الله الذين ثبتوا فى الحرب، والذين آنهزموا؛ كما قال الشاعر[1] :

لَيثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا * ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقَا

بجمل « لَيَعْلَمَنَّ » فى موضع فليبينن مجازا . وقراءة الجماعة : « فَلَيَعْلَمَنَّ » بفتح الياء واللام. وقرأ على بن أبى طالب بضم الياء وكسر اللام وهى تبين معنى ما قاله النحاس . و يحتمل ثلاثة معان : الأول — أن يعلم فى الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه و بأعمالهم فى الدنيا؛ بمعنى يوقفهم على ما كان منهم . الثانى — أن يكون المفعول الأول محذوفا تقديره؛ فليعلمنّ الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين، أى يفضحهم و يشهرهم؛ هؤلاء فى الخير وهؤلاء فى الشر، وذلك فى الدنيا والآخرة : الثالث — أن يكون ذلك من العلامة؛ أى يضع لكل طائفة علامة يشتهر بها . فالآية على هذا تنظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من أسر سريرة ألبسه الله رداءها "

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ج سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ ج وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ج إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أى الشرك ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أى يفوتونا و يعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون . قال آبن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وحنظلة ابن أبى سفيان والعاص بن وائل . ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى بئس الحكم ما حكموا فى صفات

(١) هو زهير بن أبى سلمى . وعثر بشد المثلثة آسم موضع .

ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء . و « ما » فى موضع نصب بمعنى ساء شيئا أوحكما يحكمون . ويجوز أن تكون « ما » فى موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم . وهذا قول الزجاج . وقدرها ابن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك : أحدهما — أن يكون موضع « مَا يَحْكُمُونَ » بمنزلة شيء واحد ، كما تقول : أعجبنى ما صنعت ؛ أى صنيعك ؛ فـ « ما » والفعل مصدر فى موضع رفع ، التقدير ؛ ساء حكمهم . والتقدير الآخر أن تكون « ما » لا موضع لها من الإعراب ، وقد قامت مقام الاسم لساء ، وكذلك نعم وبئس . قال أبو الحسن ابن كيسان : وأنا أختار أن أجعل لـ « ما » موضعا فى كل ما أقدر عليه ؛ نحو قوله عز وجل : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ »[1] وكذا « فَبِمَا نَقْضِهِمْ »[2] وكذا « أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ »[3] « ما » فى موضع خفض فى هذا كله وما بعده تابع لها ، وكذا ؛ « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً »[4] « ما » فى موضع نصب و « بَعُوضَةً » تابع لها .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ « يَرْجُو » بمعنى يخاف من قول الهذلى فى وصف عسّال :

* إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحلُ لم يَرْجُ لسعَها[5] *

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى : من كان يخاف الموت فليعمل عملا صالحا فإنه لا بدّ أن يأتيه ؛ ذكره النحاس . قال الزجاج : معنى « يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ » ثواب الله و « من » فى موضع رفع بالابتداء و « كَانَ » فى موضع الخبر ، وهى فى موضع جزم بالشرط ، و « يَرْجُو » فى موضع خبر كان ، والمجازاة ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى ومن جاهد فى الدّين ، وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات ، فإنما يسعى لنفسه ؛ أى ثواب ذلك كله له ؛ ولا يرجع إلى الله نفع من ذلك . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى عن أعمالهم . وقيل : المعنى ؛ من جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله فليس لله حاجة بجهاده .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ . (٢) راجع جـ ٦ ص ١١٤ .
(٣) راجع ص ٢٧٩ من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٤١ .
(٥) تمام البيت : * وحالفها فى بيت نوب عوامل * وروى : عواسل .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بأحسن أعمالهم وهو الطاعات . ثم قيل : يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها فى الشرك ، ويثابوا على ما عملوا من حسنة فى الإسلام . ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم فى الكفر والإسلام ، ويثابوا على حسناتهم فى الكفر والإسلام .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ نزلت فى سعد بن أبى وقاص فيما روى الترمذى قال : أنزلت فىَّ أربعُ آيات فذكر قصةً ، فقالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر ! والله لا أطعم طعاما، ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر؛ قال : فكانوا إذا أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا[1] فاها فنزلت هذه الآية . « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن سعد أنه قال : كنت بارًّا بأمى فأسلمتُ ، فقالت : لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بى ، ويقال يا قاتل أمه ، وبقيت يوما ويوما فقلت : يا أماه ! لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا، فإن شئت فكلى، وإن شئت فلا تأكلى، فلما رأت ذلك أكلت ونزلت : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾ الآية . وقال ابن عباس : نزلت فى عيَّاش ابن أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك . وعنه أيضا : نزلت فى جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق . و « حُسْنًا » نصب عند البصريين على التكرير أى ووصيناه حسنا . وقيل : هو على القطع تقديره، ووصيناه بالحسن كما تقول وصيته خيرا أى

---

(١) شجروا فاها : أى أدخلوا فى شجره عودا حتى يفتحوه به .

بالخير . وقال أهل الكوفة : تقديره ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا فيقدر له فعل .
وقال الشاعر :

عَجِبتُ من دَهْماء إذ تَشكونَا * ومن أبي دَهْماءَ إذ يُوصينَا

* خيرًا بها كأنّما خافونا *

أى يوصينا أن نفعل بها خيرا ؛ كقوله : « فَطَفِقَ مَسْحًا »[1] أى يمسح مسحا . وقيل : تقديره ووصيناه أمرا ذا حسن ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل : معناه ألزمناه حسنا . وقراءة العامة : « حُسْناً » بضم الحاء وإسكان السين . وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك : بفتح الحاء والسين . وقرأ الجحدرى : « إحسَانًا » على المصدر ، وكذلك فى مصحف أُبَىّ ، التقدير : ووصينا الإنسان أن يحسن إليهما إحسانا ، ولا ينتصب بوصينا ؛ لأنه قد آستوفى مفعوليه . ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ وعيد فى طاعة الوالدين فى معنى الكفر . ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم . وقوله : « لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » مبالغة على معنى ؛ فالذين هم فى نهاية الصلاح وأبعد غاياته . وإذا تحصل للؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ الآية نزلت فى المنافقين كانوا يقولون آمنا بالله ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ﴾ أى أذاهم ﴿ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ فى الآخرة فآرتد عن إيمانه . وقيل : جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية فى الله .

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٩٢ فما بعد .

﴿وَلَئِنْ جَاءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون؛ فقال الله لهم : ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ يعنى الله أعلم بما فى صدورهم منهم بأنفسهم . وقال مجاهد : نزلت فى ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة فى أنفسهم آفتتنوا . وقال الضحاك : نزلت فى ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، إذا أوذوا رجعوا إلى الشرك . وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر فقتل بعضهم، فأنزل الله : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ[1] » فكتب بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة ، فخرجوا فلحقهم المشركون، فآفتتن بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم . وقيل : نزلت فى عيّاش بن أبى ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذى وضرب فارتد . وإنما عذبه أبو جهل والحرث وكانا أخويه لأمه . قال ابن عباس : ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه . ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال قتادة : نزلت فى القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أى ديننا . ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ جزم على الأمر . قال الفراء والزجاج : هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء؛ أى إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، كما قال[2] :

فقلتُ آدعى وأَدعُ فإنّ أندَى ☆ لِصوتٍ أن يُنادِىَ داعِيانِ

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤٥ .

(٢) البيت لدثار بن شيبان النمرى وقبله :

تقول خليلتى لما اشتكينا ☆ سيدركنا بنو القرم الهجان

أى إن دعوتِ دعوتُ . قال المهدوى : وجاء وقوع ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ بعده على الحمل على المعنى ؛ لأن المعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم . فلما كان الأمر يرجع فى المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر . قال مجاهد : قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث ، فإن كان عليكم وزر فعلينا ؛ أى نحن نحمل عنكم ما يلزمكم . والحمل ههنا بمعنى الحمالة لا الحمل على الظهر . وروى أن قائل ذلك الوليد بن المغيرة . ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ يعنى ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم . روى معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم فى « آل عمران »[1] . قال أبو أمامة الباهلى : "يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يقتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب فيقول الله عز وجل اقتصوا من عبدى فتقول الملائكة ما بقيت له حسنات فيقول خذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » . وقال قتادة : من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شىء . ونظيره قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ »[2] . ونظير هذا قوله عليه السلام : "من سنّ فى الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء " روى من حديث أبى هريرة وغيره . وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من دعا إلى هدى فاتُّبِع عليه وعمل به فله مثل أجور من اتّبعه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئا وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبِع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن اتّبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا " ثم قرأ الحسن : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » .

قلت : هذا مرسل وهو معنى حديث أبى هريرة خرجه مسلم . ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبِع فإن له مثلَ أوزار من اتّبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئا وأيما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبِع فإن له مثل أجور من اتّبعه

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٥٧ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٩٦ .

ولا ينقص من أجورهم شيئا" خرجه ابن ماجه فى السنن . وفى الباب عن أبى جُحَيفة وجرير .
وقد قيل : إن المراد أعوان الظلمة . وقيل : أصحاب البدع إذا اتُّبِعوا عليها . وقيل :
محدثو السنن الحادثة إذا عمل بها من بعدهم . والمعنى متقارب والحديث يجمع ذلك كله .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾
ذكر قصة نوح تسلية لنبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ أى ابتلى النبيون قبلك بالكفار فصبروا .
وخصّ نوحا بالذكر؛ لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض وقد امتلأت كفرا على ما تقدّم
بيانه فى « هود »[1] . وأنه لم يلق نبيّ من قومه ما لقى نوح على ما تقدّم فى « هود » عن الحسن .
وروى عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أوّل نبيّ أرسل نوح " قال
قتادة : وبعث من الجزيرة . واختلف فى مبلغ عمره . فقيل : مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى
فى كتابه . قال قتادة : لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ، ودعاهم ثلثمائة سنة ، ولبث
بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة . وقال ابن عباس : بعث نوح لأربعين سنة ، ولبث فى قومه
ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الغرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا . وعنه أيضا :
أنه بعث وهو ابن مئتين وخمسين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين ، وعاش بعد
الطوفان مائتى سنة . وقال وهب : عمّر نوحٌ ألفا وأربعمائة سنة . وقال كعب الأحبار : لبث
نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان سبعين عاما فكان مبلغ عمره
ألف سنة وعشرين عاما . وقال عون بن أبى شداد : بعث نوح وهو ابن خمسين
وثلاثمائة سنة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ثلثمائة سنة

(١) راجع جـ ٩ ص ٤٢ فما بعد .

وخمسين سنة ؛ فكان مبلغ عمره ألف سنة وسمائة سنة وخمسين سنة ونحوه عن الحسن . قال الحسن : لما أتى ملك الموت نوحا ليقبض روحه قال : يانوح كم عشت فى الدنيا؟ قال : ثلثمائة قبل أن أبعث، وألف سنة إلا خمسين عاما فى قومى، وثلثمائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان . قال ملك الموت : فكيف وجدت الدنيا ؟ قال نوح : مثل دار لها بابان دخلت من هذا وخرجت من هذا . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما بعث الله نوحا إلى قومه بعثه وهو آبن خمسين ومائتى سنة فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وبقى بعد الطوفان خمسين ومائتى سنة فلما أتاه ملك الموت قال يانوح يا أكبر الأنبياء وياطويل العمر ويامجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا قال مثل رجل بنى له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر" وقد قيل: دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر. وقال آبن الوردى : بنَى نوح بيتا من قصب، فقيل له : لو بنيت غير هذا، فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال أبو المهاجر: لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فى بيت من شعر ، فقيل له : يانبئ الله آبن بيتا، فقال : أموت اليوم [أو] أموت غدا . وقال وهب بن منبّه: مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلا من الموت . وقال مقاتل وجويبر : إن آدم عليه السلام حين كبر ورقّ عظمه قال يارب إلى متى أكدّ وأسعى ؟ قال يا آدم حتى يولد لك ولد مختون . فولد له نوح بعد عشرة أبطن ، وهو يومئذ آبن ألف سنة إلا ستين عاما . وقال بعضهم : إلا أربعين عاما . والله أعلم . فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم . وكان آسم نوح السكن . وإنما سمى السكن؛ لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه ، فهو أبوهم . وولد له سام وحام ويافث ، فولد سام العرب وفارس والروم، وفى كل هؤلاء خير. وولد حام القبط والسودان والبربر. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج. وليس فى شىء من هؤلاء خير. وقال آبن عباس : فى ولد سام بياض وأدمة، وفى ولد حام سواد وبياض قليل . وفى ولد يافث — وهم الترك والصقالبة — الصفرة والحمرة . وكان له ولد رابع وهو كنعان الذى غرق، والعرب تسميه يام . وسمى نوح نوحا لأنه ناح على قومه ألف سنة

إلا خمسين عاما، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناح عليهم. وذكر القشيرى أبو القاسم عبد الكريم فى كتاب التخبير له : يروى أن نوحا عليه السلام كان اسمه يشكر ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه يانوح كم تنوح . فسمى نوحا؛ فقيل: يارسول الله فأى شىء كانت خطيئته ؟ فقال : " إنه مر بكلب فقال فى نفسه ما أقبحه فأوحى الله إليه اخلق أنت أحسن من هذا . وقال يزيد الرقاشى : إنما سمى نوحا لطول ما ناح على نفسه . فإن قيل: فلم قال: «أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما. ففيه جوابان: أحدهما — أن المقصود به تكثير العدد، فكان ذكره الألف أكثر فى اللفظ وأكثر فى العدد . الثانى — ماروى أنه أعطى من العمر ألف سنة، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده، فلما حضرته الوفاة رجع فى استكمال الألف، فذكر الله تعالى ذلك تنبيها على أن النقيصة كانت من جهته. ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة : المطر . الضحاك : الغرق . وقيل : الموت. روته عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم. ومنه قول الشاعر:

* أفناهم طوفانُ موتٍ جارف *

قال النحاس: يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال و « أَلْفَ سَنَةٍ » منصوب على الظرف « إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » منصوب على الاستثناء من الموجب . وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول ؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول . فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض . كأنك قلت استثنيت زيدا .

تنبيه — روى حسان بن غالب بن نجيح أبو القاسم المصرى، حدثنا مالك بن أنس عن الزهرى عن ابن المسيّب عن أُبىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان جبريل يذاكرنى فضل عمر فقلت ياجبريل ما بلغ فضل عمر قال لى يا محمد لو لبثتُ معك ما لبث نوح فى قومه ما بلغت لك فضل عمر " ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادى . وقال تفرد بروايته حسان بن غالب عن مالك وليس بثابت من حديثه .

قوله تعالى :﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ معطوف على الهاء. ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الهاء والألف فى « جَعَلْنَاهَا » للسفينة، أو للعقوبة ، أو للنجاة ؛ ثلاثة أقوال .

قوله تعالى : وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال الكسائي : « وَإِبْرَاهِيمَ » منصوب بـ « فَأَنْجَيْنَا » يعني أنه معطوف على الهاء . وأجاز الكسائي أن يكون معطوفا على نوح ، والمعنى وأرسلنا إبراهيم . وقول ثالث : أن يكون منصوبا بمعنى وآذكر إبراهيم . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ﴾ أي أفردوه بالعبادة . ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي آتقوا عقابه وعذابه . ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي من عبادة الأوثان ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَانًا ﴾ أي أصناما . قال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو من فضة أو نحاس ، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة . الجوهري : الوثن الصنم والجمع وُثْن وأوثانٌ مثل أُسد وآساد . ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ قال الحسن : معنى « تَخْلُقُونَ » تنحتون ؛ فالمعنى إنما تعبدون أوثانا وأنتم تصنعونها . وقال مجاهد : الإفك الكذب ، والمعنى تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب . وقرأ أبو عبد الرحمن : « وَتَخَلَّقُونَ » . وقرئ : « تُخَلِّقُونَ » بمعنى التكثير من خَلَّق و « تَخَلَّقُونَ » من تَخَلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرّص . وقرئ : « أَفِكًا » وفيه وجهان : أن يكون مصدرا نحو كَذِب ولعِب والإفك مخففا منه كالكذب واللعب . وأن يكون صفة على فَعِل أي خلقا أَفِكا أي ذا إفك و باطل . و « أَوْثَانًا » نصب بـ « تَعْبُدُونَ » و « ما » كافة . ويجوز في غير القرآن رفع أوثانٍ على أن تجعل « ما » آسما لأن ؛ و « تَعْبُدُونَ » صلته ، وحذفت الهاء لطول الآسم وجعل أوثان خبر إن . فأما « وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » فهو منصوب بالفعل لا غير . وكذا ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِند

اللهِ الرِّزْقَ ﴾ أى اصرفوا رغبتكم فى أرزاقكم إلى الله فإياه فاسألوه وحده دون غيره . ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فقيل : هو من قوله إبراهيم أى التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم ، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . قال أبو عبيد : لذكر الأمم كأنه قال أولم ير الأمم كيف . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى : « تَرَوْا » بالتاء خطابا ، لقوله : « وَإِنْ تُكَذِّبُوا » . وقد قيل : « وَإِنْ تُكَذِّبُوا » خطاب لقريش ليس من قول إبراهيم . ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعنى الخلق والبعث . وقيل : المعنى أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا . وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا . وكذلك سائر الحيوان . أى فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٥)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد سيروا فى الأرض ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم وآختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وآنظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم ؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله . ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ وقرأ أبو عمرو وآبن كثير : «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين وهما لغتان مثل الرأفة والرآفة وشبهه . الجوهرى : أنشأه الله خلقه ، والآسم النشأة والنشاءة بالمد عن أبي عمرو بن العلاء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى بعدله . ﴿ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى بفضله . ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ترجعون وتردون . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قال الفراء : معناه ولا من فى السماء بمعجزين الله . وهو غامض فى العربية ؛ للضمير الذى لم يظهر فى الثانى . وهو كقول حسان :

فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحُهُ وينصرُه سواءُ

أراد ومَن يمدحه وينصره سواء ؛ فأضمر مَن ؛ وقاله عبد الرحمن بن زيد . ونظيره قوله سبحانه : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ »(١) أى مَن له . والمعنى إن الله لا يعجزه أهل الأرض فى الأرض ولا أهل السماء إن عصوه . وقال قُطْرُب : ولا فى السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتنى فلان بالبصرة ولا هاهنا ، بمعنى لا يفوتنى بالبصرة لو صار إليها . وقيل : لا يستطيعون هربا فى الأرض ولا فى السماء . وقال المبرّد : والمعنى ولا مَن فى السماء على أن مَن ليست موصولة ولكن تكون نكرة و « فِي السَّمَاءِ » صفة لها ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف . وردّ ذلك على آبن سليمان . وقال : لا يجوز . وقال : إن مَن إذا كانت نكرة فلا بد من وصفها فصفتها كالصلة ، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة ؛ قال : والمعنى إن الناس خوطبوا بما يعقلون ؛ والمعنى لو كنتم فى السماء ما أعجزتم الله ؛ كما قال : « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ »(٢) . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ويجوز « نَصِيرٌ » بالرفع على الموضع ، وتكون « مِن » زائدة . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بما نصب من الأدلة والأعلام . ﴿ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أى من الجنة ونسب اليأس إليهم والمعنى أو يسوا . وهذه

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٧ . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨٢ .

الآيات آعتراض من الله تعالى تذكيرا وتحذيرا لأهل مكة . ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا آقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ثم آتفقوا على تحريقه ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى من إذايتها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فى إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقى فيها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ . وقراءة العامة : «جَوَابَ» بنصب الباء على أنه خبر كان و « أَنْ قَالُوا » فى محل الرفع آسم كان . وقرأ سالم الأفطس وعمرو ابن دينار : «جَوَابُ» بالرفع على أنه آسم «كان» و «أَنْ» فى موضع الخبر نصبا . ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّمَا آتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وقرأ حفص وحمزة : « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ » . وآبن كثير وأبو عمرو والكسائى : « مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ » . والأعشى عن أبى بكر عن عاصم وآبن وثاب والأعمش : « مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ » . الباقون . « مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ » . فأما قراءة آبن كثير ففيها ثلاثة أوجه ؛ ذكر الزجاج منها وجهين : أحدهما — أن المودة آرتفعت على خبر إنّ وتكون « ما » بمعنى الذى . والتقدير إن الذى آتخذتموه من دون الله أوثانا مودّةُ بينِكم . والوجه الآخر أن يكون على إضمار مبتدإ أى هى مودّةُ أو تلك مودّةُ بينِكم . والمعنى آلهتكم أو جماعتكم مودّةُ بينِكم . قال آبن الأنبارى : « أَوْثَانًا » وقف حسن لمن رفع المودّة بإضمار ذلك مودّة بينكم ، ومن رفع المودّة على أنها خبر إنّ لم يقف . والوجه الثالث الذى لم يذكره أن يكون « مَوَدَّةُ » رفعا بالآبتداء و « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبره ؛ فأما إضافة « مَوَدَّةُ » إلى « بَيْنِكُمْ » فإنه جعل « بَيْنِكُمْ » آسما غير ظرف ، والنحويون يقولون جعله مفعولا على السعة . وحكى سيبويه : يا سارق الليلة أهل الدار . ولا يجوز أن يضاف إليه وهو ظرف ؛ لعلة ليس هذا موضع ذكرها . ومن رفع « مَوَدَّةٌ » ونوّنها فعلى معنى ما ذكر ، و « بَيْنَكُمْ » بالنصب ظرفا . ومن نصب « مَوَدَّةَ » ولم ينوّنها جعلها مفعولة بوقوع الآتخاذ عليها وجعل « إنما » حرفا واحدا ولم يجعلها بمعنى الذى . ويجوز نصب المودّة على أنه مفعول من أجله كما تقول : جئتك آبتغاء الخير ، وقصدت فلانا مودّة له « بينِكم » بالخفض . ومن نوّن « مَوَدَّةً » ونصبها فعلى ما ذكر « بَيْنَكُمْ » بالنصب من غير إضافة ، قال آبن الأنبارى : ومن قرأ : « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ »

و « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ » لم يقف على الأوثان، ووقف على الحياة الدنيا . ومعنى الآية جعلتم الأوثان تحابون عليها وعلى عبادتها فى الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ تتبرأ الأوثان من عبّادها والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ »(١) . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ هو خطاب لعبدة الأوثان الرؤساء منهم والأتباع . وقيل : تدخل فيه الأوثان كقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(٢) .

قوله تعالى : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ لوط أوّل من صدّق إبراهيم حين رأى النار عليه بردا وسلاما . قال ابن إسحق آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته ، وآمنت به سارّة وكانت بنت عمه . ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ قال النّخعيّ وقتادة : الذى قال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي » هو إبراهيم عليه السلام . قال قتادة ، هاجر من كوثا وهى قرية من سواد الكوفة إلى حرّان ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة . قال الكلبي : هاجر من أرض حرّان إلى فلسطين . وهو أوّل من هاجر من أرض الكفر . قال مقاتل : هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة . وقيل : الذى قال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي » لوط عليه السلام . ذكر البيهقى عن قتادة قال : أوّل من هاجر إلى الله عز وجل بأهله عثمان ابن عفان رضى الله عنه . قال قتادة : سمعت النضر بن أنس يقول سمعت أبا حمزة يعنى أنس ابن مالك يقول : خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد رأيت خَتَنك ومعه امرأته . قال : " على أى حال رأيتهما " قالت : رأيته وقد حمل

(١) راجع ج ١٦ ص ١٠٩ .　　(٢) راجع ج ١١ ص ٣٤٣ .

امرأته على حمار من هذه الدّبّابة(١) وهو يسوقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صحبهما الله إن عثمان لأوّل من هاجر بأهله بعد لوط" قال البيهقي : هذا في الهجرة الاولى، وأما الهجرة الثانيـة إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ﴿ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني. ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم. وتقدم الكلام في الهجرة في «النساء»(٢) وغيرها.

قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ أي منّ الله عليه بالأولاد فوهب له إسحق ولدا ويعقوب ولد ولدٍ. وإنما وهب له إسحق من بعد إسمعيل ويعقوب من إسحق. ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فلم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه. ووحد الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]. فهو عبارة عن الجمع. فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده؛ والفرقان على محمد من ولده صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه؛ قاله عكرمة. وروى سفيان عن حميد ابن قيس قال : أمر سعيد بن جبير إنسانا أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه: «وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا» فقال عكرمة : أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا؛ فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله : «وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً(٣)» أي عاقبة وعملا صالحا وثناء حسنا. وذلك أن أهل كل دين يتولونه. وقيل : «آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا» أن أكثر الانبياء من ولده. ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ليس «فِي الْآخِرَةِ» داخلا في الصلة وإنما هو تبيين. وقد مضى في «البقرة»(٤) بيانه. وكل هذا حثّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق.

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا

(١) أي الضعاف التي تدب في المشي ولا تسرع. (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٤٩ فما بعد.
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٨. (٤) راجع جـ ٢ ص ١٣٣.

ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الكسائى : المعنى وأنجينا لوطا أو أرسلنا لوطا . قال : وهذا الوجه أحب إلىّ . ويجوز أن يكون المعنى واذكر لوطا إذ قال لقومه موبخا أو محذرا ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ « أَئِنَّكُمْ » تقدم القراءة فى هذا وبيانها فى سورة « الأعراف »[1] . وتقدم قصة لوط وقومه فى « الأعراف »[1] و « هود »[2] أيضا . ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ قيل : كانوا قطاع الطريق؛ قاله ابن زيد . وقيل : كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة؛ حكاه ابن شجرة . وقيل : إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال قاله وهب بن منبّه . أى استغنوا بالرجال عن النساء .

قلت : ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك . ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ النادى المجلس واختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه . فقالت فرقة : كانوا يخذفون النساء بالحصى ، و يستخفّون بالغريب والخاطر عليهم . وروت أم هانئ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . قالت أم هانئ : سألت رسول الله صلى

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ وص ٢٤٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٩ .

الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل: « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ » قال: "كانوا يخذفون من يمر بهم ويسخرون منه فذلك المنكر الذى كانوا يأتونه" أخرجه أبو داود الطيالسى فى سنده، وذكره النحاس والثعلبي والمهدوى والماوردى . وذكر الثعلبي قال معاوية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن قوم لوط كانوا يجلسون فى مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى للخذف فإذا مرّ بهم عابر قذفوه فأيهم أصابه كان أولى به " يعنى يذهب به للفاحشة فذلك قوله : « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ». وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبى بزّة[1] والقاسم ابن محمد : إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم . وقال [منصور[2] عن] مجاهد كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم وبعضهم يرى بعضا . وعن مجاهد: كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء فى جميع أمورهم . قال ابن عطية : وقد توجد هذه الأمور فى بعض عصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فالتناهى واجب . قال مكحول : فى هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط : مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحنّاء، وحلّ الإزار ، وتنقيض[3] الأصابع، والعمامة التى تلف حول الرأس ، والتشابك ، ورمى الجُلاهِق[4] ، والصفير والخذف ، واللوطية . وعن ابن عباس قال : إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة ، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ، ويشتم بعضهم بعضا، ويتضارطون فى مجالسهم، ويخذفون ويلعبون بالنّرد والشِّطْرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش، ويُطرِّفون أصابعهم بالحنّاء ، وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال، ويضربون المكوس على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسِّحاق . فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج فقالوا : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أى إن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه . وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على اعتقاد كذبه . وليس يصح فى الفطرة أن يكون معاند يقول هذا . ثم استنصر

---

(١) بفتح الموحدة وتشديد الزاى كما فى التقريب . (٢) فى كل النسخ : مجاهد ومنصور . والتصويب عن تفسير الطبرى وغيره . (٣) تنقيض الأصابع فرقعتها . (٤) الجلاهق كعلابط البندق الذى يرمى به . والخذف بالخاء المعجمة الحذف به .

لوط عليه السلام ربه فبعث عليهم ملائكة لعذابهم، فجاءوا إبراهيم أولا مبشرين بنصرة لوط على قومه حسبما تقدّم بيانه فى « هود »(١) وغيرها. وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائى: ﴿ لَنُنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ بالتخفيف. وشدّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائى: ﴿ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ بالتخفيف. وشدّد الباقون. وهما لغتان: أنجى ونجّى بمعنى. وقد تقدّم. وقرأ ابن عامر: ﴿ إِنَّا مُنَزِّلُونَ ﴾ بالتشديد وهى قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ قال قتادة: هى الحجارة التى أبقيت. وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يرجم بها قوم من هذه الأمة. وقال ابن عباس: هى آثار منازلهم الخربة وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض. وكل ذلك باق فلا تعارض.

قوله تعالى: وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدّم ذكرهم وفسادهم فى « الأعراف »(١) و « هود »(٢). ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ وقال يونس النحوى: أى اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال. ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أى لا تكفروا فإنه أصل كل فساد. والعثوّ والعثيّ أشد الفساد. عَثِيَ يَعْثَى وعثا يعثو بمعنى واحد. وقد تقدّم. وقيل: « وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ » أى صدّقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه.

قوله تعالى: وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ قال الكسائى: قال بعضهم هو راجع إلى أوّل السورة؛ أى ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادا وثمود. قال: وأحب إلىّ أن يكون معطوفا على

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ فما بعد.　　(٢) راجع جـ ٩ ص ٨٥ وص ٦٢ فما بعد.

« فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » وأخذت عادا وثمودا . وزعم الزجاج : أن التقدير وأهلكنا عادا وثمودا . وقيل : المعنى واذكر عادا إذ أرسلنا إليهم هودا فكذبوه فأهلكناهم ، وثمودا أيضا أرسلنا إليهم صالحا فكذبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عادا بالريح العقيم . ﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ يا معشر الكفار ﴿ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ﴾ بالحِجْر والأحقاف آياتٌ فى إهلاكهم فحذف فاعل التبيّن . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى عن طريق الحق . ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ فيه قولان : أحدهما وكانوا مستبصرين فى الضلالة قاله مجاهد . والثانى — كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين . وهذا القول أشبه؛ لأنه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشىء على الحقيقة . قال الفراء : كانوا عقلاء ذوى بصائر فلم تنفعهم بصائرهم . وقيل : أتوا ما أتوا وقد تبين لهم أن عاقبتهم العذاب .

قوله تعالى : وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ قال الكسائى : إن شئت كان محمولا على عاد ، وكان فيه ما فيه ، وإن شئت كان على « فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ » وصدّ قارون وفرعون وهامان . وقيل : أى وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ عن الحق وعن عبادة الله . ﴿ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ أى فائتين . وقيل : سابقين فى الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم . ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ قال الكسائى : « فَكُلًّا » منصوب بـ « أَخَذْنَا » أى أخذنا كلا بذنبه . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ يعنى قوم لوط . والحاصب ريح يأتى بالحصباء وهى الحصى الصغار . وتستعمل فى كل عذاب

﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ يعنى ثمودا وأهل مدين . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ يعنى قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قوم نوح وقوم فرعون . ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم و بعث إليهم الرسل وأزاح العذر .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ قال الأخفش : « كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ » وقف تام ، ثم قص قصتها فقال : ﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ قال ابن الأنبارى : وهذا غلط ؛ لأن « اتَّخَذَتْ بَيْتًا » صلة للعنكبوت ، كأنه قال : « كمثل التى اتخذت بيتا » ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول ، وهو بمنزلة قوله : « كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا »(١) فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل . قال الفراء: هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا . ولا يحسن الوقف على العنكبوت ؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى لا يقيها من شيء ، فشبهت الآلهة التى لا تنفع ولا تضر به . ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ أى أضعف البيوت ﴿ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ . قال الضحاك : ضرب مثلا لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ « لَوْ » متعلقة ببيت العنكبوت . أى لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التى لا تغنى عنهم شيئا ، وأن هذا مثلهم لما عبدوها ؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف . وقال النحاة : إن تاء العنكبوت فى آخرها مزيدة ؛ لأنها تسقط فى التصغير والجمع وهى مؤنثة . وحكى الفراء تذكيرها وأنشد :

على هَطَّالِهِمْ منهم بُيوتٌ * كأنّ العنكبوتَ قد ابتناها

(١) راجع جـ ١٨ ص ٩٤ .

ويروى : * على أهطالهم منهم بيوتٌ *

قال الجوهري والهطال : آسم جبل . والعنكبوت الدويّبة المعروفة التي تنسج نسجا رقيقا مهلهلا بين الهواء . ويجمع عناكيب وعَناكب وعِكاب وعُكُب وأَعْكُب . وقد حكى أنه يقال عَنْكَب وعَكَنْباة[1] ؛ قال الشاعر :

كأنما يَسقطُ من لُغَامِها * بيتُ عَكَنْبَاةٍ على زِمَامِهَا

وتُصغّر فيقال عُنَيْكِب . وقد حكى عن يزيد بن مَيْسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى . وقال عطاء الخراساني : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك نهى عن قتلها . ويروى عن عليّ رضى الله عنه أنه قال : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر ، ومنع الخمير يورث الفقر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ «ما» بمعنى الذي، و«مِنْ» للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى؛ والمعنى : إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه . وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب : «يَدْعُونَ» بالياء وهو آختيار أبي عبيد؛ لذكر الأمم قبلها . الباقون بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا ﴾[2] أي هذا المثل وغيره مما ذكر في «البقرة» و«الحج» وغيرهما ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾[3] نبينها ﴿ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ أي يفهمها ﴿ إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ ﴾ أي العالمون بالله ؛ كما روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته وآجتنب سخطه " .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالعدل والقسط . وقيل : بكلامه وقدرته وذلك هو الحق . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي علامة ودلالة ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المصدّقين .

---

(١) ويقال أيضا : عنكباة بتقديم النون على الكاف . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٤١ .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٩٦ .

قوله تعالى : ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ ﴾ أمر من التلاوة والدءوب عليها . وقد مضى فى «طه»[1] الوعيد فيمن أعرض عنها، وفى مقدمة الكتاب[2] الأمر بالحض عليها . والكتاب يراد به القرآن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليــه وسلم وأمته وإقامة الصلاة أداؤها فى أوقاتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها . وقد تقدّم بيان ذلك فى « البقرة »[2] فلا معنى للإعادة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ يريد إن الصلاة الخمس هى التى تكفر ما بينها من الذنوب ؛ كما قال عليه السلام : " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنه شىء " قالوا : لا يبقى من دَرَنه شىء ؛ قال : " فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا " خرجه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقال فيــه حديث حسن صحيح . وقال ابن عمر : الصلاة هنا القرآن . والمعنى : الذى يتلى فى الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر ، وعن الزنى والمعاصى .

قلت : ومنه الحديث الصحيح : " قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين " يريد قراءة الفاتحة . وقال حماد بن أبى سليمان وابن جُريج والكلبي : العبد ما دام فى صلاته لا يأتى فحشاء ولا منكرا؛ أى إن الصلاة تنهى ما دمت فيها . قال ابن عطية : وهذه عجمة وأين هذا مما رواه أنس بن مالك قال : كان فتى من الأنصار يصلى مع النبي صلى الله عليــه وسلم ولا يدع شيئا من الفواحش والسرقة إلا ركبه، فذُكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الصلاة ستنهاه "

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥٨ فما بعد .	(٢) راجع جـ ١ ص ١٦٢ فما بعد .

فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألم أقل لكم " .
وفى الآية تأويل ثالث، وهو الذى آرتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون؛ فقيل المراد بـ « أَقِمِ الصَّلَاةَ » إدامتها والقيام بحدودها ، ثم أخبر حكما منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة. والصلاة تشغل كل بدن المصلّى، فإذا دخل المصلّى فى محرابه وخشع وأخبت لربه وآدكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت ، وخامرها آرتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة . فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغى أن تكون .

قلت : لا سيما و إن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله، وهذا أبلغ فى المقصود وأتم فى المراد؛ فإن الموت ليس له سنّ محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . و روى عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة آرتعد وآصفر لونه ، فكُلّم فى ذلك فقال : إنى واقف بين يدى الله تعالى، وحقّ لى هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك . فهذه صلاة تنهى ولا بدّ عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل، كصلاتنا — وليتها تجزى — فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده . وعلى هذا يخرّج الحديث المروىّ عن آبن مسعود وآبن عباس والحسن والأعمش قولهم : " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا " وقد روى أن الحسن أرسله عن النبى صلى الله عليه وسلم وذلك غير صحيح السند . قال آبن عطية سمعت أبى رضى الله عنه يقول : فإذا قررنا ونُظر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصى تبعده من الله حتى كأنها معصية ، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر فى تقريبه من الله ، بل تتركه على حاله ومعاصيه ، من الفحشاء والمنكر والبعد ، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذى كان سبيله ؛ فكأنها بعّدته حين لم تكفّ بُعدَه عن الله . وقيل لآبن مسعود : إن فلانا كثير الصلاة . فقال : إنها لا تنفع إلا من أطاعها .

قلت : وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث : "لم تزده من الله إلا بعدا ولم يزدد بها من الله إلا مقتا" إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته ؛ لغلبة المعاصي على صاحبها . وقيل : هو خبر بمعنى الأمر . أي ليته المصلي عن الفحشاء والمنكر . والصلاة بنفسها لا تنهى ، ولكنها سبب الانتهاء . وهو كقوله تعالى : « هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ »[1] وقوله : « أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ »[2] .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم . قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن؛ وهو اختيار الطبري . وروى مرفوعا من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قول الله عز وجل : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » قال : "ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه" . وقيل : ذكركم اللهَ في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء . وقيل : المعنى ؛ إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر . وقال الضحاك : ولذكر الله عند ما يحرم فيترك أجلّ الذكر . وقيل : المعنى ولذكر الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر أي كبير ، وأكبر يكون بمعنى كبير . وقال ابن زيد وقتادة : ولذكر الله أكبر من كل شيء أي أفضل من العبادات كلها بغير ذكر . وقيل : ذكر الله يمنع من المعصية فإن مَن كان ذاكرا له لا يخالفه . قال ابن عطية : وعندي أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق ، أي هو الذي ينهي عن الفحشاء والمنكر ، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل في غير الصلاة ؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرٍ اللهَ مراقبٍ له . وثواب ذلك أن يذكره الله تعالى ؛ كما في الحديث "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم" والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهيٍ ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله . وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى . وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربَّه . قال الله عز وجل : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ »[3] . وباقي الآية ضرب من الوعيد والحثّ على المراقبة .

(١) راجع ج ١٦ ص ١٧٥ . (٢) راجع ج ١٤ ص ٣٣ . (٣) راجع ج ٢ ص ١٧١ .

قوله تعالى : وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — آختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ فقال مجاهد : هى محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته ؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة . وقوله على هذا : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق . وقيل: المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله آبن سَلَام ومن آمن معه . ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك . وقوله على هذا التأويل: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ يريد به من بقى على كفره منهم ، كمن كفر وغدر من قريظة والنَّضِير وغيرهم . والآية على هذا أيضا محكمة . وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال . قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ »[1] . قاله قتادة « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى جعلوا لله ولدا، وقالوا : « يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ »[2] و « إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ »[3] فهؤلاء المشركون [الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا[4]] الجزية فآنتصروا [منهم] . قال النحاس وغيره : من قال هى منسوخة آحتج بأن الآية مكية ، ولم يكن فى ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا طلب جزية ، ولا غير ذلك . وقول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول. وآختار هذا القول آبن العربى .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٠٨ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٣٧ فما بعد . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٩٤ .
(٤) عبارة الأصول هنا : «فهؤلاء المشركون فى سقوط الجزية ... الخ» والتصويب مستفاد من كتب التفسير .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : وقوله : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب بخدالهم بالسيف حتى يؤمنوا ، أو يعطوا الجزية .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة : قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية، لأهل الإسلام ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم" « وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ » . وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما أن تكذّبوا بحق وإما أن تصدّقوا بباطل"(1) . وفي البخاري : عن حُمَيد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعبَ الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لَنَبْلُو عليه الكذب .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ الضمير في « قَبْلِهِ » عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي وما كنتَ يا محمد تقرأ قبله ، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك ، فلو كنت ممن يقرأ كتابا، ويخط حروفا ﴿ لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلّق،وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه أميّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به. قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأ؛ فنزلت هذه الآية ؛قال النحاس : دليلا على نبوته لقريش،لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم،وزالت الريبة والشك.

(1) في ش : إما أن تكذبوا الحق وإما أن تصدقوا الباطل .

الثانيــة — ذكر النقاش فى تفسير هذه الآية عن الشعبى أنه قال : ما مات النبى صلى الله عليه وسلم حتى كتب . وأسند أيضا حديث أبى كَبْشة السَّلُولى ؛ مضمنه : أنه صلى الله عليه وسلم قرأ صحيفة لعُيَيْنة بن حِصن ، وأخبر بمعناها . قال ٱبن عطية : وهذا كله ضعيف ، وقول الباجى رحمه الله منه .

قلت : وقع فى صحيح مسلم من حديث البراء فى صلح الحديبية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : "ٱكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله" فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله تابعناك — وفى رواية بايعناك — ولكن ٱكتب محمد بن عبد الله فأمر عليّا أن يمحوها ، فقال على : والله لا أمحاه (١) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أرنى مكانها" فأراه فمحاها وكتب ٱبن عبد الله . قال علماؤنا رضى الله عنهم : وظاهر هذا أنه عليه السلام محا تلك الكلمة التى هى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيده ، وكتب مكانها ٱبن عبد الله . وقد رواه البخارى بأظهر من هـذا . فقال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتب . وزاد فى طريق أخرى : ولا يحسن أن يكتب . فقال جماعة ، بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده ، منهم السمنانى وأبو ذرّ (٢) والباجى ، ورأوا أن ذلك غير قادح فى كونه أمّيا ، ولا معارض بقوله : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » ولا بقـوله : "إنا أمة أمّيـة لا نكتب ولا نحسب" بل رأوه زيادة فى معجزاته ، وٱستظهارا على صدقه وصحـة رسالته ، وذلك أنه كتب من غير تعلم لكتابة ، ولا تعاطٍ لأسبابها ، و إنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ٱبن عبد الله لمن قرأها ، فكان ذلك خارقا للعادة ؛ كما أنه عليه السلام عَلِم عِلم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا ٱكتساب ، فكان ذلك أبلغ فى معجزاته ، وأعظم فى فضائله . ولا يزول عنه ٱسم الأمىّ بذلك ؛ ولذلك قال الراوى عنه فى هذه الحالة : ولا يحسن أن يكتب . فبقى عليه ٱسم الأمىّ مع كونه قال كتب . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وقد أنكر هذا كثير من

---

(١) محا الشىء يمحوه ويمحاه محوا ومحيا أذهب أثره .

(٢) السمنانى هو أبو عمرو الفلسطينى . وأبو ذر هو عبد الله بن أحمد الهروى . والباجى هو أبو الوليد .

متفقهة الأندلس وغيرهم، وشددوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية ، وعدم التوقف فى تكفير المسلمين، ولم يتفطنوا ؛ لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه السلام فى الصحيح ، لا سيما رمىُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة ؛ على أن المسألة ليست قطعية ، بل مستندها ظواهر أخبار أحادٍ صحيحة ، غير أن العقل لا يحيلها . وليس فى الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

قلت : وقال بعض المتأخرين من قال هى آية خارقة، فيقال له : كانت تكون آية لا تنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهى كونه أميا لا يكتب ؛ وبكونه أميًّا فى أمة أميّة قامت الحجة ، وأُلجم الجاحدون، وانحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية . وإنما الآية ألّا يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضا . وإنما معنى كتب وأخذ القلم ؛ أى أمر من يكتب به من كُتّابه ، وكان من كتبة الوحى بين يديه صلى الله عليه وسلم ستة وعشرون كاتبا .

الثالثة — ذكر القاضي عِياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : "ألِقِ الدواة وحرّف القلَم وأقم البـاء وفرّق السين ولا تُعور الميم وحسّن الله ومدّ الرحمن وجوّد الرحيم" قال القاضي : وهذا وإن لم تصح الرواية أنه صلى الله عليه وسلم كتب فلا يبعد أن يُرزَق علم هذا ، ويُمنَع القراءة والكتابة .

قلت : هذا هو الصحيح فى الباب أنه ما كتب ولا حرفا واحدا ، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجى . فإن قيل : فقد تهجى النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر الدجال فقال : "مكتوب بين عينيه ك ا ف ر" وقلتم إن المعجزة قائمة فى كونه أميا؛ قال الله تعالى: « وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ » الآية وقال : "إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب" فكيف هذا؟ فالجواب ما نص عليه صلى الله عليه وسلم فى حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضا . ففى حديث حذيفة "يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب" فقد نصّ فى ذلك على غير الكتاب ممن يكون أميًّا . وهذا من أوضح ما يكون جليا .

قوله تعالى : بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ يعنى القرآن . قال الحسن : وزعم الفراء فى قراءة عبد الله « بَلْ هِيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » المعنى بل آيات القرآن آيات بينات . قال الحسن : ومثله « هَٰذَا بَصَائِرُ »(١) ولو كانت هذه لجاز، نظيره : « هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي »(٢) قال الحسن : أعطيت هذه الأمة الحفظ، وكان من قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظرا ، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون . فقال كعب فى صفة هذه الأمة : إنهم حكماء علماء وهم فى الفقه أنبياء.﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه . وهى كذلك فى صدور الذين أوتوا العلم ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به، يحفظونه و يقرءونه . ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين . وقال قتادة وابن عباس : « بَلْ هُوَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم « آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » من أهل الكتاب يجدونه مكتوبا عندهم فى كتبهم بهذه الصفة أميا لا يقرأ، ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا. وهذا اختيار الطبرى. ودليل هذا القول قراءة ابن مسعود وابن السَّمَيْقَع : « بَلْ هَٰذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » وكان عليه السلام آيات لا آية واحدة ؛ لأنه دلّ على أشياء كثيرة من أمر الدين ؛ فلهذا قال : « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » . وقيل : بل هو ذو آيات بيّنات، فحذف المضاف . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أى الكفار ؛ لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به .

قوله تعالى : وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

(١) راجع ج ٧ ص ٣٥٢ فما بعد . (٢) راجع ج ١١ ص ٥٥ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعناه هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء . قيل : كما جاء صالح بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى ؛ أى ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فهو يأتى بها كما يريد ، إذا شاء أرسلها وليست عندى ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ . وقرأ ابن كثير و أبو بكر وحمزة والكسائى : « آيَةٌ » بالتوحيد . وجمع الباقون . وهو اختيار أبى عبيد؛ لقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ هذا جواب لقولهم « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ » أى أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذى قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله ، أو بسورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا : سحر ونحن لا نعرف السحر ؛ والكلام مقدور لهم ، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة . وقيل : إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتف فيه كتاب فقال "كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم" فأنزل الله تعالى: « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ » أخرجه أبو محمد الدارمى فى مسنده. وذكره أهل التفسير فى كتبهم. وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه : " لو كان موسى بن عمران حيًّا لما وسعه إلا اتباعى " وفى مثله قال صلى الله عليه وسلم " ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن " أى يستغنى به عن غيره. وهذا تأويل البخارى رحمه الله فى الآية. وإذا كان لقاء ربه بكل حرف عشر حسنات فأكثر على ماذكرناه فى مقدمة الكتاب فالرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقصان . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فى القرآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ فى الدنيا والآخرة . وقيل : رحمة فى الدنيا باستنقاذهم من الضلالة . ﴿ وَذِكْرَى ﴾ فى الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أى قل للمكذبين لك كفى بالله شهيدا يشهد لى بالصدق فيما أدعيه من أنى رسوله ، وأن هذا القرآن كتابه . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شيء . وهذا احتجاج عليهم فى صحة شهادته عليهم ؛ لأنهم قد

أقروا بعلمه فلزمهم أن يقروا بشهادته . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ قال يحيى بن سلام : بإبليس . وقيل : بعبادة الأوثان والأصنام ؛ قاله ابن شجرة . ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ أى لتكذيبهم برسله ، وبجحدهم لكتابه . وقيل : بما أشركوا به من الأوثان ، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أنفسهم وأعمالهم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ لما أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار : عجّل لنا هذا العذاب . وقيل : إن قائل ذلك النّضر بن الحرث وأبو جهل حين قالا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ »[1] وقولهم : « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ »[2] وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ فى نزول العذاب . قال ابن عباس : يعنى هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة . بيانه : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ »[3] . وقال الضحاك : هو مدة أعمارهم فى الدنيا . وقيل : المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى ؛ قاله يحيى بن سلّام . وقيل : الوقت الذى قدره الله لهلاكهم وعذابهم ؛ قاله ابن شجرة . وقيل : هو القتل يوم بدر . وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر. دليله قوله : « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ »[4] . ﴿ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ يعنى الذى استعجلوه . ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى لا يعلمون بنزوله عليهم . ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أى يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة ، فما معنى الاستعجال . وقيل : نزلت فى عبد الله بن أبى أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا »[5] .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٥٥ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٤٥ فما بعد . (٤) راجع جـ ٧ ص ١١ . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٧ فما بعد

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قيل : هو متصل بما هو قبله ؛ أى يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم . وإنما قال : ﴿ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ للقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم؛ كما قال الشاعر :

* عَلَفْتُهَا تِبْنًا وماءً بارِدًا (١) *

وقال آخـر :

لقد كان قوّادَ الجيادِ إلى العِدَا * عليهنّ غابٌ من قَنًى ودروع

﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة : « نَقُولُ » بالنون . الباقون بالياء . وآختاره أبو عبيد؛ لقوله : « قُلْ كَفَى بِاللهِ » ويحتمل أن يكون الملك الموكّل بهم يقول : « ذُوقُوا » والقراءتان ترجع إلى معنى . أى يقول الملك بإمرنا ذوقوا .

قوله تعالى : يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ هذه الآية نزلت فى تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة — فى قول مقاتل والكلبي — فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأن البقاء فى بقعة على أذى الكفار ليس بصواب . بل الصواب أن يتلمس عبادة الله فى أرضه مع صالحى عباده ؛ أى إن كنتم فى ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها . وقال آبن جبير وعطاء : إن الأرض التى فيها الظلم

(١) تمام البيت : * حتى شتت همالة عيناها *

والمنكر تترتب فيها هذه الآية ، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق . وقاله مالك . وقال مجاهد : « إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ » فهاجروا وجاهدوا . وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير : المعنى إن رحمتي واسعة . وعنه أيضا : إن رزقي لكم واسع فآبتغوه في الأرض . قال سفيان الثوري : إذا كنت بأرض غالية فانتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزا بدرهم . وقيل : المعنى : إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة . ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾ حتى أورثكموها . « فَإِيَّايَ فَٱعْبُدُونِ » « إِيَّايَ » منصوب بفعل مضمر ، أي فاعبدوا إياي فآعبدون ، فآستغنى بأحد الفعلين عن الثاني ، والفاء في قوله : « فَإِيَّايَ » بمعنى الشرط ؛ أي إن ضاق بكم موضع فإياي فآعبدوني [في غيره][1] ؛ لأن أرضي واسعة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ تقدّم في « آل عمران »[2] . وإنما ذكره هاهنا تحقيرا لأمر الدنيا ومخاوفها . كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا ، فحقر الله شأن الدنيا . أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا ، فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل . ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضا منه تعالى ، وذكر الجزاء الذي ينالونه ، ثم نعتهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وآبن أبي إسحق وآبن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف : « يَاعِبَادِي » بإسكان الياء . وفتحها الباقون . « إِنَّ أَرْضِي » فتحها آبن عامر . وسكنها الباقون . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو قيد شبر آستوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم " عليهما السلام . « ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » . وقرأ السلمي وأبو بكر عن عاصم : « يُرْجَعُونَ » بالياء ؛ لقوله : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وقرأ الباقون بالتاء ؛ لقوله : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا » وأنشد بعضهم :

الموتُ في كلِّ حينٍ يَنْشُدُ الكَفَنَا * ونحن في غفلةٍ عمّا يُرادُ بِنَا
لا تَركَنَنَّ إلى الدنيا وزَهْرتِها * وإن توشَّحْتَ من أثوابها الحَسَنَا

---

(1) زيادة يقتضيها السياق . (2) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧ فما بعد .

أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فعلُوا * أينَ الذين هُمُو كانوا لها سَكَنَا
سقاهُمُ الموتُ كأسًا غيرَ صافيةٍ * صيرهم تحت أطباقِ الثَّرَى رُهُنَا

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيي بن وثاب وحمزة والكسائي : «لَنُثْوِيَنَّهُمْ» بالثاء مكان الباء من الثوى وهو الإقامة؛ أي لنعطينهم غرفا يثوون فيها . وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسلمي : « لَيُبَوِّئَنَّهُمْ » بالياء مكان النون . الباقون ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ أي لننزلهم » « غُرَفًا » جمع غرفة وهي العِلِّيَّة المشرفة . وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد[1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدريَّ الغابرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم " قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال " بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين " وخرج الترمذى عن عليّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فى الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها " فقام إليه أعرابى فقال: لمن هى يارسول الله ؟ قال : " هى لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام " وقد زدنا هذا المعنى بيانا فى كتاب « التذكرة » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أسند الواحدى عن يزيد بن هرون، قال : حدثنا حجاج بن المنهال عن الزهرى — وهو عبد الرحمن بن عطاء — عن عطاء عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر [ويأكل][2] فقال " يابن عمر مالك لا تأكل " فقلت لا أشتهيه يا رسول الله فقال " لكنى أشتهيه وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاما ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين " قال : والله ما برحنا حتى نزلت : « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

(١) هذه رواية أبى سعيد الخدرى ؛ كما فى صحيح مسلم . (٢) الزيادة من كتاب «أسباب النزول» للواحدى

قلت : وهـذا ضعيف يُضعِفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سَنَتهم ، اتفق البخاري عليه ومسلم . وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين . وقد روى ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون "اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة" قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت : « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أي ليس معها رزقها مدخرا، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجـرة . وهذا أشبه من القول الأول . وتقدم الكلام في « كَأَيِّنْ » وأن هذه « أيّ » دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيهـا معنى كم . والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد . أي كشيء كثير من العدد من دابة . قال مجاهد : يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئا . الحسن : تأكل لوقتها ولا تدخر لغد . وقيل : « لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أي لا تقدر على رزقها « اللَّهُ يَرْزُقُهَا » أينمـا توجهت « وَإِيَّاكُمْ » . وقيـل : الحمل بمعنى الحمالة . وحكى النقاش : أن المراد النبيّ صلى الله عليه وسلم يأكل ولا يدخر .

قلت : وليس بشيء، لإطلاق لفظ الدابة، وليس مستعملا في العرف إطلاقها على الآدمي فكيف على النبيّ صلى الله عليه وسـلم . وقد مضى هذا في « النمل »[1] عند قوله : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » قال ابن عباس : الدوابّ هو كل مادبّ من الحيوان، فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ابن آدم والنمـل والفأر . وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في مِحْضَنه . ويقـال للعقعق مخابيء إلا أنه ينساها . ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ يسـوّي بين الحريص والمتوكل في رزقـه، وبين الراغب والقـانع، وبين الحَيُـول والعاجز حتى لا يغـتر الجلِد أنه مرزوق بجلَده، ولا يتصوّر العاجز أنه ممنـوع بعجزه . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسـلم « لو أنكم توكّلون على الله حـق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا » . ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعائكم وقولكم لا نجـد ما ننفق بالمدينـة ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بمـا في قلوبكم .

(١) راجع ص ٢٣٣ من هذا الجزء .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية . لما عيّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء ، وكان هذا تمويها ، وكان فى الكفار فقراء أيضا أزال الله هذه الشبهة . وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق . أى فإذا آعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء ، فكيف تَشكُّون فى الرزق ، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد ؛ ولهذا وصله بقوله تعالى : « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ » . ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى كيف يكفرون بتوحيدى و ينقلبون عن عبادتى . ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر ، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر ، فكل شىء بقضاء وقدر . ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالكم وأموركم . وقيل : عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى من السحاب مطرا . ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أى جدبها وقحط أهلها . ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى فإذا أقررتم بذلك فلم تشركون به وتنكرون الإعادة . و إذا قدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين ؛ فكرر تأكيدا . ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته . ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

أى لا يتدبرون هذه الحجج . وقيل : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ » على إقرارهم بذلك . وقيل : على إنزال الماء وإحياء الأرض . ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ أى شىء يُلْهَى به ويُلْعَب. أى ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول؛ كاللعب الذى لا حقيقة له ولا ثبات، قال بعضهم : الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها . وأنشد :

تروحُ لنا الدنيا بغير الذى غَدَتْ * وتَحدثُ من بعد الأمور أمورُ
وتجرِى الليالى باجتماعٍ وفُرقةٍ * وتطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغورُ
فمن ظنّ أنّ الدهرَ باقٍ سروره * فذاكَ محالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفَا اللهُ عمّن صيّر الهمّ واحدًا * وأيقن أن الدائراتِ تَدُور

قلت : وهذا كله فى أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضرورى الذى به قوام العيش، والقوة على الطاعات . وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذى يبقى كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ »[1] أى ما ٱبتغى به ثوابه ورضاه . ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ أى دار الحياة الباقية التى لا تزول ولا موت فيها . وزعم أبو عبيدة: أن الحيوان والحياة والحِىّ بكسر الحاء واحد . كما قال[2] :

* وقد ترى إذ الحياةُ حِىُّ *

وغيره يقول : إن الحِىّ جمع على فِعول مثل عِصىّ . والحيوان يقع على كل شىء حىّ . وحيوان عينٌ فى الجنة . وقيل : أصل حَيَوان حَيَيَان فأبدلت إحداهما واوا ؛ لاجتماع المثلين . ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أنها كذلك .

قوله تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٤ فما بعد (٢) البيت للعجاج وتمامه :

* وإذ زمان الناس دغفلى *

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ يعنى السفن وخافوا الغرق ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى صادقين فى نياتهم ، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى يدعون معه غيره ، وما لم ينزل به سلطانا . وقيل : إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملّاح لغرقنا ، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله و بين خلقه .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ قيل : هما لام كى أى لكى يكفروا ولكى يتمتعوا . وقيل : « إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله و يتمتعوا بالدنيا . وقيل : هما لام أمر معناه التهديد والوعيد . أى اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا . ودليل هذا قراءة أُبَيّ « وَتَمَتَّعُوا » . ابن الأنبارى : ويقوى هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة : « وَلْيَتَمَتَّعُوا » بجزم اللام . النحاس : « وَلِيَتَمَتَّعُوا » لام كى، و يجوز أن تكون لام أمر ؛ لأن أصل لام الأمر الكسر ، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد . ومن قرأ : « وَلْيَتَمَتَّعُوا » بإسكان اللام لم يجعلها لام كى؛ لأن لام كى لايجوز إسكانها . وهى قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع،وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم . الباقون بكسر اللام . وقرأ أبو العالية: « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » تهديد ووعيد .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : هى مكة وهم قريش أمّنهم الله تعالى فيها . ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ قال الضحاك : يقتل بعضهم بعضا ويسبي بعضهم بعضا . والخطف الأخذ بسرعة . وقد مضى فى « القصص »[1]

(١) راجع ص ٢٩٩ من هذا الجزء .

وغيرها . فأذكرهم الله عز وجل هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة . أى جعلتُ لهم حرما آمنا أمنوا فيه من السّبي والغارة والقتل، وخلّصتهم فى البر كما خلصتهم فى البحر، فصاروا يشركون فى البر ولا يشركون فى البحر . فهذا تعجب من تناقض أحوالهم . ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال قتادة : أفبالشرك . وقال يحيى بن سلّام : أفبإبليس . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ قال ابن عباس : أفبعافية الله . وقال ابن شجرة : أفبعطاء الله وإحسانه . وقال ابن سلّام : أفبما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى . وحكى النقاش : أفبإطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف يكفرون . وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكا وولدا، وإذا فعل فاحشة قال : « وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا »[1] . ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ قال يحيى بن سلّام : بالقرآن . وقال السّدّى : بالتوحيد . وقال ابن شجرة : بمحمد صلى الله عليه وسلم . وكل قول يتناول القولين . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى مستقر . وهو استفهام تقرير .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ أى جاهدوا الكفار فينا . أى فى طلب مرضاتنا . وقال السّدّى وغيره : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال . قال ابن عطية : فهى قبل الجهاد العرفى، وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته . قال الحسن بن أبى الحسن : الآية فى العبّاد . وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم : هى فى الذين يعملون بما يعلمون . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من عمل بما علم علّمه الله ما لم يعلم " ونزع بعض العلماء إلى قوله : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ »[2] . وقال عمر بن عبد العزيز : إنما قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » . وقال أبو سليمان الدارانى : ليس الجهاد فى الآية

(١) راجع ج ٧ ص ١٨٧ . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٧٧ فما بعد .

قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين؛ وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله وهو الجهاد الأكبر. وقال سفيان بن عُيَيْنة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: «لَنَهْدِيَنَّهُمْ». وقال الضحاك: معنى الآية؛ والذين جاهدوا فى الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان. ثم قال: مثل السُّنة فى الدنيا كمثل الجنة فى العقبى، من دخل الجنة فى العقبى سلم، كذلك من لزم السُّنة فى الدنيا سلم. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال. ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة من طلبنى فلم يجدنى فليطلبنى فى موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويجتنب أسوأ ما يعلمه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير أى الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أى طريق الجنة؛ قاله السّدى. النقاش: يوفقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى لنخلصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لام تأكيد ودخلت فى «مَعَ» على أحد وجهين: أن يكون اسما ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أوحرفا فتدخل عليها؛ لأن فيها معنى الاستقرار؛ كما تقول إن زيدا لفى الدار. و«مَعَ» إذا سكنت فهى حرف لا غير. و إذا فتحت جاز أن تكون اسما، وأن تكون حرفا. والأكثر أن تكون حرفا جاء لمعنى. وتقدّم معنى الإحسان والمحسنين فى «البقرة»[1] وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيّتين بونٌ.

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٦١.

محققه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده



تم بعون الله تعالى الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر وأوله سورة «الروم»

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٧٣٥٣

ISBN ٩٧ - ٠١ - ١٥٥٠ - ٩